تفسير سورة الأحزاب

بقلم الأستاذ

عبد الفتاح خليفة

المدرس بدار العلوم

مطبعة مجلة الإسلام بمصر لصاحبها أمين عبد الرحمن



تفسير سورة الأحزاب

إلى صاحب الفضل الأستاذ الكبير والمربي العظيم القدير المحترم
[illegible] ناظر دار العلوم مهدى المخلص
١٤ شعبان ١٣٥٦ عبد الفتاح خليفة
١٩ [illegible] ١٩٣٧

بقلم الأستاذ

عبد الفتاح خليفة

المدرس بدار العلوم

مطبعة مجلة الإسلام تليفون ٥٣٣١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وما النصر إلا من عند الله ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ؛ وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله؛ فوصلهم الله بالظفر ، وبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم

وبعد فقد رغب إلى كثير ممن يقرءون ما أكتب فى التفسير أن أطبع لهم تفسير سورة الاحزاب ، لما اشتملت عليه من بيان فضل الرسول وأزواجه الطاهرات ، والحكمة فى إباحة تعدد الزوجات ، وما حوته من العبر وكبير العظات ، فلبيت الطلب مستعيناً بالله ، متوكلا على الله ، وقد ضمنت هذا التفسير كل ما استطعت مما يبطل تقوّل المضلين ، ويدحض كلام المبطلين : فى الحكمة فى زواجه ﷺ بأكثر من أربع ووفاته عن تسع ، وجمعت فيه ما يظهر الأدب الاسلامى ، بأنه خير أدب أخرج للناس ، وإنى أرجو ممن تقع فى يده نسخة من هذا التفسير أن يستوعب قراءتها ، حتى يكون لى وله الأجر ؛ وله الفضل والشكر ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب ؟

عبد الفتاح خليفة

المدرس بدار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا *
مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ
اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ
ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا
آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا * النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ
فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *

هذه السورة شرح وبيان للسورة السابقة وتقرير وتوكيد لها؛
وتوضيح لاثبات رسالته ﷺ ، ومقامه الكريم ، وجهاده العظيم ،

لما أمره ربه عز وجل فى آخر السورة السابقة بانتظار الفرج والنصر فى الدنيا والفصل فى الخصومات فى الآخرة – أمره فى أول هذه السورة بتقوى الله تعالى وألا يطيع الكافرين والمنافقين ، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا بآيات الله تعالى وأعرضوا عنها ، فلا يأمن جانبهم ولا يسمع لهم قولا ، وسيفصل الله بينهم يوم القيامة كما قال ، فاعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ، فأول هذه السورة توكيد لآخر سورة السجدة ، وكلاهما فى معنى واحد ، وهو امره ﷺ بالسير فى طريقه القويم ، والاعراض عن أولئك الكافرين ، حتى يمكنه الله منهم فى الدنيا ويعذبهم بذنوبهم فى الآخرة ، فهذه هى المناسبة بين السورتين ، وبين أول هذه وآخر تلك . وهذه السورة تسمى سورة الاحزاب ، وقد نزلت فى المدينة فهى مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية ، وقد نسخ الله منها آيات صارت لاتتلى وإن بقيت أحكامها ، فمن ذلك الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة (نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : أيها الناس ، إن الله بعث محمدا بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان ، فيقول قائل لانجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وعن حذيفة قال قال لى عمر بن الخطاب : كم تعدون سورة الاحزاب ؟ قلت : ثنتين أو

ثلاثا وسبعين . قال إن كانت لتقارب سورة البقرة ، وإن كان فيها لآية الرجم . قال تعالى لنبيه ﷺ : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) إلخ فى النداء بأى بعد يا تشريف المنادى وتنبيه على بيان قدره العظيم ، فقولك يارجل أقل فى الخطر من قولك يأيها الرجل ، والاتيان بلفظ النبي بعد يأيها يدل على أن المنادى معصوم ، جليل القدر ، ﷺ ، وقد نودى عليه الصلاة والسلام فى القرآن الكريم بالنبى والرسول دون اسمه ونودى غيره من الرسل باسمه فقال تعالى يا آدم ، يانوح ، ياإبراهيم ، ياموسى ياعيسى ، ياداود ، ولم يجيء اسمه الشريف منادى بل جاء مخبرا عنه (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) وأما قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) ففيه بيان أنه رسول منزل عليه كتاب هو الحق ، وأن من آمن به نال السعادة فى الدنيا والآخرة فهو مقام إخبار وليس مقام نداء ، ولم يقسم الله تعالى فى القرآن الكريم إلا به ﷺ فقد قال (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) وفي هذا غاية التشريف وعلو القدر والمقام ، كما فى قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) وقوله : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) وهذا قليل من كثير مما ورد فى مقامه الكريم ، قال تعالى

(يَـاأَيُّهَا النَّبِـيُّ) الـكريم العظيم (اتَّقِ اللهَ) تعالى ، زد من التقوى ، وأدم على التقوى ، فما من كمال إلا وعند الله أكمل منه ، والتقوى تزداد كما أن الايمان ينقص ويزيد ، وهذا الأمر كما فى قول المؤمنين اهدنا الصراط المستقيم ، أى أدمنا على الهداية إلى الصراط المستقيم وقد يؤمر المرء بأمر وهو متلبس به كما فى قولك للمجد: اجتهد، تريد منه أن يديم هذا الاجتهاد ويستمر عليه ويكثر منه ، وقد يخاطب المرء والمقصود غيره ، فالله تعالى خاطب نبيه والمقصود أمته ، فهو خطاب للأعلى والمقصود من دونه ، ليكون أوقع عند السامع ، فانه إذا سمع الأعلى يؤمر بأمر علم أن من دونه أولى أن ينفذ هذا الأمر ، والتقوى أن تقى نفسك من غضب الله تعالى بعمل ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ، رغبة في الثواب ، واحتراساً من العقاب ، اتق الله بطاعته وأداء فرائضه ، وكل حقوقه عليك والانتهاء عما نهى عنه (وَلَا تُطِعِ الْـكَافِرِينَ) المجاهرين بالـكفر ، المعروفين به (وَالْمُنَافِقِينَ) الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله (يَـاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِـعِ الْـكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) وروى أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا على النبى

صلى الله عليه وسلم في زمان الموادعة التي كانت بينه وبينهم وكان معهم عبد الله بن أبي ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا له ﷺ ارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك ، فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ) وعن ابن جريج (وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ) أبي بن خلف (وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ) أبو عامر الراهب ، وعبدالله بن أبي بن سلول والجد بن قيس ، لا تسمع لهؤلاء الكافرين الذين يقولون ارجع عن قولك وارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع ، والذين يقولون لك اطرد عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك ، ولا تسمع لهؤلاء المنافقين الذين يخوفونك بالقتل ، أولئك الذين يظهرون لك الايمان بالله والنصيحة لك ، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالا ، فلا تقبل من الفريقين شيئاً ، ولا تسمع لهم رأياً ، ولا تستشر منهم أحداً ، فانهم لك أعداء ، أهل كيد ودهاء . فلا تطع الكافرين من أهل مكة ، ولا تطع المنافقين من أهل المدينة ، واتق الله وأطع الله وأرض الله (إِنَّ ٱللَّهَ) تعالى شأنه (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (عَلِيمًا) يعلم كل أمر من مبدئه إلى نهايته (حَكِيمًا) يضع كل شيء في موضعه لحكمة بالغة ، وثمرة سامية ، والعليم الحكيم أولى وأحق أن يتقى ويطاع أمره ، ويجتنب مانهى عنه ، لا هؤلاء الكافرون والمنافقون . وتخصيص الكافرين والمنافقين بترك إطاعتهم ، لأنهم أهل شر وسوء يتربصون به وبأصحابه

وبدينه الدوائر . أما المؤمنون فيسمع لهم ويأخذ برأيهم متى رأى أنه الحق ، وقد أمره الله تعالى بمشاورتهم فى قوله (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) فالكافر والمنافق لا يؤمن جانبهما ، وواجب على كل مؤمن ألا يسمع لهما ، وأن يأخذ حذره منهما ، بخلاف المؤمن فانه مأمون العاقبة وبخاصة مع نبيه ﷺ ، ولما بين أن الله عليم حكيم أمره باتباع ما يأمر به وينهى عنه في كتابه الحكيم ، وقرآنه الكريم فقال : (وَاتَّبِعْ) ياذا الخلق العظيم (مَا يُوحَىٰ) وينتهى (إِلَيْكَ) مع جبريل عليه السلام (مِن رَّبِّكَ) من الآيات والذكر الحكيم ، وهذا أمر للنبي ﷺ ولكل مؤمن أن يعمل بالقرآن وآيه ، ولذلك قال : (إِنَّ اللَّهَ) تعالى الذى أنزل الكتاب المبين (كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ) من خير أو شر (خَبِيرًا) لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه غائبة ، فيجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء ويجزى السيئة بمثلها ويعفو عمن تاب ، ويعاقب من كفر وجحد ومات على كفره وجحوده ، ولما أمره ربه عز وجل بالتقوى وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين بشره بقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) فهو يعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، وأنك تود إيمانهم لعلهم للاسلام يرفعون ، ويعلم مايسرون وما يعلنون ، وأنهم كافرون منافقون ، ولما أمره باتباع مايوحى إليه بشره بقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فهو يعلم ما تعملون من الخيرات ، ويعلم مايعمل الكافرون والمنافقون من السيئات ، ويجازى كلا بعمله ، فما بعد إن

فى الآيتين مناسب لما قبله ولما بعده ، مما يدل على كمال الترتيب والتناسب ولما كان ﷺ ينتظر من إيمانهم خيراً ، ويترقب من إسلامهم نفعا ، مما قد يوهم أنه متوكل فى نشر الاسلام على إيمانهم قال له ربه عز اسمه لا تبال بهؤلاء ولا تنتظر منهم خيراً (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) تعالى العليم الحكيم الخبير القوى القهار فى كل أمورك وأحوالك ، وثق بربك فى النصر والظفر ورفعة الاسلام وكثرة المسلمين ، وإعزاز شأن الدين (وَكَفَى بِاللَّهِ) العزيز القدير (وَكِيلًا) حفيظا معينا موكولا إليه الأمر وله الحكم وإليه يرجع الفصل ، فهو الكفيل وحده أن ينصر ويحفظ ويسعد من توكل عليه ، وأناب إليه ، ولما أمره بتقوى الله وألا يخشى سواه ، وأن يتوكل على الله . أكد ذلك ثانية ، بأن يخلص قلبه لله ، ولا يشغله بغير مولاه ، وأن يدعوهم إلى أمر الله ، وينهاهم عن محارم الله من الظهار والتبنى وتوارث غير الأقربين فقال عز وجل (مَا جَعَلَ اللَّهُ) تعالى وما خلق (لِرَجُلٍ) أو امرأة أو أى حيوان (مِّن قَلْبَيْنِ) يعقل بهما أو يكونان سببا فى حياته (فِي جَوْفِهِ) الذى هو محل القلب حتى يخشى بأحدهما الله ، ويخشى بالثانى الناس ، أو يفقه بأحدهما أمراً ، وبالثانى أمراً آخر أو يستمد حياته منهما ، ولم يكن هذا ولن يكون ، فلتكن الوجهة إلى الله وحده فى كل الأمور ، وفى هذا توجيه للنبى ﷺ إلى أن يفرغ قلبه لربه ، ولا يهتم بأمر هؤلاء الكافرين والمنافقين بعد أن بلغهم رسالة ربه على وجهها الأكمل ، فان أسلموا فخير لهم ، وإن

لم يسلموا فشر عليهم ؛ وأن يسير فى طريقه داعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا ، وألا يعول عليهم ولا على إسلامهم ، بل يعول فى كل أمره على ربه ، وهذا ما يجب أن يعمله كل مؤمن ومسلم فى كل أحواله ، يقوم بأعماله على أكمل وجوهها معتمداً على الله تعالى فى جميعها ، ثم أراد أن ينهى الناس عن أمور سيئة اعتادوها بعد أن أمرهم بتخليص القلب لله تعالى فبدأ بالنهى عن عادة الظهار فقال (وَمَا جَعَلَ) ولم يجعل الله تعالى (أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ)فيحرمن لحرمة الأمهات بمجرد الظهار ، وهذا إبطال لما كان فى الجاهلية من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها ، يقال ظاهر من زوجته إذا قال لها أنت علىّ كظهر أمى . وعدى ظاهر عن لتضمنه معنى باعد ، والمراد بالظهر مااستتر منها من باب إطلاق الجزء على الكل ، وخص الظهر دون غيره تأدباً وابتعاداً عن ذكر غيره ، مما يقبح التصريح به ولأنه لايحل النظر إليه لغير الزوج ولو أتى بجزء آخر مما لايحل النظر إليه لغير الزوج كان ظهاراً ، فاذا قال لزوجته أنت علىّ كظهر أمى أو كبطن أمى حرمت عليه ولا تحل له إلا بالكفارة ، وهى عتق رقبة فان لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فان لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً غداء وعشاء معتاداً — ثم أراد النهى عن عادة التبنى فقال عز وجل (وَمَا جَعَلَ) ولم يجعل الله تعالى (أَدْعِيَاءَكُمْ) جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا فهو فعيل بمعنى مفعول ، ماجعل الله أدعياءكم بمجرد تبنيهم

(أَبْنَاءَكُمْ) كأبنائكم فى كل أحكام النبوة من النسب والتوارث وغيره وهذا إبطال لعادة أخرى وهى التبنى كانت فى الجاهلية وجزءاً من صدر الاسلام ، وقد تبنى رسول الله ﷺ قبل البعثة زيد بن حارثة ، وتبنى الخطاب عامر بن ربيعة ، وتبنى أبو حذيفة سالما ، وقد نزلت هذه الآية فى زيد بن حارثة كان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله أن يقطع هذا الالحاق وهذه النسبة وتلك العادة بقوله جل شأنه . (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) كما قال فى هذه السورة (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَـٰكِنْ رَسُولَ اللهِ ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وقال هنا (ذَلِكُمْ) الالحاق وهذا التبنى إنما هو (قَوْلُكُمْ) يخرج (بِأَفْوَاهِكُمْ) فلا يقتضى أن يكون الدعى ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للانسان الواحد قلبان فهو ابن أبيه من النسب ولو تبناه غيره (وَاللهُ) تعالى (يَقُولُ الْحَقَّ) الثابت فى كلامه وأحكامه التى منها إخلاص القلب لله تعالى وترك الظهار ، وترك التبنى (وَهُوَ) بتلك الأحكام (يَهْدِي) بفضله وإحسانه عباده المخلصين (السَّبِيلَ) سبيل الحق الثابت فاسمعوا لقوله ، واعملوا بأمره ، ودعوا مانهى عنه من التبنى وغيره ، ثم أمرهم بأن ينسبوا الأبناء إلى آبائهم من الصلب تأكيدا لما سبق فقال جل شأنه : (ادْعُوهُمْ) ادعوا من ألحقتموهم بكم وهم ليسوا منكم (لِآبَائِهِمْ)

من الذنب فلا تقولوا زيد بن محمد، ولا عامر بن الخطاب ولكن قولوا زيد بن حارثة، وعامر بن ربيعة ذلك الدعاء (هُوَ أَقْسَطُ) هو أعدل (عِنْدَ اللهِ) تعالى فيرضى عنكم ويحبكم، والتفضيل ليس مراداً من لفظ أقسط بل المراد أنه هو القسط والعدل، وقد نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة رضي الله عنه، فعن ابن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول صلى الله عليه وسلم : ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) فقال النبي ﷺ أنت زيد بن حارثة بن شراحبيل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان من أمر زيد بن حارثة رضى الله عنه، أنه كان في أخواله بني معن بن ثعل من طيء : فأصيب في غلمة من طيء ؛ فقدم به — من أصابه — سوق عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ، يتسوق بها، فأوصته عمته خديجة رضى الله عنها، أن يبتاع لها غلاما ظريفاً عربياً، إن قدر عليه، فلما جاء وجد زيدا يباع فيها فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها، وقال لها إني قد ابتعت لك غلاما ظريفاً عربيا فان أعجبك فخذيه، وإلا فدعيه ؛ فانه قد أعجبني، فلما رأته خديجة أعجبها، فأخذته فتزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فأعجب النبي ﷺ ظرفه ؛ فاستوهبه منها فقالت هو لك ؛ فان أردت عتقه فالولاء لي، وأبى عليها، فوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك، قال فشب عند النبي ﷺ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام، فمر بأرض قومه فعرفه عمه، فقام إليه

فقال : من أنت ياغلام ، قال : غلام من أهل مكة ، قال : من أنفسهم ، قال : لا ، قال لحر أنت أم مملوك ؟ قال بل مملوك قال لمن ؟ قال لمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، فقال له : أعربى أنت أم عجمى ؟ قال: بل عربى ، قال : ممن أهلك ؟ قال : من كلب ، قال : من أى كلب ؟ قال : من بنى عبدود ، قال ويحك ! ابن من أنت ؟ ؟ قال ابن حارثة بن شراحبيل قال: وأين أصبت؟ قال: فى أخوالى ، قال: ومن أخوالك ، قال طيء ، قال مااسم أمك ؟ قال سعدى ، فعرف أنه ابن حارثة — ودعا أباه — وقال : ياحارثة هذا ابنك فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال: كيف صنع مولاك إليك ، قال: يؤثرنى على أهله وولده ورزقت منه حبا فلا أصنع إلا ما شئت ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول الله ﷺ ، فقال له حارثة: يامحمد أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، ابنى عبدك فامنن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فانك ابن سيد قومه ، فانا سنرفع لك فى الفداء ما أحببت ، فقال له رسول الله ﷺ : أعطيكم خيرا من ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قال : أخيره ، فان اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارنى فكفوا عنه ، قالوا جزاك الله خيرا ، فقد أحسنت ، فدعا رسول الله ﷺ فقال يازيد أتعرف هؤلاء قال نعم : هذا أبى وعمى وأخى ، فقال رسول الله ﷺ فأنا من قد عرفته ، فان اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتنى فانا من تعلم ، فقال زيد ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا أنت منى بمكان الوالد والعم ، فقال له أبوه وعمه ، يازيد تختار العبودية على

الربوبية ، قال ما أنا بمفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه قال اشهدوا أنه حر ، وأنه ابني يرثني وأرثه ، فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه ، فلم يزل زيد فى الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) فدعى زيد بن حارثة ، وعن الحسن بن عثمان رضى الله عنه قال حدثنى عدة من الفقهاء وأهل العلم قالوا كان عامر بن ربيعة يقال له عامر بن الخطاب وإليه كان ينسب فأنزل الله فيه وفى زيد بن حارثة وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن عمرو (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) الآية ، ادعوهم لآبائهم إن علمتم آباءهم (فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا) ولم تعرفوا (آبَاءَهُمْ) فتنسبوهم إليهم (فَإِخْوَانُكُمْ) فهم إخوانكم (فِي الدِّينِ) إن كانوا من أهل ملتكم (وَمَوَالِيكُمْ) إن كانوا عتقاءكم ومحرريكم ولا تدعوهم أبناءكم وقد شدد النبي ﷺ فى النهى عن ذلك ، فقال : من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام ، وقال ﷺ ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم إلا كفر ، وللقضاء على هذه العادة أباح الشرع التزوج من زوجة الدعى إذا طلقها وقضت عدتها ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك فتزوج زينب بنت جحش وكانت زوجة زيد ابن حارثة فطلقها مختاراً كارهاً عشرتها وكارهة عشرته ، واعتدت وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) ؟ إذا طلقوهن ، وقال تعالى في آية التحريم

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) احترازاً من زوجة الدعي فانه ليس من الصلب ، والمنهى عنه هو الالحاق والتبني والنسبة إلى غير أصله فيقال عامر بن الخطاب وزيد بن محمد وهما عامر بن ربيعة ، وزيد بن حارثة. أما قولك يا بنى أو يا أبنائي لغير ابنك وأبنائك فلاحرج فيه، لأن هذا من باب العطف وتنزيل غير الابن منزلة الابن ويقع هذا كثيراً فما يفعله بعض السيدات العقيمات وبعض السادة العقيمين من التبنى ودعوته بين الناس بأنه ابن فلانة أو ابن فلان وليس لها فهو حرام ، لما فيه من التشبه بأهل الجاهلية وخشية ضياع الانساب، وإذا نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأ فلا جناح عليكم ولا إثم فيه كما قال تعالى (وَلَا جُنَاحَ) ولا إثم (عَلَيْكُمْ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ) من الالحاق بغير الآباء من غير تعمد (وَلَكِنْ) عليكم جناح فى (مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) فيما ألحقتموه بغير أبيه عن قصد وتعمد بعد النهى عنه وظهور الحكم فيه بنزول هذه الآية (وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً) يغفر لمن تاب ما سبق منه عن عمد من نسبته لغير أبيه (رَحِيماً) يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات لمن تاب وأناب . ثم أكد النهى عن التبنى وأن الرسول ليس أبا لزيد ، بل هو أعلى منزلة من الأب والنفس والمال وكل عزيز فقال عز شأنه (النَّبِيُّ) محمد ﷺ « أَوْلَى » وأحق (بِالْمُؤْمِنِينَ) وأقرب إليهم (مِنْ أَنْفُسِهِمْ) فى التوقير والتعظيم والحفظ والصون ، لأنه لا يأمرهم ولا

يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، روى أنه ﷺ قال : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين ، وورد أن عمر رضى الله عنه قال يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال ﷺ : لا . ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال والله يارسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء حتى من نفسى ، فقال ﷺ الآن ياعمر ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) ولما بين منزلته ﷺ ناسب أن يبين منزلة أزواجه الطاهرات فقال عزَّ وجل (وَأَزْوَاجُهُ) ﷺ (أُمَّهَاتُهُمْ) مثل الامهات فى الحرمة والاحترام والتوقير والاكرام إلا الإرث، والمراد من دخل بهن رضى الله عنهن ، وكان المسلمون يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة فى مبدأ الاسلام ، فنسخ الله ذلك بقوله : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) وأصحاب القرابة (بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) فى التوارث بالقرابة (فِي كِتَابِ اللَّهِ) فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم . وهو هذه الآية وآية المواريث (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ) فأهل القرابة أولى بالإرث من الأنصار والمهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالمؤاخاة فى صدر الاسلام ، قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه ، للأخوة التى آخى

بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير ابن العوام رضى الله عنه قال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الاخوان ، فواخيناهم ووارثناهم ، فآخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد ، وآخى عمر رضى الله عنه فلانا ، وآخي عثمان رضى الله عنه رجلا من بني زريق ابن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير رضى الله عنه : وواخيت أنا كعب بن مالك ، فجئته خرفا ، فوالله لو مات يومئذ عن الدنيا ماورثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هـذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فرجعنا إلى مواريثنا اهـ — وصار طريق الإرث مابينه الله فى آية المواريث ، وصار غير المهاجرى من المسلمين يرث المهاجرى بالقرابة ، ثم استثنى الوصية من هذا الحكم وأنها تصح لغير أولى الارحام ، ولا تصح لأولى الأرحام . فقال جل شأنه (إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ) من غير ذوى القرابة (مَعْرُوفًا) هو الوصيـة ، فان أوصى لغير أولى الأرحام نفذت وصيته فى الثلث ، والاستثناء متصل كأنه قيل القريب أولى من الاجنبي من المؤمنين والمهاجرين فى كل نفع من ميراث وصدقة وهبة إلا فى الوصية فانها المراد بقوله (مَعْرُوفًا) فان الاجنبي أحق بها من القريب الوارث ، ولا تجـوز للقريب ويصح أن

يكون الاستثناء منقطعا ويكون المراد الأولوية فى الميراث فكأنه قيل القريب الوارث أولى من الأجنبى بالارث، لكن الوصية لمن أحببتم من غير الوارثين جائزة ويجوز أن يكون المستثنى عاما فى كل معروف إلا الارث فكأنه قيل القريب الواراث أولى بالإرث من الاجنبى، لكن كل معروف من غير الارث من هبة أووصية أو صدقة جائز « كَانَ ذَلِكَ » الذى سبق بيانه من أول السورة إلى هنا « فِى الْكِتَابِ » فى اللوح المحفوظ أو القرآن الكريم « مَسْطُوراً » مقيداً مذكوراً ، فهو من عند الله الذى يجزى الصغيرة والكبيرة ، فاعمل أيها المسلم بما جاء بالكتاب الحكيم والقرآن الكريم « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً

هذا استئناف لبيان أنه ﷺ مأمور بالتبليغ فى قوله (وَاتَّبِعْ

مايُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وهـذا الأمر بالتبليغ قد أمر به جميع الأنبياء ، وقد أخذ عليهم الميثاق بعد الميثاق أن يبلغوا مايوحى إليهم وأن يتبعوه ولا يتجاوزوه ، فهذه هي المناسبة بين هذه الآيات والتي قبلها ، ففي السابقة أمر باتباع الوحى ، وفى هذه أمر بتبليغ الوحى ، قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا) واذكر وقت أخذنا (مِنَ النَّبِيِّين) جميعاً (مِيثَاقَهُمْ) العهد منهم وعليهم بتبليغ الرسالة ، والدعاء إلى الدين القويم بما آتاهم الله من قوة ، وقد أخذ الله هـذا الميثاق على كل نبى عند إرساله أن يبلغ ماأمر بتبليغه ، وأن يصدق من سبقه من الأنبياء فيما جاءوا به من ربهم ، ولو أنه أتى بأزيد ممن سبقه ، أو نسخ شيئاً لمن سبقه كما أوحى إليه ، وكما أمره مولاه الحكيم العليم ، ثم خصص خمسة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فذكرهم ثانياً لأنهم من أولى العزم، ولأنهم أولو فضل ظاهر، ومزية واضحة، فقال عز وجل : (وَمِنْكَ) أى وأخذنا الميثاق منك أيها النبي الكريم ، وإنما قدم نبينا ﷺ لأفضليته (وَمِن نُّوحٍ) عليه السلام ، وأخذنا الميثاق من نوح ، ولم يذكر آدم عليه السلام لأن رسالته كانت إرشاداً لأولاده ولم يكن معها عقاب للمخالفين بالاهلاك ، وبدأ بنوح عليه السلام ، لأنه أصل ثان للناس بعد الطوفان ، وقد عاقب الله قومه المخالفين بالطوفان (وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ) عليهم السلام (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ) من هؤلاء النبيين الكرام (مِيثَاقاً) عظيما (غَلِيظاً) وثيقاً قوياً

جليل الشأن ، وأعاد هذا المعنى مع أنه مفهوم من قوله (مِيثَاقَهُمْ) لتأكيد أنه ميثاق وثيق قوى شديد ، لا ككل ميثاق ، فالميثاق الغليظ هو نفس الميثاق الأول المفهوم من قوله . (مِيثَاقَهُمْ) أو هو ميثاق آخر ، فيكون الأول مأخوذاً بطريق الاقرار من غير يمين على أنهم يبلغون رسالة ربهم ، ويكون الثانى مأخوذاً بطريق القسم «اليمين» على أن يبلغوا الرسالة بعد ذلك الاقرار الأول فكان ميثاقا غليظاً لأنه بعد إقرار ولأنه مع قسم ويمين ، وإنما أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل وأمرهم وأخذ عليهم الميثاق بالتبليغ (لِيَسْأَلَ) الله يوم القيامة (الصَّادِقِينَ) من الأنبياء والصالحين الذين صدقوا بما أوحى إليهم وصدّقوا الرسل فيما جاءوا به ، وعملوا بما أمروا به ، وتركوا مانهوا عنه . فيسألهم ربهم يوم يقوم الناس لرب العالمين (عَنْ صِدْقِهِمْ) لتطمئن قلوبهم ، ولتظهر لأهل الموقف درجاتهم ، ولتتلقاهم الملائكة بالبشرى قائلين لهم هذا يومكم الذى كنتم توعدون (وَأَعَدَّ) الله تعالى يوم القيامة (لِلْكَافِرِينَ) الذين ماتوا على الكفر (عَذَاباً) شديدا (أَلِيماً) يؤلمهم ويشوى وجوههم وأبدانهم ماكثين فيه أبداً لايجدون عنه محيصا ولا مفراً ، وعلى هذا فعاقبة المكلفين . إما ثواب وإما عذاب ، والصادق مثاب والكاذب معاقب ، ومما يؤثر عن على رضى الله عنه أنه قال : فى وصف الدنيا ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وأعد معطوف على أخذنا ، فكأنه قيل أخذ الله تعالى على

النبيين ميثاقهم أن يبلغوا رسالة ربهم ، لأجل إثابة المؤمنين ، وأعد للكافرين عذابا أليما ، أو يكون معطوفا على المأخوذ من قوله ليسأل ، كأنه قيل ، يسألهم ليثيبهم وقد أثابهم ، وأعد لغيرهم عذابا أليما ، أو فى الكلام حذف واكتفاء ومقتضى الظاهر أن يقال : ليسأل الصادقين عن صدقهم ، فاذا سألهم أعد لهم نعيما مقيما ، وليسأل المكذبين عن تكذيبهم ، فاذا سألهم أدانهم وأعد لهم عذابا أليما ، أو يكون أعد جملة حالية على تقدير قد والمعنى ليسأل الصادقين عن صدقهم وقد أعد للكافرين عذابا أليما ، ثم أكد الأمر بالاتقاء من الله وحده مرة أخرى فقال : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) إلخ . ومن هذه الآية إلى قوله تعالى : (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) نزلت فى غزوة الأحزاب ؛ وهى غزوة الخندق ، ففى هذه الغزوة اشتد الأمر على الأصحاب لاجتماع المشركين بأسرهم واليهود بأجمعهم يريدون استئصال النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم فنصر الله أولياءه ، وخذل أعداءه ، (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً) فينبغى للعبد ألا يخاف وألا يتقى إلا ربه العلى الكبير ، القدير البصير ، وسأتكلم على هذه الغزوة المباركة ثم أتبعها بالتفسير فأقول وبالله هدايتى وتوفيقى وهو حسبى ونعم الوكيل .

غزوة الاحزاب

وتسمى غزوة الخندق وسببها أنه ﷺ ذهب فى دية إلى بنى النضير فأجمعوا أمرهم على الغدر به ﷺ وقتله ، وصعد أحدهم على سطح كان الرسول جالسا تحت جداره ليلقى عليه حجرا فيقتله، وعرف الرسول ذلك فقام مسرعا وجمع الناس لغزو بني النضير فغزاهم ونصره الله عليهم وأجلاهم عن المدينة ، فحنقوا لذلك وذهب كبراؤهم إلى مكة وحرضوا قريشاً على حرب الرسول، وقالوا لهم إنا معكم حتى نستأصل محمداً ﷺ ومن معه، وقال أبو سفيان مرحبا وأهلا ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ﷺ ولكنا لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا ، ثم قالت قريش لهم: أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقالوا : أنتم أهدى سبيلا ، فأنزل الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً . فَمِنْهُمْ

مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنهُم مَّن صَدَّ عَنهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً » وقال فيهم الامام البوصيرى:

لا تـكذب إن اليهود وقد زا غوا عن الحـق معشر لؤماء
جحدوا المصطفى وآمن بالطا غوت قوم هم عندهم شرفاء

وفرحت قريش بالوفد ودعوته إلى حرب الرسول ، وعندئذ خرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا، وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا، وأن يكونوا كلهم يداً واحدة على محمد ﷺ مابقى منهم رجل ، ثم ذهب الوفد الخاسر إلى غطفان وأعلموهم بمحالفة قريش ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم ناصروهم فتجهزت قريش وأتباعها وغطفان وأتباعها، وقائد قريش سفيان بن حرب وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزارى وانضمت لقريش وغطفان قبائل العرب، فكانت عدة هذا الجيش بما فيه من عرب ويهود زهاء اثنى عشر ألفا انقسموا إلى ثلاث فرق ، وساروا وقيادتهم إلى أبى سفيان بن حرب، بقضهم وقضيضهم ، وجمعهم وجموعهم ، وخيلهم وأبعرتهم ، وعدتهم وعددهم ، وخيلائهم وكبريائهم لا يشكون فى ظفرهم وانتصارهم وأنهم سيستأصلون الرسول وأصحابه ، ولما علم الرسول بأمرهم ، دعا الناس وأخبرهم خبر عـدوهم ، وشاورهم فى الامر ، فاشاروا عليه بالخندق ، وكان سلمان الفارسى رضى الله عنه هو الذى أشار بذلك، فاتبعوا هذا الرأى وحفروا الخندق حول المدينة ، وقد عمل الرسول مع المسلمين فى حفره ، وحمل

التراب على ظهره ، وأصاب المسلمين تعب وجوع لأنه كان زمن عسرة وعام مجاعة ، فجعل الرسول يسليهم بقوله :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للانصار والمهاجرة

وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد مابقينا أبداً

وجعل الرسول يقول وهو يحمل التراب وقد غطى التراب جلد بطنه الشريف :

والله لولا الله ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إذ لاقينا
المشركون قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

وجعلوا يعملون باستمرار ، وإذا احتاج أحدهم لحاجة استأذن الرسول في قضائها ثم يعود للعمل ، وجعل المنافقون يتباطئون ويخذلون غيرهم من غير استئذان ، ونام زيد بن ثابت من شدة التعب فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم فى الخندق . فلما أفاق فزع على سلاحه ، فسأل الرسول عمن عنده علم بسلاحه ، فقال عمارة أنا يارسول الله وهو عندى فأمره برده إليه ، ونهى أن يروع المسلم أخاه ويأخذ متاعه ولو لاعباً . وقد استعصت على الصحابة صخرة عظيمة فشكوا إلى الرسول ، فأخذ المعول وضربها ، فصارت كثيباً مهيلا ورملا سائلا ، ولما ضرب ظهر بريق من المعول فى الصخرة ، فبشرهم الرسول بفتح اليمن والشام وبلاد كسرى ، فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ،

ويخبركم أنكم تفتحون البلاد والمدائن وأنتم تحفرون الخندق في الفَرَق والخوف ، لا تستطيعون أن تبرزوا ، فأنزل الله تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يحملان التراب فى أثوابهما لفقدهما المكاتل (القاطف) ، وكان من أكثر الناس عملا وشدة فى حفر الخندق سلمان الفارسى رضي الله عنه ، حتى قال الأنصار هو منا ، وقال المهاجرون هو منا ، فقال النبى ﷺ هو منا أهل البيت ؛ وجاءت ابنة بشير بن سعد لأبيها ولخالها عبد الله بن رواحة وهما يحفران الخندق ، بقليل من التمر ليتغديا به ؟ فقال لها الرسول هاتيه فصبته فى كفى الرسول فما ملأهما ، ثم أمر بثوب فبسط وجعل عليه التمر ، وأمر أن ينادى في أهل الخندق ، هلموا إلى الغداء ، فاجتمعوا يأكلون وهو يزيد ؛ حتى صدروا عنه ، وإنه ليملأ جوانب الثوب ، وكان المسلمون قد لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون زاداً ، وقد ربط الرسول الحجر على بطنه من الجوع ليكون قدوة وأسوة للمسلمين والناس أجمعين . والله قادر علي أن يرسل إليه الخير كله

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

ومكثوا فى حفر الخندق أكثر من عشرين يوما ، وكان الغلمان من بلغ ومن لم يبلغ يعمل فيه ، ولما فرغ الرسول من حفر الخندق كانت قريش قد أقبلت بمن معها وهم زهاء اثني عشر ألفاً ، فنزلت قريش بمجمع

الأسيال ، وغطفان ومن معهم إلى جانب أحد ، وكان المسلمون ثلاثة لاف فأكثر ، عسكر بهم الرسول إلى سفح سلع وهو جبل فوق المدينة ، فجعل ظهر عسكره إلى سلع وجعل الخندق بينه وبين العدو ، وضربت له قبة من أدم يتعاقب فيها ثلاثة من نسائه وهن عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش ، رضى الله عنهن ، وجعل النساء والذرارى فى الآطام ، وعرض الغلمان ، فمن رآه بلغ خمس عشرة سنة أبقاه ، ومن كان صغيراً رده إلى أهله . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه ، وأمر المسلمين بالجد ووعدهم النصر ، وأعطى لواء المهاجرين زيد بن حرقة ، ولواء الأنصار سعد بن عبادة ، وأرسل الرسول سليطاً وسفيان ابن عوف طليعة ، فقتلهما الأحزاب فجيء بهما إليه ﷺ ، فأمر بدفنهما فى قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان ، وبذلك كان الأحزاب هم البادئين بالعدوان ، وقد صار كل قائد منهم يجول بعسكره حول الخندق ويجتمعون ويفترقون ، ويناوشون المسلمين ، ومضت مدة وليس بينهم وبين المسلمين إلا الرمى بالنبل والحجارة ، ثم رأوا فى الخندق مضيقاً ، فأقبل نوفل ابن عبد الله بن المغيرة على فرسه واقتحمه فوقع فى الخندق واندقت عنقه وقتله الله وطلبوا جثته على جعل فلم يقبل الرسول وصرح لهم بها من غير جعل ، وسعى حُيى بن أخطب إلى بنى قريظة حتى حملهم على نقض عهد الرسول ، وكان حُيى بن أخطب فى اليهود كأبى جهل فى قريش ؛ عداوة وبغضاً للرسول لعنهما الله ، وأرسل الرسول من يأتى بخبر بنى قريظة ، فعاد الرسل وأخبروا أن بنى قريظة نقضوا العهد فاشتد الأمر

على الرسول وأصحابه ، وشاع الخبر ، وعظم البلاء ، وخيف على من فى المدينة من الذرارى والنساء أكثر من الخوف على أهل الخندق فأرسل الرسول قسما من الجيش لحمايتهم ، وأصبح العدو يحدق بالمسلمين من كل جانب ، فاضطربت النفوس ، وكثرت الظنون ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا ، وأرجف المنافقون وقالوا (مَاوَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورا) وخرجت طائفتان من المسلمين ليلا فاقتتلوا وكل يظن أنه يقاتل عدوه وكان فيهم جراحة وقتل ، ولما نادوا بشعارهم وهو (حم لا ينصرون) كف بعضهم عن بعض ، وعلم الرسول فقال جراحكم فى سبيل الله ، ومن قتل فهو شهيد وكان الرسول يذهب بمفرده لحراسة ثغرة كانت فى الخندق، فاذا أخذه البرد استدفأ ثم عاد إلى الحراسة وهو يقول (ماأخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها) ثم عهد بحراستها إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وذهب إلى قبته فنام قليلا ثم قام يصلي ، وكان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة لقوله تعالى (وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ) وخرج فرأى كثرة المشركين ، فقال . اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك ، ودعا عليهم مرة أخرى فقال : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم وزلزلهم ، وقال. ياصريخ المكروبين ، يامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فانك ترى مانزل بى وبأصحابي ، وأخذ الرسول يدبر الامر وسط هذا الكرب

الشديد إلى عيينة بن حصن الفزارى قائد غطفان و إلى الحارث بن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن معهما ولهما ثلث ثمار المدينة فطلبا النصف فأبى الرسول ثم رضيا بالثلث وكتبا صحيفة بذلك ، ولم يوقع عليها الرسول حتى أخبر سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما واستشارهما فقالا يارسول الله ، إن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة، وإن كان هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف ، فقال ﷺ . لو أمرنى الله ماشاورتكما ، والله ماأصنع ذلك إلا لانى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم الى أمر ما ، فقال سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم — يريد غطفان على الشرك بالله وعبادة الاوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة الا قرى أو بيعاً . وان كانوا ليأكلون العلهز[1] فى الجاهلية من الجهد . أفحين أكرمنا الله بالاسلام . وهدانا له . وأعزنا بك و به نعطيهم أموالنا ونعطى الدنية . مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا و بينهم فابطلوا امابا لصحيفة . وقال الرسول لعيينة والحارث . ارجعا . بيننا و بينكم السيف رافعا صوته ﷺ ، ولما طال المقام بالمشركين أقبلت طائفة منهم وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق وفيهم عمرو بن ود ، وعمره إذ ذاك تسعون سنة ، فقال من يبارز فقام إليه على رضى الله عنه وقال أنا له يارسول الله ، فقال

---

(١) العلهز سيء الطعام من لحم ونبات

الرسول اجلس فانه عمرو بن ود ، فكرر عمرو النداء وجعل يستهزئ ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ، وأنشد أبياتا منها

ولقد بححت من النـدا ء بجمعكم هل من مبارز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقام إليه على رضى الله عنه فقال له الرسول اجلس فانه عمرو بن ود ثم نادى الثالثة فقام على رضي الله عنه فقال له الرسول إنه عمرو فقال على رضى الله عنه وإن كان عمراً ، فاذن له النبي ﷺ ، وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته ، وقال : اللهم أعنه عليه ، اللهم هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فردا ، وأنت خير الوارثين ، ومشى على رضى الله عنه إلى عمرو — لعنه الله وهو ينشد أبياتاً منها .

لا تعجلن فقـد أتـا ك مجيب قولك غير عاجز
ذو نيـة وبصيرة والصدق منجي كل فائز

ثم قال ياعمرو : إنك كنت تقول لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها قال أجل ! فقال على فاني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتسلم لرب العالمين ، فقال يابن أخي : أخرعني هذه ، قال فأخرى ترجع إلى بلادك ، فان يك محمد ﷺ صادقا كنت أسعد الناس به ، وإن يك كاذبا كان الذى تريد ، قال هذا مالا تتحدث به نساء قريش أبداً ، قال فالثالثة ماهي ؟ قال البراز ، فضحك عمرو ، وقال إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحـداً من العرب يروعني بها يابن أخي ، والله

ما أحب أن أقتلك، فقال علي رضي الله عنه ولـكني والله أحب أن أقتلك انزل عن فرسك فنزل مغضباً ، وسل سيفـه كأنه شعلة نار ، فعقر به فرسه وضرب وجهه ؛ وأقبل على علي رضي الله عنـه فاستقبله علي بدرقته فضربها عمرو بسيفه فقدها وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأس علي فشجه ، فضربه علي فقطع حبل عاتقه فسقط عمرو صريعاً وكبر المسلمون وعرف الرسول أنه قتل حين سمع التـكبير ، وفرح المسلمون ، وخذل المشركون ، وقالوا نريد جثته بعشرة آلاف دينار ، فقال الرسول هو لـكم ولا نأكل ثمن الموتى ، وكان شعار الأنصار (حم لا ينصرون) وشعار المهاجرين (ياخيل الله) ، وهم المسلمون بقتل من اقتحموا الخندق ففروا هاربين ، وأسلم نعيم بن مسعود الأشجعي وأتى إلى الرسول ، فقال له ﷺ ، إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا مااستطعت؛ فان الحرب خدعة ، وقل ما بدا لك ، فأنت في حل ، فخرج نعيم إلى بني قريظة وقال لهم إن قريشا وغطفان ليسوا مثلـكم — البلد بلدكم ؛ وبها أموالـكم ونساؤكم وأبناؤكم ، ولا تقدرون أن ترحلوا عنه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان إن كانت نصرة ربحوا ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينـكم وبين بلدكم ومحمد فيه ، ولا طاقة لـكم به إن خلا بكم ،فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً سبعين رجـلا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ؛ حتى يقاتلوا معكم محمداً ، ولا يتركوكم ، فقالوا أشرت بالرأي فقال لهم اكتموا عني ، قالوا نفعل ، ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان ومن معه إن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين

محمد من نقضهم عهده وأرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ؛ فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان سبعين رجلا من أشرافهم ، تضرب أعناقهم ، ونكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم: فأرسل إليهم أن نعم ! فان بعثوا إليكم يطلبون رهنا من رجالكم : فلا تدفعوا إليهم رجلا واحداً ، واحذروهم على أسراركم، واكتموا عنى ماقلت لكم ثم ذهب إلى غطفان وقال مثل مقالته لقريش وحذرهم ، فأرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بنى قريظة يوم السبت يقولون : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال وتعالوا نناجز محمداً ومن معه ، ونفرغ مما بيننا وبينهم: فقال بنو قريظة . إننا لا نقاتل هذا اليوم، ولا نقاتل حتى تعطونا رهناً سبعين رجلا . فقالوا : صدق والله نعيم، وكسر ذلك من شوكتهم وفرق من جمعهم . ولما أراد الله الانتقام من الظالمين ، وهزيمة المشركين ، أرسل عليهم ريحا عاصفاً ، فى ليال شديدة البرد معتمة مظلمة فقوضت بيوتهم ، وقطعت أطنابهم ، وأطفأت نيرانهم ، وكفأت قدورهم وصارت تلقى الرمال على أمتعتهم ، وأرسل الله عليهم الملائكة وكانوا ألفا، فزلزلوا ، ووقع الرعب فى قلوبهم: قال تعالى ، (وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً) فتنادوا بالرحيل، وتولوا مدبرين وتركوا ما استثقلوه من أمتعتهم (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً) واقتصرت هذه الريح على المشركين ولم تصب المسلمين ، والميدان واحد ، والله قادر ، وما ذلك على الله بعزيز

لما شغل المشركون بالريح عن المسلمين ، قال الرسول : ألا رجل يقوم ، فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة قال ذلك ثلاثا ، فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد ، فدعا الرسول حذيفة بن اليمان وقال له : تسمع كلامي ولا تقوم؟ فقال : لا ، والذي بعثك بالحق ماقدرت ، لما بي من الجوع والخوف والبرد ، فقال اذهب حفظك الله من أمامك ، ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، حتى ترجع إلينا ، فقام حذيفة مستبشراً وقد ذهب عنه كل ما كان يجده ، ومضى حتى دخل صفوف المشركين ، والظلام دامس ، والريح عاصف ، فوجدهم يتنادون الرحيل الرحيل ، لما أصابهم من طول المقام ، وذهاب الخف والحافر ، ووقوع الخلاف بينهم وبين قريظة بخدعة نعيم رضي الله عنه ، واستيلاء الرعب على قلوبهم من الملائكة ، ثم عاد حذيفة إلى الرسول فوجده قائما يصلي ، فلما أتم أخبره ، فحمد الله وأثنى عليه ، وبقي حذيفة في عافية منذ خروجه إلى المشركين ، حتى عودته إلى الرسول وإخباره ثم عاوده البرد وجعل يرتعد ، فدعاه الرسول وغطاه بفضل شملته ، فنام حتى مطلع الفجر — فالمسلم مادام في طاعة ربه فهو في أمن وعافية وحفظ من كل سوء . ولما علم الرسول والمؤمنون ماحل بالمشركين فرحوا فرحا عظيما ، وشكروا الله كثيرا ، وقال الرسول حين رأى انصراف المشركين مخذولين ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، وعند منصرفهم أرسل أبو سفيان إلى الرسول بكتاب يقول فيه : لقد سرت إليك في جمع

وأنا أريد ألا أعود حتى أستأصلكم، ولك مني يوم كيوم أحد، فارسل اليه الرسول كتابا فيه : أما بعد فقد أتانى كتابك،وقد ماغرك بالله الغرور أما ماذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا فيه العافية وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة، وهبل (أصنامهم بالكعبة يعبدونها) وقد كان ماقال الرسول ، وصدق الله وعده ، ونصر حزبه ، وكسر الرسول هذه الاصنام يوم فتح مكة (وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ

يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا
الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ
الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا *
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً .

لما أمر الله سبحانه وتعالى بتقواه ، والتوكل عليه والتفرغ له ، ونهى عن دعوى الجاهلية ، وأظهر مقام نبيه ﷺ ، وأنه مقدم لدى كل مؤمن على نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين ، وبين أنه أخذ الميثاق على الرسل كلهم بالتبليغ ، شرع يقيم البرهان على ذلك كله بما كان في غزوة الاحزاب مما يبرهن على أن الله تعالى هو الذى يجب أن يتقى ، وأن يتوكل عليه ، وأن يفرد بالتقديس والتعظيم ، وأن رسوله ﷺ هو النبي حقاً ، المحبوب حقاً ، المصطفى المختار صدقا ، المقدم على النفس والمال وكل نفيس ، فان الله نصره وأكرمه وأعزه وأظفره على كثرة أعدائه ، وقلة أصحابه ، فقال جل شأنه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)
يذكر قصة الاحزاب وهى وقعة الخندق وكانت فى شوال سنة خمس للهجرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) الآية ، قال كان يوم أبي سفيان

يوم الاحزاب ، وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال يوم الخندق : يارسول الله ، هل من شيء تقول ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، قال نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم الله بالريح ، فالآيات نزلت في غزوة الأحزاب قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) بالله تعالى و كتبه ورسله وبما جاء به النبي محمد ﷺ من السابقين الاولين،من الانصار والمهاجرين(اذْكُرُوا) واشكروا (نِعْمَةَ ٱللَّهِ) تعالى التى أنعمها (عَلَيْكُمْ) يوم الخندق وهى نعمة على المؤمنين بعدكم ، فان انكسار الاحزاب فى هذا اليوم كان انكساراً شديدا لم تقم لهم بعده قائمة ، فأعز الله الدين، ونصر المؤمنين فهى نعمة عامة ، ومنة تامة للمتقدمين والمتأخرين من المؤمنين،اذكروا أيها المؤمنون (إِذْ جَآءَتْكُمْ) إلى المدينة(جُنُودٌ)هى جنود الاحزاب بقضها وقضيضها ، وخيلها ورجلها ، وشاؤها ونعمها وعدتها وسلاحها ، تريد استئصالكم ، وتبغى محوكم ، وتغلي صدورها بالحقد عليكم ، وهم قريش ، وبنو أسد ، وغطفان ، وبنو عامر ، وبنوسليم ،وبنو النضير وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة ؛ فى اثنى عشر ألفاً ، ولم يكن مع الرسول سوى ثلاثة آلاف فيهم المنافقون ومن فى قلوبهم مرض ، مما لاريب معه في أن النصر للأحزاب ، ولكن الله تعالى نصر رسوله، وخذل أعداءه كما قال : (فَأَرْسَلْنَا) بأمرنا وقدرتنا (عَلَيْهِمْ) على هؤلاء الاحزاب المشركين الظالمين (رِيحًا) عاصفاً فى ليال مظلمة باردة،أثارت

التراب فى وجوههم ، وألقتهم على جنوبهم وظهورهم ، وقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وأهاجت الخيل بعضها فى بعض ، وألقت الرعب فى قلوبهم ، حتى قال طليحة بن خويلد الاسدى : أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، ثم قال : « وَجُنُوداً » وأرسلنا عليهم مع الريح جنوداً من الملائكة وغيرهم « لَمْ تَرَوْهَا » ولم تبصروها (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ)

ولما رأى الاحزاب تلك ذعروا وسقط في أيديهم وتنادوا النجاء النجاء ، لامقام لكم ، الرحيل الرحيل : وانهزموا مدبرين ،ورجعوا خاسرين ، والله لايهدى القوم الظالمين ، ولقد نصركم الله عليهم لماقمتم به من أخذ العدة وإعداد القوة،وحسن النية (وكَانَ اللهُ بِمَاتَعْمَلُونَ) من حفر الخندق ، والتأهب للقتال ، والاخلاص فى الجهاد ،مع اعتمادكم وتوكلكم والتجائكم إلى الله في فضله وكرمه ، وعدله وإحسانه ، قاصدين إعلاء كلمة الله تعالى ، وخذلان الشيطان وحزبه لعنهم الله،كان الله بكل ماعملتم وقصدتم (بَصِيراً) عليما خبيراً ، لاتخفى عليه خافية من أمركم ولا من أمر أعدائكم ، فنصركم وخذلهم ، وأعزكم وأذلهم ، وأحياكم وأماتهم(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودالاحزاب، اذكروا فضله عليكم « إِذْ جَاءُوكُمْ » زاحفين عليكم وأنتم بالمدينة (مِنْ

فوْقِكمْ) من أعلي الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن شايعهم ، من أهل نجد ، وبنو قريظة ، وبنو النضير (وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة ، ثم أحاطوا بكم من جميع الجوانب ، اذكروا أيها المؤمنون إذ جاءوكم « وَإِذْ زَاغَتِ » ومالت منكم «الْأَبْصَارُ » وانحرفت عن مستوى نظرها ولم تستقر على حال هلعاوخوفا،وحيرة ورعباً (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ)وبلغت قلوبكم (الْحَنَاجِرَ) من هول ماترون ، وشدة ما تشاهدون ، فماينتم الموت ، وإذا اشتد الفزع تأثر القلب فيضغط على الرئة فيسد الحلقوم ويضيق النفس وقد لايجد مخرجا فيموت، وقد عبر عن ذلك بقوله(بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) مبالغة فى بيان ماهم فيه من فزع ، وأنهم بلغوا أقصى الشدة كمن فى سكرة الموت ؛ تتعطل وظيفة القلب فلا يمد الجسم بالحياة فتزول الروح كما قال تعالى: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) فقوله(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) كناية عن الفزع الشديد،والاشراف على الهلاك ، والضيق الشديد ، والهول العظيم . ثم زاد فى بيان ماهم فيه من كرب فقال جل شأنه(وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا) اشتد بكم الامر وزاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر وأنتم من شدة الفزع تظنون بالله تعالى الذى وعدكم النصر ، الظنون الكثيرة ، لأن هول الموقف

أنساكم ماوعدكم ربكم ، تلك الظنون التي نشأت من شدة الكرب وتسلط الرعب ، لكثرة الأعداء ، وقلة النصراء . فهى خواطر اضطرارية أتت لهم كرها لاطوعا . وقهراً لااختياراً . فلا عقاب عليها لأن الخوف أوجبها . والفزع أوجدها . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وهى ظنون كثيرة فمنهم من ظن النصر والظفر مع هذا الكرب ثقة بالله وفضله . والرسول ووعده وقالوا وهم فى تلك الشدة (هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) ومنهم من ظن الهزيمة لكثرة الاعداء . وقالوا هذا من الله ابتلاء . ثم يكون الظفر والنصر بعد ذلك . لقوله تعالى فى غزوة بدر (وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) . ومنهم من ظن أنه الاستئصال وتعود الجاهلية سيرتها الاولى . لوقوعهم بين أيدى أعدائهم من كل جانب . وأعداؤهم كثيرون وهم قليلون . وعدة أعدائهم أضعاف عدتهم وكل هؤلاء الظانين مؤمنون موقنون مسلمون مطمئنون راضون بقضاء الله وقدره كما قال تعالى (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) وقوله (الظُّنُونَا) يرسم بالألف ويوقف عليه بالالف . وتحذف ألفه وصلا . وفي قراءة ثبتت وقفاً ووصلا . ثم زاد في بيان ما كانوا فيه من الفزع والشدة والرعب فقال جل شأنه

« هُنَا لِكَ » فى هذا الموقف المفزع . وفى تلك الحال السيئة . وفى هذا الزمن المملوء بالكرب . والجوع والضيق والعسر والبرد « ابْتُلِيَ » واختبر « الْمُؤْمِنُونَ » ابتلاهم الله تعالى واختبرهم فى هذا المكان أو فى هذا الوقت،ايزدادوا إيمانا مع إيمانهم . وثوابا على ثوابهم . وتمسكا بدينهم وربهم ورسولهم . ونجحوا فى هذا الاختبار . وثبتوا مع هذا الابتلاء . وقد فسر هذا الابتلاء بقوله « وَزُلْزِلُوا » وزلزل المؤمنون « زِلْزَالاً شَدِيداً » واضطربوا اضطرابا شديدا ، لما كانوا فيه من جوع أليم . وفزع كبير ، وعدو كثير . وخصم عنيد . وحصار شديد . فثبتوا على إيمانهم ،ولم يصرفهم كل هذا عن دينهم —ولما بين ما كان من المؤمنين شرع يبين ما كان من المنافقين فقال جل شأنه« وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ » واذكروا نعمة الله عليكم إذ يقول المنافقون . الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم . وعبر بالمضارع لان مقالتهم هذه تقع و تتجدد تبعا لنفاقهم والمراد بهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام ، فهم فى الحقيقة كافرون،لأن المسلم لا يقول إن وعد الله و رسوله غرور وباطل، ثم عطف على المنافقين من هم فى حكمهم وهم الذين فى قلوبهم ضعف فقال (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) وضعف إيمان ، لأنهم حديثو عهد بالاسلام،فانحازوا للمنافقين الذين أغروهم وفتنوهم بادخال الشبهة عليهم ، كقولهم لهم — إن الاحزاب أكثر عدة وأعز نفراً وأشد قوة وأعظم بأساً. ولابد أن يظهروا على المسلمين،فمالوا إليهم وقالوا مقالتهم(مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ)

من الظفر على أعداء الاسلام ، وإيقاع الهزيمة بهم ؛ وإعلاء الدين، ونصر المسلمين (إِلَّا) وعدا (غُرُوراً) باطلا لا يقع ولا يكون . روى عن قتادة قال: قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا فى شك وريبة من أمر الله ، وقالوا إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم فانحصرنا ههنا ؛ حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً) وقولهم الله ورسوله استهزاء وسخرية لأنهم لو أعتقدوا فى الله ورسوله ما قالوا هذا القول ، يخذلون به الناس ويصدونهم عن القتال ، وعن البقاء فى ساحة الجهاد، وقد صرحت طائفة من هؤلاء المنافقين بالحض على الانصراف من ميدان القتال كما قال الله تعالى (وَإِذْ قَالَتْ) واذكروا نعمة الله عليكم إذ قالت (طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) من المنافقين تخبر الناس ، وتطالبهم بالانصراف إلى منازلهم ودورهم ، وهم عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه، ليضعفوا شوكة المسلمين ، وليوهنوا المؤمنين ، قالت هذه الطائفه الخاسرة (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ) يأهل المدينه ، ومن أسمائها طيبة ، وكان الرسول يكره أن تسمى يثرب ، فخالفوه وقالوا يأهل يثرب اتركوا هذا الموقف ، وانجوا بأنفسكم من القتل، فالأحزاب كثيرون أشداء ؛ أقوياء أغنياء (لَا مُقَامَ لَكُمْ) وقد أحاطوا بكم ، ولا قدرة لكم عليهم ، فبقاؤكم وإقامتكم

فى هذا الميدان خطر عليكم (فَارْجِعُوا) إلى منازلكم بالمدينة ، فذلك يعصمكم من القتل ، ويحفظكم من الموت ، ويجعل لكم يدا عند الأحزاب يعرفونها إذا ظفروا ، ويجازونكم بها إذا انتصروا ، ولا بد من نصرهم ، وهم لامحالة ظافرون ، ففروا من الآن ، قبل أن تضيع الفرصة ، وتنزل النازلة ، وتقع الواقعة ، فسمع لهذا الكلام ضعاف النفوس ، مرضى القلوب ! وجعلوا يتسللون ، وبقى المؤمنون المخلصون ، ثم بين حال فريق آخر من المنافقين يريد أن يحفظ لنفسه المكانة عند النبى ﷺ وأصحابه ، وعند الأحزاب ، وذلك بالانصراف ، ولكن بعد الاستئذان منه ﷺ فقال (وَيَسْتَأْذِنُ) معطوف على قالت ، والمعنى وإذ قالت طائفة منهم ، وإذ يستأذن (فَرِيقٌ) آخر (مِنْهُمُ) من المنافقين ، وهم بنو حارثة وبنو سلمة ، استأذنوا (النَّبِىَّ) ﷺ وهم (يَقُولُونَ) مبينين السبب فى استئذانهم ، والداعى إلى رجوعهم (إِنَّ بُيُوتَنَا) التى بالمدينة (عَوْرَةٌ) ظاهرة غير محصنة يخشى عليها وهى خالية من الرجال ليس بها إلا الذرارى والنساء ، والمال والمتاع ، يقولون إنها عورة (وَمَا هِىَ) والحال أنها ليست (بِعَوْرَةٍ) لأن الخندق محيط بالمدينة وعليه عسكر المسلمين ، فلا سبيل للعدو إلى بيوتهم ، فهم كاذبون منافقون (إِن يُرِيدُونَ) ما يريدون بقولهم واستئذانهم (إِلَّا فِرَارًا) وانهزاما ، ورجوعا وهربا ، وكيدا للمسلمين ، ونكاية بالمؤمنين ، ففضحهم الله وأظهر خبيئة نفوسهم ، وخبث ضمائرهم ، ثم شرع يبين أنهم منافقون

كاذبون يريدون الكيد والوقيعة بالنبي ﷺ وأصحابه فقال جل شأنه: (وَلَوْ دُخِلَتْ) البيوت التى يقولون إنها عورة ، دخلها أهل الشرك والضلال ، ليحاربوا الله ورسوله (عَلَيْهِمْ) على هؤلاء المنافقين ، الذين يدعون باطلا أن بيوتهم عورة (مِّنْ أَقْطَارِهَا) دخلوها عليهم من جميع جوانبها ونواحيها وكانت مختلة كما يقولون (ثُمَّ سُئِلُوا) سألهم هؤلاء الداخلون من أهل الشرك الذين يريدون حرب الله ورسوله ، وكانوا في مثل هذه الحال من الشدة والكرب، لو فرض كل هذا وسألوهم (الْفِتْنَةَ) قتال الرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (لَأَتَوْهَا) ولأجابوا الداعي وماقالوا إن بيوتنا عورة (وَمَا تَلَبَّثُوا) وما مكثوا ولاصبروا على إجابة الداعي لحرب الله ورسوله وما استمروا (بِهَا)بهذه البيوت (إِلَّا) تلبثا (يَسِيراً) قدر ما يحملون سلاحهم ويخرجون للقتال ، فحقيقتهم أنهم يسارعون لقتال النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وأنهم يفرون من القتال مع النبى وأصحابه ، فهم على فرض اختلال بيوتهم وأنها عورة لكل داخل لو سألهم المشركون في مثل هذه الشدة قتال الرسول ومن معه لأسرعوا ولم يتعللوا باختلال بيوتهم لو كانت فى الحقيقة مختله يطرقها كل طارق ، ولكنهم مع النبى وأصحابه لا يقاتلون وبيوتهم غير مختلة وغير معرضة للخطر كما يدعون ، فلا يغرنكم أيها المؤمنون حالهم ، ولا يخفى عليكم نفاقهم ، فإنهم لا يريدون إلا إضعافكم ، والفل من شوكتكم ، والكيد لكم

كيف يتعللون ويدعون ثم يفرون ويهربون ويخفون أمرهم ويستأذنون وهم الذين أعطوا العهود والمواثيق على أنفسهم بين يدى الله تعالى لرسوله ﷺ ألا يفروا وقت الزحف ، وأن يكونوا فى نصرة الرسول والمؤمنين ، فهذا قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا) حين أسلموا (عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ) تعالى بإسلامهم أن يمنعوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، عاهدوا الله على ذلك (مِن قَبْلُ) من قبل غزوة الاحزاب وعاهدوه على أنهم (لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ) لا يفرون مدبرين ، مولين ظهورهم للمقاتلين ، جبناوانهزاما ، كما فعلوا فى هذه الغزوة ، فهذا نقض للبيعة ، ونكث للعهد (وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ) تعالى عهداً (مَسْـُٔولًا) يسأل عنه من ينقضه وينكثه ، يسأل الله من نقض عهده حتى يثبت عليه النقض فيعذبه يوم القيامة بالنار وبئس القرار (وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ) ومن بايع الرسول أو عاهد غيره فقد بايع الله وعاهد الله ، قال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) لأن القصد من البيعة والعهد هو حفظ الدين وإعلاء كلمة رب العالمين ، فلذلك قال (عَاهَدُوا ٱللَّهَ) لأن معاهدة الرسول معاهدة لله ، ثم وبخهم على الفرار ، والاعتذار ، بأن الموت غاية كل حى ، ونهاية كل نفس ، والبقاء

لله وحده ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره ، أو مات حتف أنفه ، فالفرار لا يطيل الأجل ، والبقاء أمام الأعداء لا ينقص من العمر ؛ وإن نفعكم الفرار فبقيتم مدة فاعلموا أنها من عمركم ، وأنها مهما تطل فهى قليلة لأنها إلى زوال ، ولا قيمة لمتاع مهدد بالزوال ، وهو إذاً متاع قليل (قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا).

فهذا قوله تعالى (قُلْ) يارسول الله لهؤلاء المنافقين المستأذنين والفارين (لَّن يَنفَعَكُمُ) ولن يفيدكم (ٱلْفِرَارُ) من ميدان القتال ، الذى يكسبكم الخزى ، ويشهد عليكم بنقض العهد (إِن فَرَرْتُم) من الميدان فلن ينفعكم الفرار ، ولن يحفظكم (مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ) فلكل أجل كتاب ، وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر (وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) وإن كان فى أجلكم طول ونفعكم الفرار ظاهراً فاذاً لا تمتعون إلا تمتيعاً قليلا فى هذه الدنيا ، بقدر ما تعمرون فيها ، وهو ولو طال قصير ، لأنه إلى زوال وكل شىء إلى زوال ، فهو قليل ولو امتد وطال : ثم وبخهم توبيخاً آخر وهو كيف أيها المستأذنون المنافقون تفرون من الجهاد ، خوفا من الموت أو القتل ، فهل فراركم يعصمكم من الله تعالى الذى لو أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً كان ما أراد ونفذ ما قضى ، لاراد لحكمه ولا عاصم من أمره ، فهو الذى يحى ويميت وهو على كل شىء قدير ، فهذا قوله تعالى (قُلْ) يارسول الله لهؤلاء المنافقين الفارين (مَن ذَا ٱلَّذِى) أى مخلوق هذا الذى (يَعْصِمُكُم) ويمنعكم (مِّنَ ٱللَّهِ) تعالى (إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا) يعاقبكم به على أعمالكم السيئة (أَوْ) من ذا الذى يرد عنكم رحمة الله وفضله إن (أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) وفضلا يجازيكم بهما على حسن أعمالكم ، ثم أكد هذا تأكيداً بقوله (وَلَا يَجِدُونَ) التفت من الخطاب إلى الغيبة ومقتضى الظاهر أن يقال (وَلَا تَجِدُونَ) وذلك لأنهم فى غيبة وغفلة فهم غير جديرين بالخطاب ، فقال (وَلَا يَجِدُونَ لَهُم) فى الدنيا ولا فى الآخرة (مِّن دُونِ اللَّهِ) تعالى من غيره عز وجل (وَلِيًّا) يفيدهم وينفعهم ويتولى شئونهم (وَلَا نَصِيراً) ينصرهم ويدافع عنهم ، والجملة فى موضع الحال فكأنه قال : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو من ذا الذى يعصمكم منه أن أراد بكم رحمة وأنتم لاتجدون من دونه ولياً ولا نصيرا . فأولى لكم أيها المنافقون أن توفوا بعهد الله ولا تنقضوا الميثاق ، وأن تكونوا مع رسول الله ﷺ ومع المؤمنين المخلصين حتى يتولاكم بنعمه ، وينصركم بقوته وحوله ، إنه هو الولى الحميد ، إنه نعم المولى ونعم النصير (وَأَوفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

مايؤخذ من هذه الغزوة العظيمة وتلك الآيات الكريمة

(١) أن النصر والظفر والعاقبة للمجاهدين الصابرين المحقين ، وأن الهزيمة والخزى والخذلان للظالمين الكافرين المبطلين

( ) أن التمسك بالحق والثبات على المبدإ الشريف واجب ولو بقي المرء وحده ، فالله ينصر الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

(٣) لا يأتي الثواب ولا يكون النجاح عفوا بلا تعب ومشقة وعمل دائب ورضا بالمكاره والخطوب ، وبلاء شديد

(٤) أن اتخاذ الحيطة وإعداد العدة ، ولزوم الحذر ، والعمل بكل تدبير وحكمة ، وكيد وخدعة ، وصبر وثبات ، من وسائل النصر على الاعداء ، والظفر بالخصوم الأشداء

(٥)أن الشدائد تظهر المؤمن من المنافق،والصادق من الكاذب ، والعدو من الصديق. (٦) أن كيد المنافقين في تباب وذهاب، لا يؤثر إلا في ضعاف النفوس ، مرضى القلوب ، ولا يزيد المؤمن إلا إيمانا وتثبيتا ، واطمئنانا ويقينا . (٧) أن المنافق ولو استتر حينا ، وغاب عن الظهور زمنا ، فلابد من وضوحه وكشفه وافتضاح أمره فيعرف المنافقون ،وقبح ما كانوا يصنعون ،وينالون المقت ويبوءون بغضب من الله والناس (٨) أن الاحتفاظ بالألفة والمودة والتعاون وترك الأثرة من وسائل النصر وقت الشدة وعند حلول المحن ، وتفاقم الفتن، فقد دعا الرسول ﷺ إلى أكله الخاص كل من في الخندق فبارك الله لهم فيه وأغنام جميعا وبقي منه كثير ، (٩) أن الله تعالي كرامة لنبيه ﷺ أرسل على المشركين الريح والجنود ، واقتصرت الريح على المشركين ولم تؤذ المؤمنين ، (١٠) أن الخير كله والسعادة أجمعها في طاعة الله ورسوله ، فهذا حذيفة بن اليمان ،كان لا يستطيع الحراك من الجوع والبرد ، فلما

ندبه الرسول طليعة وعينا على المشركين ولبى الدعوة أذهب الله عنه البرد والجوع فى الحال، وكأنما نشط من عقال (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

فاقتدوا أيها المسلمون بهذه الآداب الاسلاميه، وتخلقوا بتلك الأخلاق المحمدية، وتمسكوا بهذه الخلال النبوية، واتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون م؟

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً * لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً * وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰناً وَتَسْلِيماً

لما جاء الأحزاب ، وحاصروا المدينة ، واشتد البلاء والكرب ، وزلزل المؤمنون وثبتوا على إيمانهم ، وريع المنافقون واضطربوا فى أمرهم ، وخاف الذين فى قلوبهم مرض وارتدوا عن دينهم ، وقالوا كما قال المنافقون : ماوعدنا الله ورسوله إلاغرورا ، وحانت الفرصة للمثبطين ، وبانت الثلمة للمعوقين ، وتمكن هؤلاء وهؤلاء من بث سمومهم ، وإلقاء فتنهم ، وقالوا : يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، واستأذن فريق منهم النبي ﷺ فى الانصراف ، متعللين بالخوف على بيوتهم وذريتهم وأموالهم ، يحفظون لأنفسهم بهذا التعلل خط الرجعة فى المستقبل لو انتصر المؤمنون . لما وقع ذلك كله منهم أنزل الله تعالى فيهم قرآنا يكشف سترهم ويظهر أمرهم ، وأنهم جبناء يريدون الفرار ، ويقصدون بالرسول ومن معه الاضرار ، ويقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، ولو رأوا الفرصة لقاتلوا مع المشركين ، وحاربوا المؤمنين ، ونقضوا عهدهم ، وخفروا ذمتهم ، وأخلفوا الله ماوعدوه ، وكان عهد الله مسئولا ، وقد شرع بهذه الآيات يزيد فى كشف نواياهم ، وإظهار خباياهم ، وإبانة أحوالهم وأحوال المؤمنين فى تلك النازلة ، وفى هذه الواقعة ، فقال جل شأنه : (قَدْ يَعْلَمُ) أتى بحرف التحقيق لأنه يخاطب قوما فى اضطراب وفتنة ويحذر المعوقين وينذر المنافقين ، وعبر بالمضارع فى يعلم لتجدد مايقع منهم ، واستمرارهم على إلقاء الفتن ، وأظهر الاسم الأعظم فقال : (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ) تعالى والمقام للاضمار لتقدم الاسم الكريم

فى قوله : (وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) زيادة فى التحذير، والانذار والتخويف ، يخبر الله جل شأنه أنه يعلم (ٱلْمُعَوِّقِينَ) الذين يمنعون الناس من نصرة الرسول ﷺ ، أحاط علمه بالمعوقين (مِنكُمْ) وهم المنافقون واليهود ، وقال منكم لأنهم فى موطن واحد وبلد واحد، وفيهم القريب والصديق، وحالهم كانت مستورة على المؤمنين فكانوا يخالطونهم ويعاملونهم ، فلذلك قال منكم ، روى أن الآية نزلت فى عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة ؛ كانوا إذا جاءهم المنافق مثلهم قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم فى العسكر ، ائتونا فانا ننتظركم ، وعن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ) الآية ، قال هـذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبي ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ ، فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ؛ قال : هلم إلى لقد بلغ بك وبصاحبك ، والذى يحلف به لا يستقى لها محمد أبداً ، قال : كذبت والذى يحلف به (وكان أخاه من أبيه وأمه) والله لأخبرن النبي ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية فيه وفى أمثاله (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) فقوله :

(وَالْقَائِلِينَ) معطوف على المعوقين (لِإِخْوَانِهِمْ) لأصحابهم وعشائرهم وخلطائهم والمنافقين مثلهم، ومن فى قلوبهم مرض، من قرابتهم وغيرهم (هَلُمَّ إِلَيْنَا) تعالوا إلى ما نحن فيه من الاقامة فى الظلال والثمار، وهلم اسم فعل أو فعل أمر بمعنى أقبل فهو لازم، وقد يتعدى ويكون بمعنى أحضر كما فى قوله: (هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ) وصف الله المنافقين بالمعوقين، والقائلين، ثم وصفهم بقوله: (وَلَا يَأْتُونَ) فكأنه قال: قد يعلم الله الذين يعوقون، والذين يقولون، والذين لا يأتون ولا يشهدون (الْبَأْسَ) القتال والحرب (إِلَّا) إتيانا (قَلِيلاً) أو إلا زمانا قليلا، لمرض قلوبهم وضعف نفوسهم، وخور عزيمتهم، ولدفع اللوم عنهم، ولمراءاة المسلمين، فاذا قاتلوا مع المؤمنين كان قتالهم لا خير فيه ولا غناء منه، لأنهم يقاتلون رياء و نفاقا، لا عن قلب و نية، فلا يلبثون إلا قليلا حتى يفروا ويهربوا، ثم وصفهم بوصف رابع وهو شحهم بالخير على المؤمنين فقال جل شأنه: (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) بالخير، أشحة جمع شحيح والقياس أشحاء، كجليل وأجلاء، وخليل وأخلاء، وهو منصوب على الذم، يبخلون عليكم أيها المؤمنون بالنفقة والنصرة والاعانة عند بدء القتال، وفى أول الموقعة فلا يقدمون مالا ولا نفسا ولا نفعا، ولا يظهرون إلا خبثا ومكرا (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ) ووقعت الواقعة، وقامت الحرب على ساقها (رَأَيْتَهُمْ) أيها النبي الكريم، الرءوف الرحيم، ويصح أن يكون

الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب (يَنظُرُونَ إِلَيْكَ) مضطربين مذعورين ، حيارى خائفين ، فى حال (تَدُورُ) فيها (أَعْيُنُهُمْ) والمراد تدور الأحداق فى الأعين فهو مجاز مرسل علاقته المحلية أطلق المحل وأراد الحال ، وهذا الدوران من الهلع والخوف والجبن والخور ، تدور دورانًا (كَالَّذِى) كدوران أحداق الذى (يُغْشَىٰ عَلَيْهِ) فيغيب ويكون فى سكرة (مِنَ) وقع (ٱلْمَوْتِ) ونزوله ، وهذا الوصف يؤكد ماسبق من أنهم إذا أتوا البأس كانوا فى جبن وذعر فلا يلبثون إلا قليلا ثم يفرون (فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ) من العدو ، وجاء النصر وجمعت الغنائم ، وتم الأمن (سَلَقُوكُمْ) وطعنوا فيكم ورموكم (بِأَلْسِنَةٍ) سليقة منطيقة (حِدَادٍ) حديدة شديدة ، تطعن بغير حق ، وتفترى ظلماً وبغياً، وادعوا لأنفسهم المنزلة السامية ، والمكانة العالية ، وأنهم لولاهم لما كان نصر ، ولا تم ظفر ، ولا عمل عمل ، وأنهم أولو شجاعة ونجدة ، وبأس وقوة ، وإنهم لكاذبون ، والله يعلم المفسد من المصلح ، والخبيث من الطيب ، والمنافق من المؤمن ، فهم عند البأس أجبن قوم وأخذلهم للحق ، لايبذلون نفساً ولا مالا ، وعند الغنائم أحرص الناس وأشحهم عليها ، يطلبون أكبر قسم وأنفسه ، كما قال جل شأنه : (أَشِحَّةً) منصوب على الذم كسابقه أذم أشحة (عَلَى ٱلْخَيْرِ) على أخذ الخير وهو الغنيمة ، فهم أشحة عليكم بالخير إذا اشتد البأس ،

وهم أشحة على أخذ الخير إذا زال الخوف ، وتلك أقبح الشيم ، وأحط الأخلاق ، وألأم الصفات التي لا تكون فى مؤمن ولا ذى مروءة .!

ولذلك قال : (أُولَٰئِكَ) المبعدون المطرودون من رحمة الله ، لفساد قلوبهم وخبث نيتهم (لَمْ يُؤْمِنُوا) حقيقة وإن آمنوا ظاهراً،لأن هذه الأخلاق لا تصدر عن قلب مؤمن (فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ) تعالى ولم يقبل (أَعْمَالَهُمْ)التي عملوها رياء وسمعة. وجعلهاباطلة غير مأجورة ،لأن قبول الأعمال شرطه الايمان والاخلاص ، وهم لم يؤمنوا ولم يخلصوا فلم يقبل أعمالهم ، وكشف أمرهم للمؤمنين ، فلم تفدهم تلك الاعمال عندالله ولا عند الناس ، وهكذا كل عمل قصد به غير وجه الله العلي الخبير لا ينتفع به صاحبه فى دينه ولا فى دنياه (وَكَانَ ذَٰلِكَ) الذى تقدم كله من نصر المؤمنين على قلتهم وخذلان المشركين على كثرتهم ، ومن إثابة المخلصين و إحباط أعمال المنافقين ، كان ذلك كله (عَلَى ٱللَّهِ) القدير (يَسِيراً) هيناً ، وكل شيء مهما يكن فهو عند الله وأمام قدرته سهل يسير هين ، لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وفي هذا تحذير وإنذار للمنافقين بأن الله من ورائهم محيط ، وأنه قوى عزيز ، إذا أنزل بهم سطوته كانوا هباء منثورا وعذبهم الله في الآخرة عذابا أليما ، ثم بين نوعا آخر يدل على جبنهم ، وخبث طويتهم ، وسوء نيتهم ،وهو أنهم (يَحْسَبُونَ) ويظنون جبناً وخوفاً (ٱلْأَحْزَابَ) لكثرة عددهم

وتمام عدتهم ، وشدة بأسهم ، (لَمْ يَذْهَبُوا) عن المدينة ،ولم يرجعوا إلى بلادهم ولم يفكوا الحصار ويغودوا خائبين خاسرين : يظنون ذلك في حين أن الله تعالى هزم الأحزاب وأرسل عليهم ريحاً وجنوداً لا قبل لهم بها ، فأقلعوا عن المدينة ، وتركوها مذمومين مدحورين ، ولظنهم هذا استمروا يخذلون الناس ويعوقون عن القتال ، ويقولون مقالتهم السيئة في النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، ويتركون ميدان القتال فارين إلى المدينة منهزمين ، زاعمين الأحزاب لا بد لكثرتهم وقوتهم أن يستأصلوا المؤمنين تقتيلا وتنكيلا ، يحصل منهم ذلك كله ، في الوقت الذي هزم الله بقدرته فيه الأحزاب ،ونصر المؤمنين، ثم أكد مرة أخرى جبنهم ومرض قلوبهم بقوله جل شأنه (وَإِن يَأْتِ)وإن يرجع (ٱلْأَحْزَابُ) لحصار المدينة وقتال المؤمنين (يَوَدُّوا) يود هؤلاء المنافقون المجرمون (لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ) خارجون من المدينة إلى البادية فراراً من مواجهة الأعداء ، وجبناً عن الحرب ، لينبثوا (فِي ٱلْأَعْرَابِ)غلاظ الأكباد قساة القلوب ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر (يَسْأَلُونَ)وهم في خفية من يقدم من المدينة ومن حولها (عَنْ أَنبَآئِكُمْ) وأخباركم مع هؤلاء الأحزاب ، ليكونوا مع المنتصرين ، وينحازوا إلى الظافرين في النهاية، وعند إلقاء السلاح (وَلَوْ كَانُوا)ولو كان هؤلاء الجبناء المنافقون (فِيكُم) ولم ينصرفوا إلى المدينة ، وكان قتال وحرب (مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا)

قتالا (قَلِيلاً)دفعاً للوم ، ورياء للمسلمين، فلا تحزنوا لفرارهم ،وثقوا أنه خير لـكم ، وبعد هذا البيان العظيم لحال هؤلاء المجرمين ، ولما كان من شدة الموقف ، وحرج الأمر ، أمرهم بالاقتداء بخير الأصفياء ، سيدنا محمد ﷺ في هذه الشدة من أولها إلى نهايتها ، فقال جل شأنه (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ)أيها المؤمنون الواثقون بدينـكم وربكم(فِي رَسُولِ اللَّهِ) ﷺ (أُسْوَةٌ) وقدوة (حَسَنَةٌ) جليلة العاقبة طيبة الثمرة ،في صبره وشجاعته ، وفى إقدامه وثباته ، وفي احتماله وجهاده ، وفى توكله واعتماده ، وفى كل أموره التي شاهدتموها ورأيتموها فى حادث الخندق وفى كل ما كان منه منذولادته للآن ،إلافيما اختصه الله به من الخصائص كالتزوج بأكثر من أربع ،وقيام الليل ،وصيام النهار، والاسراءوغير ذلك من الخصائص . وأسوةاسم كان ولـكم خبرهاوفي رسول الله متعلق بأسوة ، والتقدير ، لقد كانت أسوة فى رسول الله نافعة لـكم (لِمَن كَانَ) بدل من لـكم بدل كل من كل وفيه إبدال الظاهر من الضمير كما فى قوله تعالى (رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا) فقوله لأولنا بدل من لنا ،ويصح أن يكون قوله لمن كان ، متعلقا بأسوة ، أو بحسنة ، والتقدير أسوة لمن كان ، أو حسنة لمن كان (يَرْجُو ٱللَّهَ) تعالى ويقصد ثوابه ورضاه (وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ) ويخشى اليوم الآخر يوم القيامة يوم توفى كل نفس ما كسبت وترى ماقدمت وعملت ، وكان صلة لمن وقوله (وَذَكَرَ ٱللَّهَ) تعالى

(كَثِيراً) ذكراً كثيراً معطوف على الصلة ، والمعنى لكم فى رسول الله أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ولمن ذكر الله كثيراً ويصح عطفه على قوله يرجو ، والمعنى لمن كان راجيا ربه ، خائفا اليوم الآخر ذاكراً الله كثيرا ، والذكر الكثير يكون بالصلاة وتلاوة القرآن وذكر أسماء الله تعالى ، والذكر الكثير مع استحضار هيبة المذكور جل شأنه ، به تنجلى القلوب ، وتزكو العقول ، وتستضيء الأفئدة ، وتنشرح الصدور وبه يكون الوصول إلى الكشف عن ملكوت الله تعالى بقدر مايهب الله الذاكر من صفاء . ودون ذلك جهاد كبير وصبر عظيم وبلاء شديد ، يتلقاه العبد بكل رضا وقبول، كما وقع للرسول ولأصحاب الرسول (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وأما الذكر بلا استحضار ولا خشوع ، ولا أدب ولا خضوع فلا يثمر ولا ينتج ولا يثاب عليه صاحبه ، بل يعاقب على خروجه عن أدب الله ورسوله .

ولما بين حال المنافقين عند رؤيتهم الأحزاب ومشاهدتهم تلك الصعاب ناسب أن يبين حال المؤمنين ، ليميز الله الخبيث من الطيب، فقال جل شأنه (وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ) المخلصون الصادقون هؤلاء (ٱلْأَحْزَابَ) المشركين أعداء الله ورسوله (قَالُوا) بقلوبهم وألسنتهم صادقين صابرين (هَٰذَا) الذى نراه من كثرة الأعداء وقلة النصراء ، وشدة البلاء (مَا وَعَدَنَا

ٱللّٰه) تعالى أن يكون قبل الظفر ، وأن يسبق النصر وحسن العاقبة كما قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) وهذه الآية نزلت قبل غزوة الخندق بحول ، قال المؤمنون حين رؤية الأحزاب وهول الموقف ، هذا ما وعدنا الله وَرَسُولُهُ)وعدنا الله فى كتابه و بلغنا الرسول ﷺ هذا الوعد(وَصَدَقَ ٱللَّهُ) تعالى فى وعده (وَرَسُولُهُ) ﷺ في تبليغه وهو أن العسر والشدة بعدهما النصر والظفر « وَمَا زَادَهُمْ » مارأوه « إِلَّا إِيمَٰنًا » على إيمانهم ويقينا على يقينهم « وَتَسْلِيمًا » مع تسليمهم بأن وعد الله حق وأن الله على كل شيء قدير ، فلم يكن منهم شك فى الله ولا ريب فى الدين مع مانزل بهم ، ووقع عليهم ، (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ) (رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا).

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا
عَزِيزاً * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً *
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَـُٔوهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً

لما بين الله سبحانه وتعالى ما كان من المؤمنين فى غزوة الأحزاب وما كان من المنافقين ، وأن المنافقين نقضوا عهدهم ولم يثبتوا وولوا الأدبار ، وأن المؤمنين ثبتوا على الشدة والبلاء ، ولم يزدهم ما رأوه من الفتن والكرب إلا إيماناً وتسليما ، أكد ذلك مرة أخرى ليرتب عليه ما أعده للمؤمنين وما أعده للمنافقين ، فقال جل شأنه (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) إلخ . قسم الله تعالى شأنه المؤمنين قسمين : فريق الصادقين الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم ، وفريق المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، وذكر الفريق الأول وقسمه إلى قسمين منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر أن يقضيه ، وبين جزاءهم ، ولم يذكر فريق المنافقين اكتفاء بما تقدم بيانه فيهم ، وذكر ما أعده لهم بقوله (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) ترغيباً للمؤمنين وتحذيراً

المنافقين ، قال جل شأنه « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الذين انتموا للاسلام ، ودخلوا فى دين النبى عليه الصلاة والسلام الذين شهدوا هـذه الغزوة والذين لم يشهدوها « رِجَالٌ » بررة كرام ،على خلق كامل، وفضل عظيم وشجاعة وإقدام ، فالتنوين فى قوله « رِجَالٌ » للتعظيم والتفخيم « صَدَقُوا » فى نيتهم وأنفذوا « مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ » تعالى « عَلَيْهِ » من الثبات مع النبى ﷺ ، والصبر على قتال الأعداء ، وبيع النفس والمال ، والأهل والولد ، والهجرة من الوطن ، ابتغاء مرضاة الله . ورغبة فى إعلاء كلمة الله .

وسبب نزول هذه الآية ما روى عن ثابت . قال قال أنس : عمى أنس بن النضر رضى الله عنه . سميتُ به . لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه . وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد . مع رسول ﷺ ليرين الله عزوجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول ﷺ يوم أُحد فاستقبل سعدَ بن معاذ رضى الله عنه . فقال له أنس رضى الله عنه ياأباعمرو إلى أين ؟ واهاً لريح الجنة ! إنى أجده دون أحد . قال فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه ، قال فوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته — عمى — الربيع بنة النضر ، فما عرفت أخى إلا ببنانه . قال فنزلت هذه الآية :(مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه رضى الله

عنهم ، فالمراد بقوله رجال أنس بن النضر ومن كان مثله ممن نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع النبي ﷺ ثبتوا معه ، وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير وغيرهم ، ومعمول صدقوا هو الله ، والمعنى صدقوا الله تعالى فيما عاهدوه عليه من نصرة النبي ﷺ ، والثبات معه حتى الموت ، وترك الفرار عند الزحف ، ثم فصل حال هؤلاء الصادقين الموفين بعهدهم ، فقال جل شأنه (فَمِنْهُم) فمن هؤلاء الرجال المخلصين (مَّن قَضَىٰ) وأنفذ (نَحْبَهُ) وأتم نذره ، وصدق وعده وعهده ، فالنحب هو النذر والوعد ، والعهد ، وقيل : قضى نحبه أى مات مؤمناً صادقا موفياً بعهده لم يخلف وعده ولم يغير نيته ، وقيل قضى نحبه مات شهيداً ، ومما يدل على أن النحب بمعنى العهد والنذر ما روى عن موسى ابن طلحة عن أبيه طلحة رضى الله عنه قال : لما أن رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ) الآية كلها ، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقال يا رسول الله مَن هؤلاء ؟ فأقبلت وعلىَّ ثوبان أخضران حضرميان ، فقال أيها السائل هذا منهم : يريد طلحة ، وعن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ، قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول طلحة ممن قضى نحبه ،

وقال مجاهد فى قوله تعالى فنهم من قضى نحبه ، يعني عهده ، وقال الحسن رضى الله عنه فنهم من قضى نحبه يعنى موته على الصدق والوفاء ، وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مر على مصعب بن عمير رضى الله عنه مقتولا على طريقه فقرأ (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ) الآية ، ثم بين الفريق الثانى من الرجال الصادقين فقال جل شأنه (وَمِنْهُم) وبعضهم (مَّن يَنتَظِرُ) اليوم الذى ينال فيه الشهادة ، ويقضي نحبه ، وينفذ وعده وعهده ، بالموت فى سبيل الله والثبات إلى النهاية مع رسول ﷺ ، فالفريق الأول صدقوا الله بعزم ونية ووجدوا الفرصة ؛ فقضوا نحبهم ونالوا غرضهم ؛ ففازوا بالشهادة أو بالظفر على الأعداء ، والثبات مع خير الأنبياء ، والفريق الثانى صدقوا الله بعزم ونية ، ولكنهم لم يجدوا الفرصة ، فهم ينتظرونها لقضاء نحبهم والوفاء بعهدهم ، وهؤلاء لم يموتوا حتى نالوا بغيتهم وفازوا برغبتهم ، وأدوا ما ألزموا به أنفسهم ؛ فهم جميعاً يقولون ويفعلون ، ويعدون ويوفون ، ويصدقون ولا يخلفون ، وأولئك هم المفلحون ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ، قابلوا ربهم وهم موقنون ، وله عاملون ، ولما عنده يفعلون ، فما غيروا تغييراً ، (وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) بل ثبتوا على دينهم ، وماتوا على إسلامهم ، لم يغيروا منه شيئاً ، ولم يبدلوا فيه أمراً ، واستمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كما فعل المنافقون ، الذين قالوا إن بيوتنا عورة وما

هى بعورة ، إن يريدون إلا فراراً ، وقوله : (وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) وصف للمؤمنين جميعاً الذين قضوا نحبهم والذين ينتظرون قضاءه ؛ وهذا تعريض بالمنافقين الذين ولوا الأدبار ، وكانوا عاهدوا الله أنهم لا يولون الأدبار ، وكانوا على النبي ﷺ ، وقد بايعوه على أن يكونوا معه ، فبدلوا وغيروا ، والمؤمنون ثبتوا وصدقوا ، ولم يبدلوا ولم يغيروا ، وعاقبة ذلك وغايته وثمرته بينها بقوله عز وجل . (لِيَجْزِىَ اللَّهُ) تعالى على أعمال العباد (الصَّادِقِينَ) فيها ، والعاملين لها ابتغاء مرضاة الله (بِصِدْقِهِمْ) بسبب صدقهم وثباتهم على دينهم في تلك الشدة المهلكة ، وفى هذه الفتنة المظلمة ، وهذا الجزاء في الدنيا بالنصر والظفر بالأعداء ، والفتح والفوز العظيم ، وفى الآخرة بادخالهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها نعيم مقيم ، هذه عاقبة الصادقين ؛ وأما عاقبة المنافقين فقد بينها بقوله : (وَيُعَذِّبَ) وليعذب (الْمُنَافِقِينَ) الذين نافقوا فى أعمالهم ، ولم يصدقوا فى نياتهم ، وهذا التعذيب بسبب نفاقهم ، وصدهم عن سبيل الله وعن الجهاد ونصر الرسول وأصحابه ، فاستحقوا بذلك عقاب الله وعذابه فى الدنيا بالخذلان ، وفى الآخرة بالنار وبئس القرار ، ولكنهم فى الدنيا لا يزالون تحت المشيئة (إِن شَاءَ) الله تعذيبهم استمروا على النفاق فاستحقوا العذاب (أَوْ يَتُوبَ) الله (عَلَيْهِمْ) إن شاء إنابتهم باقلاعهم عن النفاق ، ورجوعهم إلى نور الايمان ، والله فتح لهم باب التوبة ترغيباً فيها ، وخوفهم بالعذاب ليبعدوا عن النفاق ، ثم أطمعهم

فى غفرانه ورحمته لما فرط منهم وتابوا منه فقال : (إِنَّ ٱللَّهَ) تعالى : (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (غَفُوراً) كثير الغفران يغفر ذنوب التائبين على كثرتها ، ويعفو عن سيئات المذنبين مع وفرتها ، متى كانت توبتهم نصوحا ، وإنابتهم صادقة (رَّحِيمًا) يرحم المذنبين بقبول توبتهم والعفو عن خطيئتهم التى لم يصروا عليها وأقلعوا عنها ، وقد جزى الله المؤمنين والمنافقين فى الدنيا، فرد المشركين عن المدينة وكفى المؤمنين شر القتال ، وأخزى المنافقين بالقهر والغلبة والخسران بأيدى المؤمنين ، وسيوف المؤمنين . وهذا ما شرع يبينه فقال جل شأنه (وَرَدَّ ٱللَّهُ) القادر المقتدر ، قد رد وصد (ٱلَّذِينَ كَفَرُوا) وهم الأحزاب من قريش ومن ناصرهم وجاء معهم لغزو المدينة، ردهم عنها وعن قتال النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (بِغَيْظِهِمْ) وحنقهم وحقدهم (لَمْ يَنَالُوا) من زحفهم على المدينة ، ومجيئهم إليها (خَيْراً) مطلقاً لا قليلا ولا كثيراً ، بل عادوا مخذولين ورجعوا خائبين وارتدوا خاسرين ، لم يدركوا من زحفهم أى خير ، ولا أى نفع ، بل نزلت بهم النوازل ، وحلت بهم الكوارث من الريح والجنود التى أرسلها الله عليهم (وَكَفَى ٱللَّهُ) تعالى بقدرته وفضله وعدله وإحسانه (ٱلْمُؤْمِنِينَ) الصادقين الثابتين مع النبي ﷺ (ٱلْقِتَالَ) وشره والحرب وضررها ، فلم يشتبكوا مع الأحزاب إلا قليلا لا يذكر حتى أن الله تعالى لم يسمه قتالا ، كقتال بدر أو أُحد مثلا ، بل كانت مبارزة خرج لها أسد الله تعالى على كرم الله وجهه فصرع عدوه وعدو ربه وعدو

نبيه ، وأظهره الله عليه (وَكَانَ ٱللَّهُ) تعالى (قَوِيًّا) يفعل ما يريد (عَزِيزًا) لا نظير له لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، ولما انتهى من أمر الاحزاب وخبرهم شرع يذكر خبر الذين ظاهروهم من اليهود ونقضوا عهدهم وكانوا حربا على الرسول وأصحابه ، وهم بنو قريظة ، فقال جل شأنه (وَأَنْزَلَ) الله بحوله وقوته (ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم) ظاهروا الأحزاب وناصروهم بانتقاضهم على النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ) فيه توبيخ وتقريع لهم على انتصارهم للمشركين وهم أهل كتاب ، فكان الأولى بهم أن يناصروا من جاء مصدقا لما معهم ، وأنزل الله عليه كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . هؤلاء هم بنو قريظة أنزلهم الله لغدرهم وخيانتهم (مِن صَيَاصِيهِمْ) من حصونهم التي يعتزون بها ومعاقلهم التي يعتمدون عليها (وَقَذَفَ) وألقى (فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ) والفزع والخوف من النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، فانهم بعدما رجع الأحزاب خائبين وتولوا عن المدينة مدبرين ، اشتد بهم الذعر والخوف ، لما أقدموا عليه من الخيانة العظمى ، والغدر الشديد ، فأنساهم الرعب أنفسهم حتى نزلوا على حكم الرسول ، فأمر بقتل فريق ، وأسر فريق كما قال تعالى (فَرِيقًا) ممن كانوا رءوس النفاق ، وأصل الشقاق ، وسبب الغدر والخيانة (تَقْتُلُونَ) عقابا لهم وقصاصا منهم (وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) لأنهم رضوا بما فعل الخائنون

وسكتوا عما عمل المنافقون ، وكلهم أعداء كافرون ، وذلك أن الرسول ﷺ بعد انهزام الأحزاب ورجوعهم عاد إلى المدينة فأمره الله تعالى أن يغزو بني قريظة لنقضهم العهد فغزاهم وأظفره الله بهم، فقتل فريقا وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكان هذا النصر سببا في خوف الأعداء من الرسول وأصحابه ، ففتح الله عليهم أرضا أخرى لم يطئوها ولم ينزلوا فيها ، وهي أرض خيبر أو مكة. قال تعالى (وَأَوْرَثَكُمْ) بصبركم وصدقكم (أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ) لخيانتهم وغدرهم وكفرهم والمراد بالأرض المزارع ، وبالديار الحصون ثم قال (وَأَمْوَالَهُمْ) من نقود وماشية وأثاث (وَأَرْضًا) أخرى (لَّمْ تَطَئُوهَا) قالوا هي خيبر فتحت بعد بني قريظة ، وقيل إن هذا وعد للمسلمين بكل أرض يفتحونها إلى يوم القيامة من فارس والروم ومصر والشام وغيرها ، والمراد أورثكم في علمه فيشمل ما كان وما يكون (وَكَانَ اللَّهُ) تعالى (عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ) خلقه (قَدِيرًا) * يتصرف فيه كيف شاء على وفق علمه ، ومقتضى إرادته ، فهو يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير . وهذا بيان وجيز عن غزوة بني قريظة : بنو قريظة قوم من اليهود كانوا يقطنون المدينة وكانوا حلفاء الأوس ، وكان سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وكانت هذه الغزوة سنة خمس للهجرة ، وذلك أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق إلى المدينة دخلها وقت الظهيرة فجاءه

جبريل عليه السلام وهو فى بيت عائشة رضى الله عنها وقال له: إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فأمر بلالا فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، ثم سار إليهم وقد لبس ﷺ السلاح ،والناس حوله قد لبسوا سلاحهم ، وركبوا خيلهم ، وهم ثلاثة آلاف ومعهم من الخيل ستة وثلاثون فرساً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه ، وقدم على بن أبي طالب كرم الله وجهه باللواء إلى بني قريظة ، وكان اللواء على حاله لم يحل من مرجعه من الخندق وسار على كرم الله وجهه حتى دنا من حصونهم، وغرز اللواء بمقربة منها ، وأقبل الرسول حتى دنا من تلك الحصون ونادى بني قريظة قائلا : «هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ » فاستعطفوه واعتذروا عما كان منهم فحاصرهم بجنود الاسلام خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وكان حيي بن أخطب من زعمائهم ، دخل حصونهم وفاء لكعب بن أسد، لأنه عاهده على أن يكون معه لو نقض عهد النبي ﷺ يوم الأحزاب، فدخل الحصون وقتل مع من قتل فى غزوة بنى قريظة . فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم ، قال كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا أيها شئتم ، قالوا وما هى ! قال نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، وما منعنا من الدخول إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من

بني إسرائيل ، فان اتبعتموه تكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخر «التوراة والقرآن» وكانوا يجدون صفته ﷺ قبل أن يبعث ، وأن دار هجرته المدينة ، فلما قال ذلك كعب قالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، قال كعب فاذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ولم نترك وراءنا ثقلا ، حتي يحكم الله بيننا و بين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ، قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ، قال فان أبيتم على هذه فان الليلة ليلة السبت ، وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، فقالوا انفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا ، ولم يقبلوا منه خصلة من تلك الخصال ، ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره فى أمرنا وكان مناصحاً لهم ، لأن ماله وولده فيهم ، فأرسله ﷺ إليهم فقابلوه بالبكاء من شدة الحصار ، وقالوا يا أبا لبابة : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه (أنه الذبح فلا تفعلوه) قال أبو لبابة رضي الله عنه : فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله فندمت واسترجعت ونزلت وإن عينى لتسيل من الدموع ، ثم ذهب رضي الله عنه إلى المسجد ، وربط نفسه بسلسلة ثقيلة إلى عمود من عمده ، وقال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتي أموت أو يتوب الله عليَّ مما صنعت ، وعاهد الله

ألا يطأ بني قريظة أبداً ، ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله أبداً ، فعرف رسول الله ﷺ ذلك ، وقال : لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه فأنزل الله تعالى (وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَٰلِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فثار الناس ليطلقوه. وبشروه بالتوبة، فأبى إلا أن يكون الرسول هو الذى يطلقه ، فأطلقه ﷺ حين مر عليه لصلاة الصبح . وأما بنو قريظة فلم يجدوا بداً من النزول على حكم الرسول ، فنزلوا على حكمه ، فأوثق المقاتلة وجعلهم ناحية ، وأخرج النساء والذرارى وجعلهم ناحية ، وتواثب الأوس يرجون الرسول أن يعفو عن بنى قريظة لأنهم حلفاؤهم ، فقال لهم : أماترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى ، قال فذلك إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان سعد قد أصيب بسهم فى غزوة الخندق ووضع فى خيمة امرأة يقال لها رفيدة وكانت بالمسجد معدة لمداواة الجرحى من الصحابة ، فأتاه قومه فحملوه على حمار وأقبلوا به وهم يقولون له : أحسن فى مواليك ، وهو ساكت ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فقال بعضهم واقوماه فلما قدم ورآه الرسول قال لمن حوله : قوموا إلى خيركم ، فقاموا إليه وسلموا عليه ، وانتهى إلى رسول الله ﷺ فقال له : احكم فيهم يا سعد ، فقال : الله ورسوله أحق بالحكم ، قال : قد أمرك الله أن تحكم فيهم ، فقال سعد

لبني قريظة : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم ، قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبى الذرادى والنساء ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله ، ثم أمر بالرجال منهم ، فأخذوا متفرقين وضربت أعناقهم ودفنوا فى حفر أعدت لهم بظاهر المدينة ، ثم سبى النساء والذرارى وقسمت الغنائم فى المجاهدين ، وأرسل السبى إلى نجد والشام فبيعوا واشترى بهم خيل وسلاح ، وأمر الرسول ﷺ ألا يفرق بين الولد وأمه ، وأن من وقع فى يده سبى يرفق به ويسعى فى عتقه ، وإذا وجد صغير لا يباع إلا لمسلم ، ففعلوا ذلك ، ولما انتهى شأن بنى قريظة قال رسول الله ﷺ : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولـكنكم تغزونهم ، وأما سعد بن معاذ فقد انفجر الجرح الذى بيده من السهم الذى أصابه فى غزوة الخندق فاحتضنه ﷺ فسال عليه الدم ، وحملوه إلى منزله فمات منه شهيداً ، وبكي لموته المهاجرون والأنصار ، وحزن عليه النبي ﷺ حزناً شديداً ، وكانت ريحانة بنت عمرو متزوجة فى بنى قريظة فسبيت واصطفاها رسول الله ﷺ وأسلمت ، ثم أعتقها وتزوجها ، ولم تزل عنده حتي ماتت مرجعه من حجة الوداع ، سنة عشر رضى الله عنها ، وكانت هذه الغزوة وغزوة الخندق فى سنة واحدة وبهما أعز الله الاسلام وأوقع الرعب فى قلوب أعدائه فلم تحدثهم أنفسهم بالجرأة على قتال المسلمين .

وكان النصر حليف المسلمين فى كل الغزوات بعدها (وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

فيا أيها المسلمون هذا تاريخكم المجيد ، وعمل سلفكم الحميد ، لم ينالوا عزاً من غير جهاد ، ولم يدركوا خيراً بغير نضال ، ولقد صدقوا الله فيما عاهدوا ، وأخلصوا له فيما قالوا وفعلوا ، فكان لهم نصيراً ، ومعهم معيناً ، ومكنهم من أعدائهم ، وأظفرهم بهم ، فسيروا على نهجهم ، وامشوا فى طريقهم ، يؤتكم خيراً عظيما ونعيما مقيما (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الله مع الصابرين وهو ولى المتقين) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الرسول والمؤمنين ، وحال المنافقين والمخادعين ، والموفين بعهدهم والخائنين ، أمر رسوله ﷺ بعد ذلك بالدعوة إلى الدار الآخرة ، فبدأ بأزواجه الطاهرات ، لأنهن أقرب إليه ، وهن القدوة الحسنة للنساء المؤمنات ، وإذا صلح حال النساء صلح حال الأمة ، فقال جل شأنه (يَأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) إلخ ، وسبب نزول هذه الآية وتسمى آية التخيير أن الله تعالى لما نصر نبيه ﷺ ورد عنه الأحزاب ، وفتح عليه النضير وقريظة ظن أزواجه عليه الصلاة والسلام أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن يارسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والاماء والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره الله تعالى بأن يتلو عليهن ما نزل فى أمرهن ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وعن جابر رضى الله عنه ، قال أقبل أبو بكر رضى الله عنه ، يستأذن على

رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه ، فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضي الله عنه ، لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتنى النفقة آنفاً ، فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذاه ، وقال هن حولى يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة : كلاهما يقولان تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ ، فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فقال إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها (يَأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ) الآية قالت عائشة رضى الله عنها أفيك استأمر أبوى ، بل اختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة ، من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ إن الله لم يبعثني معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . وروى أنه لما نزلت آية التخيير كان عنده ﷺ تسع نسوة : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية من قريش ،

وصفية بنت حيي النضيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، وبدأ بعائشة فلما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رئي الفرح في وجه رسول الله ﷺ ، فتتابعن كلهن على ذلك ، فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة شكرهن الله على ذلك ، إذ قال سبحانه (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) فقصره الله تعالى عليهن وهن التسع اللائي اخترن الله عز وجل ورسوله ﷺ قال تعالى (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ) خطاب تشريف وتقدير وتعظيم (قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) الطاهرات المحسنات المؤمنات حين يطالبنك بملابس الزينة والحلي لما رأينك وقد نصرك الله تعالى وأظفرك بأعدائك وأنالك منهم مغانم كثيرة (إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ) وتخترن وترغبن (الْحَيَاةَ) الفانية (الدُّنْيَا) وزخرفها ومتاعها (وَزِينَتَهَا) الذاهبة الملهية عن الآخرة الباقية الدائمة (فَتَعَالَيْنَ) أقبلن وجئن راضيات مختارات الدنيا على ما عند الله (أُمَتِّعْكُنَّ) أعطكن ما جعل الله تعالى على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهن إياهن بالطلاق في قوله (وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) ومتعة الطلاق كسوة على قدر سعة المطلق ، وهي واجبة لمن لم يدخل بها ، ومستحبة لمن دخل بها ،

(وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) وأطلق سراحكن إطلاقا حسناً بالمعروف ، وأطلقكن على ما أذن الله به ، وأدب بهعباده بقوله : — (إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) من غير ضرر ولا خصومة ولا نزاع ولا مشادة . وقدم المتعة على الطلاق مع أنها مرتبة عليه ليناسب إرادة الدنيا وزينتها ، ولما انتهى من القسم الأول وهو الدنيا شرع يذكر القسم الثاني وهو الآخرة فقال جل شأنه (وَإِنْ كُنْتُنَّ) أيتها الطاهرات الكاملات (تُرِدْنَ) وتخترن (اللَّهَ) تعالى (وَرَسُولَهُ) ﷺ (وَالدَّارَ) الباقية (الْآخِرَةَ) وما فيها من نعيم مقيم ، ومقام كريم وخير عظيم ، في رضا الله تعالى وصحبة رسوله ﷺ ، إن كنتن تخترن الحياة الباقية على الحياة الفانية (فَإِنَّ اللَّهَ) تعالى فضلا منه وكرما (أَعَدَّ) وهيأ ويسر وجعل (لِلْمُحْسِنَاتِ) في دينهن وإرضاء ربهن وإطاعة نبيهن (مِنْكُنَّ) وكلكن محسنات أعد الله تعالى لها على إحسانها وإطاعتها واختيارها مايبقى على مايفنى (أَجْرًا) كبيراً (عَظِيماً) فوق إحسانكن وفوق ماترجونه من الله الكريم ،ولم يكن التخيير تفويضاً لهن في الطلاق حتى إذا اخترنه طلقهن ، ولكنه تفويض في اختيار الدنيا أو الآخرة ، فان اخترن الدنيا فارقهن وسرحهن وطلقهن ومتعهن كما أذن الله تعالى من غير ضرر ولا ضرار ، ولكنهن اخترن الدار الآخرة فأبقاهن ولم يطلق واحدة منهن ، وتوفى عليه الصلاة

والسلام وهن جميعاً فى عصمته ﷺ ، وقد خيره الله جل شأنه فى إبقاء من شاء وتطليق من شاء فى قوله تعالى : (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) أى تطلق من تشاء منهن وتبقى على عصمتك من تشاء (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ) مراجعتها (مِمَّنْ عَزَلْتَ) وطلقت (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ) فى مراجعتها ، مع هذا كله لم يطلق واحدة منهن فأخذن عنه الدين وبلغنه للمسلمات والمسلمين رضي الله عنهن ، ثم شرع يخوفهن اختيار الدنيا المؤدى إلى المنكرات ، وفعل السيئات بأن من تعمل منهن منكراً فعذابها مثل عذاب غيرها مرتين ، فقال جل شأنه (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ) ياأزواج المصطفى المختار ﷺ وهذا خطاب لهن كسائر الخطابات فى الآيات الأخر ؛ مثل (يَاأَيُّهَا النَّاسُ) ، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أوحاه الله إلى نبيه وبلغه نبيه ﷺ فهو خطاب كغيره « مَنْ يَأْتِ » عبر بالياء مراعاة للفظ من ، وقد قرىء بالتاء مراعاة لمعنى من « مِنْكُنَّ » أيتها المحسنات « بِفَاحِشَةٍ » بمعصية من نشوز وغيره « مُبَيِّنَةٍ » اسم فاعل من بين فتكون دالة وموضحة بنفسها على أنها معصية وخطيئة وقبيحة ، وفى قراءة مبينة بتشديد الياء مفتوحة اسم مفعول من بين فتكون قد بينها الله ورسوله أو بين العرف فحشها وقبحها . وهذا من باب الفرض والتقدير كما فى قوله « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقوله (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

الْعَابِدِينَ) وقد عصمهن الله تعالى من المنكر لأنهن أزواج المعصوم ﷺ فلم يقع منهن كبيرة ، فهذا شرط لم يقع وهو قوله من يأت منكن بفاحشة مبينة وجوابه (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ) بسبب إتيان الفاحشة (ضِعْفَيْنِ) فى الدنيا ويوم القيامة ، وكانت المضاعفة لأنهن أولات مقام عظيم فذنبهن عظيم وعقابه عظيم ، وهذا تحذير لغيرهن من المؤمنات المسلمات ، لأن الله تعالى قد أوعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على قربهن وعلو درجتهن وكمال إيمانهن ، فغيرهن أولى وأحق بهذا الوعيد ، وزلة العالم أعظم من زلة الجاهل ، ومقام الحر غير مقام الرقيق ، لذلك كان حد الحر ضعف حد الرقيق ، روى عن زين العابدين رضى الله عنه أن رجلا قال له : إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله تعالى : فى أزواج النبي ﷺ من أن نكون كما تقول : إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتي تليها ، ثم قال تعالى : (وَكَانَ ذَٰلِكَ) التضعيف الذى أوعد الله به من تذنب إن فرض ذلك (عَلَى اللهِ) تعالى القادر المطلع العليم الخبير (يَسِيراً) ممكناً مقدوراً لا يمنعه منه أنهن نساء رسول الله ﷺ بل هذا هو سبب تضعيف العذاب إن حصل الذنب لقربهن واتصالهن بالمعصوم المختار حبيب الله ونبي الله ونجى الله ، فوجب عليهن فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، ومراعاة ذلك أكثر من غيرهن لشرفهن ونسبتهن إليه

صلى الله عليه وسلم، ولما بين مضاعفة العقاب لمن تقدم منهن على المعصية ناسب أن يذكر مضاعفة الثواب لمن تعمل الصالحات وتأتي الحسنات فقال تعالى: (وَمَنْ يَقْنُتْ) راعى لفظ من فأتى بياء الغائب ، وفي قراءة ومن تقنت بتاء الغائبة مراعاة لمعنى من ، والقنوت الطاعة ، ومن تخضع (مِنْكُنَّ) ياأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم (لِلَّهِ) تعالى (وَرَسُولِهِ) ﷺ ، من تطع الله ورسوله (وَتَعْمَلْ) بأوامرهما عملا (صَالِحًا) مقبولا مرضياً عنه ، من صلاة وصوم وزكاة وحج (نُؤْتِهَا) نعطها (أَجْرَهَا) وثواب عملها الذي تستحقه (مَرَّتَيْنِ) ضعفين ، كما أن عذابها يكون لو كان ضعفين، فلو فعلت حسنة كانت بعشرين مثلا لها إن كانت بعشر أمثالها لغيرها ، وإن زادت عن عشر أمثالها ضوعفت لها الزيادة، وهذا الفضل من الله تعالى عليهن في حياته ﷺ وبعد وفاته إلى انتقالهن رضي الله عنهن ؛ ثم بين زيادة كرمه وسعة إحسانه فقال عز وجل : (وَأَعْتَدْنَا) وأعددنا وهيأنا ويسرنا (لَهَا) في الجنة (رِزْقًا) واسعاً (كَرِيمًا) عظيما ، زيادة على أجرها المضاعف ، وهذا الرزق الكريم أنهن يكن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق ، ثم بين سبب مضاعفة العقاب والثواب لهن بقوله جل شأنه : (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ) اللاتي تشرفن بزواجه صلى الله عليه وسلم (لَسْتُنَّ) في القدر والمقام عند الله تعالى ورسوله وعند الناس (كَأَحَدٍ) لفظ أحد في سياق النفي للعموم فيشمل

الواحد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً ، فالمعنى ليست جماعتكن كجماعة أخرى (مِنَ النِّسَاءِ) من نساء هذه الأمة ، فأنتن فوق نساء هذه الأمة فى الفضل والشرف وعلو المقام (إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) الله تعالى وأرضيتن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان دمتن على هذه التقوى فأنتن أفضل نساءِ هذه الأمة ، ثم فصل هذه التقوى بترك الكلام اللين فى محادثة الناس ، وبقول المعروف ، وبلزوم المنازل إلا لعذر شرعى ، وبترك التبرج المقوت وباقامة الصلاة وإيتاء الذكاة وباطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ وبفهم مايتلى عليهن من آيات الله وكلامه والحكمة التى ينطق بها رسول الله ﷺ ، أخذ يفصل ذلك كله بقوله جل وعلا (فَلَا تَخْضَعْنَ) إن كنتن أفضل نساء هذه الأمة ما عدا فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، فلا تخضعن للرجال (بِالْقَوْلِ) بسبب القول اللين الذى يقع فى قلوب الرجال فيجرهم إلى الفتنة (فَيَطْمَعَ) فيكن الغبي الجاهل الغر (الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) وضعف إيمان ونفاق ، وعمى بسبب لين قولكن عند محادثته أو عند استماع صوتكن بكلام لين رقيق (وَقُلْنَ) إذا تكلمتن (قَوْلاً) حسناً جميلا (مَعْرُوفاً) فى الخير وإرضاء الله العليم الحكيم ، وفى الدعوة إلى الله ودينه ، أو تعليم شرعه أو بيان فضل نبيه ، أو تلاوة قرآن أو ذكر أو دعاء الخ وقال الضحاك (قَوْلاً مَعْرُوفاً) قولا عنيفاً فيه شدة وقوة لا يطمع به طامع ولا يجترىء به مريض القلب (وَقَرْنَ) أصله اقررن حذفت الراء الثانية ونقلت حركة

الراء الأولى إلى القاف فاستغنى عن همزة الوصل فصار قرن بمعنى أقمن وامكثن (فِي بُيُوتِكُنَّ) ملازمات لها بعيدات عن الناس وعيونهم والاحتكاك بهم في الطرقات خشية الفتنة ، وكن لا يخرجن من بيوتهن إلا لعذر شرعي كحج أو زيارة أبوين أو أقارب ، أو عيادة مريض أو نحو ذلك ، وإذا خرجن لا يبدين زينتهن ولا شيئاً من محاسنهن ، فاذا كان الله تعالى قد أمرهن هذا الأمر وهن أمهات المؤمنين ، وزوجات سيد المرسلين وهن المحسنات المؤمنات ، العابدات القانتات ، الصالحات الحافظات ، فغيرهن من سائر النساء أولى أن يخشى عليهن ومنهن لو خرجن ومشين فى الطرقات على أعين الناس ، وفيهم العصاة الفجرة ، والمجرمون الفسقة ، هذا صريح القرآن قد خالفناه ؛ وتركناه وهجرناه ، فكانت تلك الفوضى الشائعة فى الفتيات والفتيان ، والنساء والرجال وعمت الفتنة ، حتى جاهروا بالعصيان ، ونادوا بالخروج على القرآن ، واتباع الهوى والشيطان ، واستشرى الفساد ؛ ودخل كل البلاد ، واختلطت الأنساب ، وضاعت الأحساب ؛ وإن شئت فنظرة إلى المصايف وما يرتكب فيها ، وإلى الشواطىء وما يجرى عليها ، وإلى المجتمعات وما تفيض به ، وإلى المتنزهات وما تئن منه ، مما يأتيه المسلمون وأبناء المسلمين وبنات المسلمين ونساء المسلمين ورجال المسلمين (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى

الله عليه وسلم قال : إن المرأة عورة ، ، فاذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وإن أقرب ماتكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها ، وقد يحرم عليها الخروج بل قد يكون كبيرة ، إذا تحققت منه المفسدة كخروجها متعطرة متزينة مبدية محاسنها ، كما يقع الآن مما يوجب الفتنة ، وإذا ظنت الفتنة فالخروج حرام وليس كبيرة، ولا يجوز الخروج إلا لعذر وبشروطه: وهي وجود المحرم والاحتشام وترك التعطر، وإخفاء المحاسن ، مما يمنع من وقوع الفتنة ، ويصد عنها المفسدين ، ويرد عنها المعتدين ، وقد زاد الله تعالى فى تأديبهن ليقتدى بهن نساء المؤمنين فقال جل شأنه (وَلاَ تَبَرَّجْنَ)ولا تتبرجن(تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) التي كانت قبل الاسلام والتبرج التبختر فى تثنمع إظهار المحاسن والزينة وما يجب ستره من العنق والصدر والشعر والقفا والظهر والأذرع والسيقان ، وما يمثل معالم الجسم ويظهر قوامه للناس . وكل ذلك حاصل الآن بدون مبالاة ولا حياء ، وقد زاد النساء فى التبرج عن الجاهلية الاولى ، وإثم ذلك راجع اليهن وإلى أولياء أمورهن لعنهن الله لعناً كبيراً ، ولعن من يرضى بذلك منهن ، ولعن من ينظر اليهن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا

وكذا ، وعن عائشة رضى الله عنها ، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ؛ فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ياأسماء : إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه ، وعن أبي أمامة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه ، وعن معاوية بن حيدرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لاترى أعينهم النار ، عين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لاتحل له وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا متاع ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة ، مسكين مسكين رجل لاامرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لازوج لها ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالاثم لايقع على المرأة وحدها بل عليها وعلى كل مسئول عنها ، هذا أدب الله وأدب رسوله

والله لو تأدبنا بها لكنا كما كان السابقون الاولون فى عز وسؤدد ، ورفعة لنا الأمر لالغيرنا علينا ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ، وبعد أن أدبهن بهذا الأدب العالى أمرهن بركنين عظيمين من أركان الاسلام ، وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم بأمر عام وهو إطاعة الله ورسوله ، فقال جل شأنه (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ) المكتوبة على كل مسلم ومسلمة ومعلوم أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتجعل ممن يقيمها عبداً روحياً مؤمناً طاهر القلب نقى النفس (وَآتِينَ الزَّكَاةَ) المفروضة ، لأنها طهرة تؤلف بين قلوب المسلمين وتجعلهم أخوة صادقين ، وبقية الاركان داخلة فى قوله (وَأَطِعْنَ اللهَ) تعالى فى كل ماأمر به ونهى عنه (وَرَسُولَهُ) وأطعن رسوله ﷺ فيما جاء به وبلغه عن ربه عز وجل ، ومن ذلك : الصوم ، والحج ، وعمل كل ما يرضى الله والرسول (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً * إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَٰنِتَٰتِ وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَٰتِ وَالصَّٰبِرِينَ

وَالصَّـٰبِرَٰتِ وَالْخَـٰشِعِينَ وَالْخَـٰشِعَـٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَالصَّـٰئِمِينَ وَالصَّـٰئِمَـٰتِ وَالْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـٰفِظَـٰتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

بعد أن اشتد سبحانه وتعالى فى أمر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ونهيهن، وتحذيرهن وترغيبهن، بين أن السبب فى ذلك والغرض منه إنما هو حفظهن من كل رجس ونقص، وبقاؤهن طاهرات كاملات طيبات شريفات فقال جل شأنه: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ) فهذا تعليل لكل ما سبق؛ إنما يريد الله تعالى بتلك الأوامر وهذه النواهى (لِيُذْهِبَ) أن يذهب فاللام زائدة والمعنى يريد الله أن يذهب (عَنكُمُ) فيه خطاب المؤنث بخطاب المذكر للتعظيم وبيان الفضل وعلو المقام ومقتضى الظاهر عنكن، لقوله: (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فعدل عنه لهذا وليدخل فى أهل البيت غير أزواجه عليه الصلاة والسلام من الأصول والفروع من النسب، يريد الله تعالى بما أمر وبما نهى أن يذهب ويمنع عنكم (الرِّجْسَ) معناه القذر والنجس والمراد به الذنب والسوء والفحشاء (أَهْلَ) يأهل (الْبَيْتِ) بيت النبى صلى الله عليه وسلم، ولما كان إذهاب الرجس لا يقتضى التطهير، بل قد يزول الرجس ولا يطهر المحل، قال جل شأنه: (وَيُطَهِّرَكُمْ) بالتقوى وفعل الخيرات: (تَطْهِيرًا) تاماً دائماً باقياً مما

يكون فى أهل معاصي الله تعالى ، والرجس إشارة إلى ما نهى عنه ، والتطهير إشارة إلى ما أمر به ، وظاهر سياق الآيات والمناسب لهذا السياق أن المراد بأهل البيت نساؤه الطاهرات ﷺ ، ويؤيد ذلك ما روى عن طريق عكرمة رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) قال : نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة ، وعن عروة رضى الله عنه (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) قال : يعنى أزواج النبى ﷺ ، وعن علقمة قال : كان عكرمة ينادى فى السوق (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قال نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة . وصح فى روايات كثيرة أن أهل البيت هم المتصلون بنسبه ﷺ من الأصول والفروع . فعن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أذكركم الله فى أهل بيتى ، فقيل لزيد رضي الله عنه : ومن أهل بيته ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ؟ ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده : آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسما ، فذلك قوله : وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني فِي خيرها ثلثاً ، فذلك قوله ، وأصحاب الميمنة

ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، وذلك قوله : وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً ، فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما دخل على رضى الله عنه بفاطمة رضى الله عنها جاء النبي ﷺ أربعين صباحا إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته : الصلاة رحمكم الله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) أنا حرب لما حاربتم ، أنا سلم لمن سالمتم ، وعن حكيم بن سعيد قال ذكرنا على بن أبي طالب رضى الله عنه عند أم سلمة رضى الله عنها ، فقالت فيه نزلت (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قالت أم سلمة جاء النبي ﷺ إلى بيتي فقال لا تأذنى لأحد فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط ، فجللهم نبي الله بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فنزلت هذه

الآية حين اجتمعوا على البساط ، قالت فقلت يا رسول الله وأنا ، قالت فوالله ما أنعم ! وقال إنك إلى خير ، وعن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلل عليهم كساء خيبريا ، فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالت أم سلمة ألست منهم ، قال أنت إلى خير ، وصح فى روايات أخرى أن أهل البيت يشمل الأزواج الطاهرات ويشمل المتصلين به ﷺ من النسب ، فقد روى أنه ﷺ ضم إلى أهل الكساء وهم على وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم بقية بناته وأقاربه وأزواجه وهذا هو المراد من الآية ، وإن كان سبب النزول يدل على الخصوص ، بالأزواج ، أو بأهل النسب . ثم خص العرف أهل البيت بنسل على وفاطمة رضى الله عنهم أجمعين ، والتعبير بقوله عنكم يشعر بالعموم ، وفيه تغليب المذكر على المؤنث ، والمخاطب على الغائب ، وقوله : إنما يريد الله لا يدل على أنهم معصومون ، لأن الله سبحانه وتعالى يريد بارسال الرسل وإنزال الكتب خير الخلق وهداية الخلق ولكن منهم من يهتدى ومنهم من لا يهتدى ، فكذلك جل شأنه يريد بما أمر ونهى إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم ولكن يجوز أن يكون منهم من لا يذهب عنه الرجس ولا يتقى ، والحق أنهم غير معصومين ، ولكنهم جميعاً يتوفون على الايمان كرامة

للنبي عليه الصلاة والسلام ، وفى الآية حث لآل البيت أن يدوموا على الطاعة والخيرات ، وعمل الصالحات ، حتى يكونوا على طهارة تامة ، وصلاح وتقوى ، وبعد عن كل رجس وفحش وذنب وإثم ، فالمعنى إنما يريد الله بالأمر والنهى أن يذهب عنكم الرجس إن انتهيتم وائتمرتم فالارادة على حقيقتها وهى مشروطة بالانتهاء والائتمار ، فقل للذين يدعون الانتساب لأهل البيت وهم فى حمأة الرذيلة غارقون ، وعن طريق الفضيلة ناكبون ، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ففيها أمر لأهل البيت بالبعد عن الدناءات ، وبتطهيرهم من السيئات فان كنتم صادقين ، فاتبعوا سنن سيد المرسلين ، وآل بيته الطاهرين . وإلا كنتم كاذبين ، والله مع الصادقين . وفى الآية تشريف لأهل البيت من وجوه ، فالله تعالى جل شأنه اعتنى بأمرهم ، وأظهر حبه إياهم وخاطبهم ، ووعدهم بقبول أعمالهم ، وهذه بشارة لهم بالجنة ثم جعل ذلك كله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ،فهم أهل الله وخاصته ، وهم فى الخلق نوره ورحمته ، ولذلك كان منهم الأئمة الواصلون ، والهداة الراشدون فى كل عصر وزمان ، فعن قتادة رضى الله عنه فى قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قال هم أهل بيت طهرهم الله من السوء واختصهم برحمته ، قال وحدث الضحاك ابن مزاحم رضى الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول : نحن أهل بيت

طهرهم الله ، من شجرة النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وبيت الرحمة ، ومعدن العلم ، وهذا لا ينافى أن غيرهم ممن ليسوا من أهل البيت قد ينالون منالهم ويدركون منازلهم ، غير أن العلماء أجمعوا على أن المهدى المنتظر لابد أن يكون منهم رضى الله عنهم أجمعين ، وجعلنا بهم من المهتدين ، ورزقنا حبهم ، وحشرنا معهم . وبعد أن أمرهن ونهاهن فيما سبق أمرهن بذكر ما يسمعن من قرآن وحكمة حتى يدمن على التقوى ويزددن إيماناً ونوراً فقال جل شأنه : (وَاذْكُرْنَ) للناس على سبيل العظة والتذكير والارشاد والتنبيه ، أو تذكرن أنتن (مَا يُتْلَى) ويقرأ (فِي بُيُوتِكُنَّ) أيتها الطاهرات ، والتالى هو النبى ﷺ أو جبريل عليه السلام أو الصحابة رضى الله عنهم أو أنتن أنفسكن (مِنْ آيَاتِ اللهِ) تعالى وكلامه وهو القرآن الكريم (وَالْحِكْمَةِ) وهى السنة التى بين بها النبى ﷺ كلام ربه ، أو الحكمة التى اشتمل عليها القرآن من الهداية والعلم ، من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته ولأنه المطلوب الأعظم ، وفى الآية تنبيه لهن بأنهن أقرب الناس إليه ﷺ فهن أولى أن يبادرن بالانتفاع بهذا الخير العظيم ، والسعادة الأبدية وفيها إشارة إلى علو قدرهن وارتفاع منزلتهن ، وتشرفهن بذلك النور الوضاء ، نور النبوة الذى أنار الوجود من مشرقها إلى مغربها ساطعاً من هذه البيوت الطاهرة التى ضمت منبع النور ، ومصدر الحكمة ، وأصل الهداية والنعمة ، وهو النبى ﷺ ، وفيها أمر لهن بارشاد غيرهن

بعد أن أمرهن ونهاهن وجعلهن أهلا للقيام بمهمة الوعظ والارشاد والتنبيه والتذكير ، وفيها دلالة على أن من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وأن يحوز من صفات الكمال مايجعله أهلا للارشاد ، وقدوة حسنة فى الناس

يأيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

قال الله تعالى لهن أعرفن هذه النعمة ، واحفظنها بدوام الشكر عليها ، بفعل الطاعات والتذكر والتذكير (إِنَّ اللَّهَ) تعالى (كَانَ) بكن (لَطِيفاً) إذ جعلكن فى بيوت النبي ﷺ ، بيوت القرآن والحكمة ومتنزل الوحي والرحمة ومهبط الهدى والنور (خَبِيراً) بكن إذ اختاركن أزواجا لخير خلقه وأفضل عباده عليه الصلاة والسلام ، وهو لطيف بكن إذ أمركن ونهاكن وأرشدكن ولم يدعكن بل رعاكن وحفظكن وهو خبير بمن هو أحق بالكرامة والاصطفاء ، وأولى بالاختيار والاجتباء ، ، وبعد أن هدى وأرشد الزوجات الطاهرات ، وفيه إرشاد لكل المسلمين والمسلمات ، شرع يبين ماأعده لأهل طاعته جميعاً ، فقال جل شأنه (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ) ، إلخ ، فهو استئناف لبيان ماأعده لأهل التقوى من ذكور وإناث ، يروى أن أم سلمة أو كل أزواج النبي ﷺ قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن ، ولم يذكر النساء

فنحن نخاف ألا يقبل منا طاعة ، فنزلت (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ) الآية ، وعن قتادة رضى الله عنه قال دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن قد ذكركن الله فى القرآن ولم نذكر بشىء ، أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) الآيه ، وعن عبد الرحمن بن شيبة رضى الله عنه قال سمعت أم سلمة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ تقول قلت للنبى ﷺ . مالنا لانذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ، قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت وأنا أسرح شعرى ، فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة بيتي فجعلت سمعى عند الجريد ، فاذا هو يقول عند المنبر : ياأيها الناس إن الله تعالى يقول . (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إلى آخر الآية ، وقد ذكر عشر مراتب الأولى التسليم والانقياد فى قوله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) الذين دخلوا فى الاسلام وانقادوا له وأسلموا لله عزوجل من الذكور والاناث ، والثانية الايمان وذكرها بقوله (وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين ، فالاسلام قول باللسان ، والايمان تصديق بالقلب ، وعلى ذلك فهما متغايران كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ) وإذا قال العبد بلسانه وصدق بقلبه أطاع وعمل ، فالطاعة والعمل هى المرتبة الثالثة التى ذكرها بقوله

(وَالْقَانِتِينَ) المطيعين (وَالْقَانِتَات) المطيعات ، فالقنوت هو الطاعة في سكون . قال تعالى (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) فاذا كان الاسلام والايمان والطاعة لزمها الصدق ، فالصدق هو المرتبة الرابعة . وقد ذكرها بقوله (وَالصَّادِقِينَ) في أقوالهم وإيمانهم وأعمالهم (وَالصَّادِقَاتِ) في أقوالهن وإيمانهن وأعمالهن . فلا كذب ولا نفاق ولا رياء ، والصدق الاخبار عن الشيء على ماهو عليه . والكذب الاخبار عن الشيء على غير ماهو عليه . والكذب حرام والصدق واجب . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقال جل شأنه (ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فالصدق علامة الايمان كما أن الكذب أمارة النفاق . وقال ﷺ « عليكم بالصدق . فان الصدق يهدى إلى البر . والبر يهدى الى الجنة . وإياكم والكذب . فان الكذب يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وقال الله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) جاء أعرابي الى النبي ﷺ ليسلم وكان فيه خصال خمس سيئة ، الكذب

والسرقة، والزنى، وشرب الخمر، والقتل . فقال للنبي ﷺ اختر لك واحدة واترك لى أربعاً وأسلم. فقال له النبي ﷺ اترك الكذب . فرضى وأسلم ومضى إلى سبيله . فلما همّ بالسرقة خاف أن يضبط فيسأل فيصدق فيحد . فترك السرقة وبقية الخصال خشية أن يحد . ففى الكذب كل الضرر . وفى الصدق النجاة والخير . يحكي أن الحجاج خطب فأطال . فقام رجل فقال الصلاة . فان الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك. فأمر بحبسه فأتاه قومه . وزعموا أنه مجنون . وسألوه أن يخلى سبيله . فقال إن أقر بالجنون خليته . فقيل له . فقال : معاذ الله ، لا أزعم أن الله ابتلانى ،وقد عافانى ، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه ، فلو أن المسلمين صدقوا في إسلامهم وإيمانهم وأعمالهم وأقوالهم لنالوا عز الدهر ، ولعاد لهم مجد السابقين الأولين من سلفهم رضي الله عنهم ، ولما كانت هذه المراتب تتطلب صبراً وثباتاً ، وقوة وجهاداً ، ذكر المرتبة الخامسة وهى الصبر بعدها ، فقال عز وجل (وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ) على مشاق الاسلام والايمان والطاعة الصدق ، والصبر هو ترك الشكوى ، من آلام الشدة والبلوى ، ولا ينافيه التضرع إلي الله والالتجاء إليه عند اشتداد الكرب ونزول الخطب ، وقد قال الله فى الصابرين (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وقال فى الثناء على أيوب عليه السلام (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ولا إيمان لمن لا صبر له ، قال ﷺ : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، والصبر فى كل

شيء طريق كماله وإتقانه، فى الطاعة ، فى الصناعة ، فى الزراعة فى كل أمر ، فصلاة الصابر ليست كصلاة المستعجل ، وصناعة الصابر ليست كصناعة غيره وكذلك كل عمل لا يكمل إلا مع الصبر ، والصبر على المكاره يخفف من وطئتها وشدتها (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا) على مشاق ما افترض عليكم وأدوه على أكمل الوجوه (وَصَابِرُوا) عدوكم وغالبوه بالثبات والجهاد وكل أنواع المقاومة ، فان الظفر للصابر أخيراً ولو دقيقة واحدة أمام عدوه (وَرَابِطُوا) فى الثغور وميادين القتال فأقيموا بها مرابطين محافظين لعدوكم مترصدين (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى كل أحوالكم وخافوا عقابه واخشوا عذابه (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) لكي تفلحوا وتنجحوا وتفوزوا بالسعادة في الدنيا والآخرة ، وإذا تمت هذه المراتب للعبد لزمه الخشوع والخوف من ربه ، والاشفاق من خشيته وهى المرتبة السادسة التى ذكرها بقوله (وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) والخشوع السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من الله تعالى واستحضار هيبته ، وتصور عظمته ، ومراقبته فى السر والعلن . قال صلى الله عليه وسلم : اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، وإذا حصل العبد على مرتبة الخشوع زال عنه الكبر والغطرسة والظلم والقسوة والقهر والغلبة والنصب والنهب والسلب وتحلى بالتواضع والحلم والعدل والاحسان والوثوق بالله والرضا بقضائه وقدره وعاش راضياً مرضيا وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا مدحه مادح وأثنى عليه ، قال : اللهم

أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، واغفر لي مالا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ، وليس معنى الخشوع إظهار النحافة والكسل والمشي بين عباد الله كالميت ، إنما معناه إشعار القلب خشية الله تعالى في كل وقت وحال . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ، ولا متماوتين . أي مظهرين صورة الموت بالضعف والنحافة أو بالقول والفعل ، روى أن عمر رضي الله عنه نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة ، وقال لا تمت علينا ديننا أماتك الله . وفي قوله : (وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) إشارة إلى الصلاة ، لأن الصلاة من لوازمها الخشوع ، وصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) وإذا تمت هذه المراتب لعبد هانت عليه الدنيا ، وعرف حق ربه في ماله فأخرج حق ربه طيبة نفسه ، مطمئنا قلبه ، فكان من المنفقين في سبيله ، المتصدقين ابتغاء مرضاته ، وهذه هي المرتبة السابعة وقد ذكرها بقوله : (وَالْمُتَصَدِّقِينَ) من طيبات ما كسبوا فرضاً وتطوعا (وَالْمُتَصَدِّقَاتِ) وفيه إشارة إلى الزكاة فالصدقة نوعان : صدقة فرضها الله تعالى على العبد في ماله يخرجها كل سنة ، وصدقة يتطوع بها متى وجد سعة ، والصدقة هي الاحسان إلى الناس المحتاجين الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ينفق عليهم يعطون زكاة المال طاعة لله تعالى ، وإحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت في

الصحيحين « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله » فذكر منهم « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه » وفى حديث آخر « والصدقة تطفىء الخطيئة ، كما يطفىء الماء النار » وقد قدم الله الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى قوله تعالى (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ) لأن إنفاق المال صعب (وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ) (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) والذى ينال هذه المراتب السبعة يكون قد هيأ نفسه لطاعة ربه فيحتاج لما يكسر به شهوته ويزيد فى صفاء قلبه ويشعره بنعمة الله عليه وحاجة الفقير إلى ماله وعونه ، وكل ذلك يكون بالصوم ، وهو المرتبة الثامنة التى ذكرها بقوله (وَالصَّائِمِينَ) شهر رمضان الذى فرض الله عليهم صومه والذين يتطوعون بصيام أيام أخر زيادة على الفرض ماداموا مستطيعين ، لايضرهم صوم النفل فى حياتهم ولا أبدانهم ولا أعمالهم (وَالصَّائِمَاتِ) الفرض والنفل وفيه إشارة إلى فضل الصوم ، وفى الحديث الصوم جُنَّةٌ أى وقاية من أمراض النفس والجسم فهو يزكى البدن ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا ، والصوم من العبادات التى لايدخلها الرياء فهو سر بين العبد وربه ، وهو من أكبر العون على كسر الشهوة شهوة البطن والفرج ، التى تنشأ عنها مفاسد كثيرة ، بل كل الشرور تنشأ عن شهوة البطن وشهوة

الفرج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة — النفقة — فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء — وقاية من تلك الشهوة ولما كان الصوم وحده لا يكفى في حفظ المرء نفسه ، فقد يكون صائما ويشتهى ، لذلك ذكر المرتبة التاسعة وهى حفظ المرء فرجه مما حرم الله فقال (وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ) مما لا يرضي الله تعالى (وَالحَافِظَاتِ) فروجهن مما حرم الله تعالى ، ومما وصف الله به المؤمنين المفلحين الناجين قوله جل شأنه (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ملومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) والحافظات فروجهن إلا على أزواجهن إن كن حرائر ، أو من ملكهن إن كن إماء ، فحفظ الفرج من الحرام محتاج لجهاد نفس شاق حيث جعل فى المرتبة التاسعة ، ومن استطاع ذلك كان من المتقين ، ولما كان المقصود من تلك المراتب التسعة هو خشية الله ، والخوف من الله ، ومعرفة الله ، والوصول إلى الله ، وكانت تلك الأعمال لا يتفرغ لها العبد فى كل حال ، فهو لا يستطيع يصلي طول وقته ، وكذلك فى الصوم والصدقة ، ولكنه يستطيع أن يذكر الله فى كل أوقاته لهذا ختم الأوصاف بالمرتبة العاشرة وهى الذكر الكثير فقال جل شأنه (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ) تعالى بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم قائمين وقاعدين وماشين وراكبين وفى إسلامهم

وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم وحفظهم فروجهم، وعلى كل هيئة وحال (وَالذَّاكِرَاتِ) كذلك، وقد ورد فى الذكر الكثير آيات كثيرة قال تعالى (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيراً) وقال هنا (وَالذَّاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً) وقال فيما يأتى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً) لأن مشاغل الدنيا كثيرة وفى المرء طبائع شهوانية تتنازعه فى كل أوقاته : لحواسه وبطنه وفرجه، كل أولئك تحفزه إلى الشر وتسوقه إلى العدوان والاثم، ومن وراء ذلك كله الشيطان وغروره، ووسوسته وحربه، لذلك كله أمرنا الله تعالى بالذكر الكثير حتى نقاوم هذه الجنود جنود إبليس، فاذا ذكر العبد ربه كثيراً مع ما ناله من هذه المراتب لم يجد الشيطان إليه سبيلا، والقى ربه وليس عليه شاهد بذنب والمراد الذكر مع الاستحضار والخشية ذلك الذكر الذى تلين له الجلود وتوجل له القلوب كما قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً) وذكر الله يكون بذكر أسمائه مع مراعاة معني كل اسم أو بالتسبيح أو بتلاوة القرآن أو بالصلاة، وقد أخبر عمن حازوا هذه الصفات العشر بقوله جل شأنه : (أَعَدَّ اللّٰهُ) تعالى بسبب ما كسبوا وبسبب ما كسبن (لَهُمْ) ولهن (مَغْفِرَةً) عما فرط منهم ومنهن من الذنوب قبل أن ينالوا وينلن هذه الصفات (وَأَجْراً عَظِيماً) على ماعملوا

وعملن من الطاعات ، يوم الجزاء (يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) فيأيها المسلم هـذه هى الصفات العشر التى تنجيك من عذاب أليم ، وتجعلك يوم القيامة فى نعيم مقيم ، وعليها سعادتك وسعادة المسلمين إخوانك فى الدنيا والآخرة ، فاجعلها من صفاتك واحتفظ بها ، لتكون كلمة الله هى العليا ، والله مع الصابرين ، (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ

اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً .

كان من عادة الجاهلية التبنى ، فيدعى الرجل أن فلاناً ابنه ، فينسب إليه ، ويدعى به ، فيقال ابن فلان ، فلا يصح أن يتزوج الرجل من زوجة من ادعاه إذا طلقت ، وكانوا يدعون زيد بن حارثة بابن محمد فنسخ الله ذلك كله بقوله : (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) وقوله: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) فصاروا يقولون زيد بن حارثة ، بين الله تعالى ذلك كله أول السورة ، وأراد أن ينسخ ما يترتب على هذه العادة فشرع يذكر قصة زينب الأسدية مع زيد التى انتهت بزواجه ﷺ منها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في التزوج من أزواج أدعيائهم إذا فارقوهن ، وكانوا يمنعون ذلك ، ويرونه كبيرة ، فنسخه الله تعالى وجعل أول ناسخ له نبيه ﷺ ، فقال جل شأنه (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ فمناسبة هذه الآية لما قبلها أنها تتميم لقصة زيد التى بدأ بها السورة وأنه سبحانه وتعالى لما بين صفات المؤمنين والمؤمنات ، ناسب أن يذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون والمؤمنات مع الله تعالى ورسوله ﷺ فيما يؤمرون به أو ينهون عنه ، فقال : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ) الخ والسبب فى نزول هذه الآية ما روى عن

قتادة قال : نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش ، وكانت بنت عمة رسول الله ﷺ فخطبها رسول الله ﷺ فرضيت ، ورأت أنه يخطبها على نفسه ، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة ، أبت وأنكرت ، فأنزل الله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) فتابعته بعد ذلك ورضيت ، وعن ابن عباس قال خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) الآية كلها فرضيت ورضى أخوها عبد الله فزوجها رسول الله ﷺ زيداً ، بعد أن جعلت أمرها بيده عليه الصلاة والسلام وساق إليها عنه المهر عشرة دنانير وستين درهما وخماراً وملحفة ودرعا وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعا من تمر ، قال تعالى : (وَمَا كَانَ) وما صح ولا ينبغي ولا يحل شرعا (لِمُؤْمِنٍ) بالله تعالى ورسوله ﷺ (وَلَا مُؤْمِنَةٍ) بهما (إِذَا قَضَى اللَّهُ) تعالى (وَرَسُولُهُ) سيدنا محمد ﷺ (أَمْرًا) أنزله الله وبينه الرسول ، حلالا أو حراما ، مباحا ، أو محظوراً (أَنْ يَكُونَ لَهُمُ) للمؤمنين والمؤمنات (الْخِيَرَةُ) والاختيار (مِنْ أَمْرِهِمْ) هذا الذى أمرهم به الله ودلهم عليه الرسول ؛ بل يجب عليهم أن يذعنوا ويطيعوا ، ويسمعوا ويقبلوا ، كل ما أمرهم

به الله ودلهم عليه الرسول ، ولو خالف هواهم ، وما فى نفوسهم ، قال تعالى : (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) وقال جل شأنه : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ثم أوعدهم إذا خالفوا أو خالفن فقال : (وَمَنْ يَعْصِ) ومن يخالف (اللَّهَ) تعالى فيما أمر به أو نهى عنه (وَرَسُولَهُ) ﷺ فيما بلغ ودل ؛ ويتبع هواه ورأيه ونفسه (فَقَدْ ضَلَّ) عن طريق الهدى والصواب (ضَلاَلاً مُبِيناً) ظاهراً واضحاً بين الانحراف والاعوجاج ، وفى الآية الأمر بالتمسك بالكتاب والسنة ، والنهى عن العمل بغيرها ، فما عليه المسلمون الآن من العمل بالقوانين الوضعية التي تخالف الكتاب والسنة إنما هو ضلال مبين ، وزيغ عن طريق الهدى والصواب ، يستوجب المقت والعقاب ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، ولما كانت الآية السابقة قد نزلت فى زينب بنت جحش رضى الله عنها ناسب أن يذكر قصتها مع زيد رضى الله عنه ومع رسول الله ﷺ فقال جل شأنه : (وَإِذْ تَقُولُ) إلخ وقد نزلت هذه الآية فى قصة زيد وزينب وتطليقها منه وتزويجها من النبى ﷺ ، ونذكر لك بياناً وجيزاً عن زيد وزينب رضي الله عنهما ، فأما زيد فهو زيد بن حارثة بن شراحبيل ويكني أبا أسامة وهو مولى

رسول الله ﷺ وحبة وأبو حبة أسامة بن زيد أصابه سبي فى الجاهلية فأخذوه وقدموا به سوق عكاظ فشروه لخديجة رضي الله عنها فوهبته خديجة للنبي ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثماني سنين فأعتقه وتبناه وصاروا يدعونه زيد بن محمد حتى أنزل الله (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ، وحزن أبوه لفقده حتى عرفه بعض قومه وأخبروا أباه حارثة بموضعه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه فقدما مكة ودخلا على النبي ﷺ فقالا يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيد قومه ، جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فقال من هو ؟ قالوا زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : فهلا غير ذلك ؟ قالوا ما هو ؟ قال ادعوه وخيروه ، فان اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فوالله ماأنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، قالا قد زدتنا على النصف وأحسنت ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ! هذا أبي ، وهذا عمى : قال فأنا من عرفت ورأيت صحبتي لك ، فاخترنى أو اخترهما ، قال ما أريدهما ، وما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم ، فقال أبوه وعمه ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ، قال نعم! قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر عند الكعبة فقال يامن حضر : اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه

طابت نفوسهما وانصرفا ، فترى أنه آثر عشرة الرسول ﷺ على أبيه وأمه وأهله وقومه ، وهو أول من أسلم من الموالى رضى الله عنه ، وشهد بدراً ، وكان البشير إلى المدينة بالظفر والنصر ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : ما بعث رسول ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو بقى لاستخلفه بعده ، ولما سير رسول الله ﷺ الجيش إلى الشام جعل زيداً أميراً عليهم ، وقال فان قتل فجعفر بن أبي طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة ، فقتل زيد فى مؤتة من أرض الشام فى جمادى من سنة ثمان من الهجرة ، وقتل جعفر ، ثم قتل عبد الله بن رواحة رضى الله عنهم أجمعين وبكى الرسول لقتلهم ، ولم يذكر في القرآن من أصحاب النبي ﷺ ولا من أصحاب غيره من الأنبياء إلا زيد رضى الله عنه ، وقتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وقد زوجه النبى ﷺ ابنة عمته زينب رضي الله عنها، ثم طلقها وتزوجها النبى ﷺ ونزل فى ذلك (وَإِذْ تَقُولُ) إلى قوله : (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً) . وأما زينب رضى الله عنها فهى زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ ، ولها أقدمية فى الاسلام ، وهى من المؤمنات المهاجرات ، تزوجها زيد بن حارثة ، ثم تزوجها النبى ﷺ سنة ثلاث ، وقيل سنة خمس للهجرة لابطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه ، من أن الذى يتبنى غيره يصير ابنه فيتوارثان ولا تحل له امرأة المتبني كما لاتحل له امرأة ابنه إلى غير ذلك . فأبطل الله ذلك ،

فعن أنس بن مالك قال : لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرني لها ، قال زيد فلما قال لى رسول الله ﷺ ذلك ، عظمت فى عيني فذهبت إليها ، فجعلت ظهرى إلى الباب فقلت يازينب : بعث لى رسول الله ﷺ يذكرك ، فقالت : ما كنت لأحدث شيئاً ، حتي أوامر ربى عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، وأنزل الله هـذه الآية : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) فجعل رسول الله ﷺ يدخل عليها بغير إذن ، قال أنس كانت زينب بنت جحش تفتخر على نساء النبى ﷺ ، وتقول زوجنى الله من السماء ، وأولم عليها رسول الله ﷺ بخبز ولحم ، وكانت صناع اليد ، تعمل بيدها وتتصدق به فى سبيل الله ، قالت عائشة رضى الله عنها هى التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ : ما رأيت امرأة قط خيراً فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة ، وقال ﷺ إنها لأواهة فقال رجل يارسول الله : ما الأواه ؟ قال المتخشع المتضرع . وكانت أول نسائه صلى الله عليه وآله وسلم لحوقاً به ، كما قال عليه الصلاة والسلام أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً ، فكانت هى زينب رضى الله عنها ، ومعنى أطولكن يداً أكثركن معروفاً وخيراً وصدقة ، توفيت سنة عشرين للهجرة ، وأرسل إليها عمر بن الخطاب اثنى عشر ألف درهم كما فرض لنساء النبي ﷺ فأخذتها وفرقتها فى ذوى قرابتها وأيتامها ، ثم قالت : اللهم

لا يدركني عطاء لعمر بن الخطاب بعد هذا ، فماتت وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعاً، وقد تزوجها النبي ﷺ وهى بنت خمس وثلاثين سنة ، وماتت وهى بنت خمسين سنة ، أو ثلاث وخمسين سنة ، قال تعالى (وَإِذْ تَقُولُ) واذكر أيها النبي الكريم وقت قولك (لِلَّذِي) لزيد بن حارثة الذى (أَنْعَمَ اللهُ) تعالى (عَلَيْهِ) بتوفيقه للاسلام ، وتوفيقك لحسن تربيته ، ورعايته ، والعطف عليه ، حتى لقد كان منك بمنزلة الابن من الأب ؛ بل قدمك على الأب والعم لما رأى منك من الحب الخالص ، والكرم العظيم ، والآيات الباهرة ؛ كما قال جل شأنه (وَأَنْعَمْتَ) يا نبى الله (عَلَيْهِ) بالعتق ، والتحرير من الرق ، والهداية إلى الاسلام ، وصحبتك ياخير الأنام ، وغير ذلك من صنوف الانعام تقول له (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) زينب بنت جحش ولا تفارقها ، وذلك أن زيداً لما تزوج زينب كانت معه ذات حدة وشدة ، وكانت تفخر عليه بشرفها وحسبها ويسمع منها مالا يحب ، فجاء رضى الله عنه إلى الرسول وقال يارسول الله إني أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال الرسول : أرابك منها شيء قال لا والله ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذيني بلسانها ، فقال له النبي ﷺ (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) فلا تطلق (وَاتَّقِ اللهَ) تعالى يازيد فى أمرها وفى عشرتها ، ولا تتسرع فى مفارقتها ، لأنها كما تقول تتعظم عليك لشرفها ، وتؤذيك بلسانها ، وكان ﷺ يعلم من طريق الوحى أن زيداً سيطلقها ، ولكنه اتبع

طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال له : أمسك عليك زوجك، واتق الله فيها ولا تفارقها لمجرد ما وقع في نفسك منها ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ (وَتُخْفِي) أيها النبي (فِي نَفْسِكَ) الرحيمة الشريفة (مَا اللَّهُ) تعالى (مُبْدِيهِ) كما سبق في علمه وهو طلاقها وتزوجك (وَتَخْشَى) وتخاف (النَّاسَ) المؤمنين والمنافقين أن يفتنوا ، إذا قلت لزيد طلقها حين قال لك إنها تؤذيني ، فيجد المنافقون طريقاً إلى الفتنة ويقولون إنه يأمره بطلاقها لأنه يريد زواجها ، وهي زوجة ابنه الذي تبناه (وَاللَّهُ) تعالى (أَحَقّ) هو الأحق (أَنْ تَخْشَاهُ) ولا تخش غيره ولا تنظر إليه متى أعلمك الله بما يخالف ما عليه الناس ، فما جئت إلا لاخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن تلك العادات السيئة إلى الخير العظيم ، فكل ما في الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لرأفته ورحمته لم يأمر زيداً بطلاقها خشية وقوع الناس في الفتنة ، وقد علم من طريق الوحي أنه سيطلقها وأنها من أزواجه صلى الله عليه وسلم فقال له ربه : متى علمت شيئاً من طريق الوحي فاذكره ولا تخش إلا الله الذي أوحى إليك وأعلمك ، روى عن على بن زيد بن جدعان ، قال : سألني على بن الحسين رضي الله عنهما . ما يقول الحسن في قوله تعالى : (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) فذكرت له ، فقال : لا . ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ، ليشكوها إليه ، قال اتق الله ، وأمسك عليك

زوجك ، فقال . قد أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وروى عن السدى أنه قال نحو ذلك : وهذه الحادثة دلت على كمال حيائه صلى الله عليه وسلم ، وعظيم أدبه ، وعلو خلقه ، أخفى أمراً أباحه الله له ، وأطلعه عليه وأنه لاحرج فيـه ولا عيب فى إتيانه ، فاستحيا أن يعرفه الناس ، فيطلق المنافقون ألسنتهم ، ويرجف به المرجفون كما هى عادتهم ، فى حين أنه لم يـكن مُستنكراً عندهم أن ينزل الرجل منهم عن امرأته لصديقه ، ولا مستهجناً إذا نزل عنهـا أن يتزوجها الآخر ، فإن المهاجرين لما دخلوا المدينة استهم الأنصار معهم كل شىء ، حتى أن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وتزوجها المهاجر ، وإذا كان الأمر مباحا من جميع جهاته ، وليس فيه وجه من وجوه القبح ، وليس فيه مفسدة ولا مضرة بأحد ، ولا بالهيئة العامة ، فليس فى إتيانه أية نقيصة ، فما بالك إذا كانت فيه المصالح الآتية :

(١) أن الله تعالى أراد أن ينسخ بزواجهـا ما كان من حرج فى زواج زوجة المتبنى متى طلقت ، وانقضت عدتهـا ، كما دل عليه قوله جل شأنه : (زَوَّجْنَاكَهَا لِـكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) .

(٢) أن يمحو من النفوس أن زيداً رضي الله عنه ابن محمد ﷺ كما كان يُدْعَى إلى أن نزل قوله تعالى : (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ) وهو ما أفاده قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـكِنْ رَسُولَ اللهِ)

(٣) أن زينب رضي الله عنها بنت عمته ﷺ ، فاذا طلقت وانقضت عدتها فهى أحق أن تحفظ وتصان عنده ﷺ ، وفى ذلك ما فيه من صلة القربى

(٤) بيان أنه ﷺ يفعل ما يأمره به ربه ، وإن كانت نفسه الشريفة المطبوعة على الشفقة والرحمة والرأفة ترى أنه قد ينتج ماربما فتن الناس أو صدهم عن الحق (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)

مع هذا كله أخفى الرسول ﷺ عن الناس ما علمه بالوحى من أن زيداً رضى الله عنه سيطلق زينب وأنها ستكون من أزواجه الطاهرات ، وأخفاه لأنه لم يؤمر بتبليغه ، فلا جناح عليه فى إخفائه ، فلما أراد الله إبطال هذه العادة أنزل قرآنا يبطلها ويتلوه الناس وهو قوله (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) فلم يكن هذا عن هوى ولا غرض منه ﷺ ، بل كان عن وحى وتنزيل ومع أنه أخفى طلاقها وأنها ستكون من أزواجه ، نسبوا إليه أنه أخفى حبها وميله إليها ، وقالوا أنه رآها فوقعت محبتها فى قلبه ، وأراد طلاقها من زوجها وأخفى ذلك كله ، مما لا يليق بمنصب النبوة وعصمة الرسالة ، وما لا يتفق مع خلقه العظيم ، وفضله الكبير ، وسمو نفسه ، وعلو أدبه وشرفه ﷺ ، والعجب أن يستسيغ ذلك مسلم ويقوله ، وكيف يقال إنه رآها فأعجبته ، وهى بنت عمته ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولم يكن النساء يحتجبن ، وما نزل الحجاب إلا بسببها فى قوله

تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) وهو ﷺ الذى زوجها لزيد رضي الله عنهما ، والآية الكريمة تدل على أن الذى أخفاه هو ماأوحاه الله إليه من زواجها بعد طلاقها من زيد ، لأن الله تعالى أبدى وأظهر ماأخفاه . ولم يبد ولم يظهر غير تزويجها منه وهو قوله : (زَوَّجْنَاكَهَا) فلو كان الذى أخفاه رسول الله ﷺ محبتها وإرادة طلاقها ، لكان ذلك هو الذى يظهره الله تعالى ، لأنه لايجوز أن يخبر جل جلاله ، أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره ، ولو أظهره لقال ماالله مبديه من حبك إياها ورغبتك فى تطليقها حين شاهدتها ، فكل ذلك لم يكن ، فما أخفاه هو ما أعلمه ربه من أنها ستكون زوجته ، ومع علمه قال : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وهو عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين رءوف رحيم ، فلو قال له طلقها لكان ذلك له وقعه فى قلب زيد رضى الله عنه ، وقد قال سيدنا على زين العابدين بن الامام الحسين رضى الله عنهما إن الذى أخفاه هو ما أوحى إليه من أن زيداً سيطلقها وستكون من أزواجه ؛ والقول ماقال السيد الكريم ، فليس بعد قوله قيل ولا قال . ثم شرع سبحانه وتعالى فى إتمام هذه القصة فقال جل شأنه (فَلَمَّا قَضَى) أتم (زَيْدٌ)وهو ابن حارثة رضى الله عنه (مِنْهَا) من زينب رضى الله عنه وعنها (وَطَراً) حاجة وأربا ولم يبق له هوى فيها ، ولا ميلا إليها ، ولم يجد بداً من طلاقها ، فطلقها راضياً مختارا من غير معرفة بما أعلم الله به نبيه ﷺ ، فلما طلقها وانقضت عدتها

« زوَّجْنَاكَهَا » بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ، خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، وتشريفا له ولها ، فعن أنس رضى الله عنه لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها على ، فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها ، قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، وقلت يازينب أبشرى ، أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت ماأنا بصانعة شيئاً ، حتى أؤمر ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ، ويقلن يارسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنى أخبرته أن القوم قد خرجوا ، أو أُخْبِرَ ، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به (لاَتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) الآية كلها . رواه مسلم والنسائى ، وكان تزوجه منها سنة ثلاث وقيل سنة خمس وهو الأرجح لأن سورة الأحزاب نزلت بالمدينة في هذه

السنة ، وكان هذا الزواج للتشريع كما سبق ، ولقوله تعالى (لِـكَيْلاَ يَكُونَ عَـلَى الْمُـؤْمِنِينَ حَرَجٌ) وإثم (فِي أَزْوَاجِ) فى التزوج من أزواج (أَدْعِيَائِهِمْ) الذين دعوهم لأنفسهم واتخذوهم أبناء يدعون بأسمائهم فيقال ابن فلان ، كما كان يقال زيد بن محمد حتى نزل (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ) فقالوا زيد بن حارثة ، وكانت العرب تعتقد حرمة زواج نساء من تبنوهم كحرمة نساء أبنائهم من أصلابهم ؛ فأخبرهم الله تعالى أن نساء الأدعياء حلال لهم (إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) وانقضت صلة الزواج بطلاقهن وانقضاء عدتهن بخلاف أزواج أبناء الصلب فانهن يحرمن على الآباء بمجرد العقد عليهن للأبناء ، وكل شيء تعلقت قدرة الله تعالى به لا بد أن يكون ويقع كما فى علمه فى الوقت المقدر له والأجل المحدد لظهوره كما قال تعالى « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ » تعالى وما يريد تكوينه من الأشياء التى منها ابطال التبنى ، ونسخ مايترتب عليه فى اعتقاد أهل الجاهلية من منع التزوج من أزواج الأدعياء ، وغير ذلك كان كل ذلك « مَفْعُولاً » له تعالى ونافذاً وحاصلا على مقتضى علمه ، وقضائه وقدره ، ولا بد من حصوله كما علم وأراد ، فالخشية من الناس أو أى اعتبار آخر لايمنع ظهور أمر الله ، ولا يقف دون حصوله ، ولا حرج ولا إثم على النبي صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ ما أمره الله به للتشريع وليكون سنة للمسلمين ، ومن ذلك تزويجه من زينب رضى الله عنها كما قال جل شأنه (مَا كَانَ » لم يكن « عَلَى النَّبِيِّ »

ﷺ (مِنْ حَرَجٍ) ولا عيب ولا ذنب ، كما قال أعداء الله ، إنه تزوج امرأة من تبناه ، وأنه يكثر من الزواج . فأما زواجه بها فهو بأمر ربه وقد كان للمصالح التى سبق ذكرها ، وأما الاكثار من الزواج فلم يجتمع فى عصمته غير تسع وقد مات عنهن ، وكان زواجه من كل واحدة لغرض شريف وقصد جميل ، هو الاستعانة بها وبقومها على إقامة دعائم الدين ، ونشر الدعوة الاسلامية ، وغيره من الأنبياء قد جمع فى عصمته أضعاف ما كان له ﷺ كداود وسليمان عليهما السلام ، ولم يتزوج بكراً إلا السيدة عائشة رضى الله عنها ، فليس على النبى المعصوم ﷺ (مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ) أن ينفذه ، ويبلغه للناس من طريق الفعل أو من طريق القول ، كالتزوج من أزواج الأدعياء ، والمنع من أن يدعى أحد لغير أبيه ، ولم يكن النبى ﷺ بدعا من الرسل . بل فعل ما فعله الرسل ، وسار على السنن الذى ساروا عليه وهو إبلاغ ما أمر بتبليغه بالفعل أو بالقول (سُنَّةَ اللهِ) تعالى سن الله عز وجل ذلك سنة (فِى) الأنبياء والأمم (الَّذِينَ خَلَوْا) ومضوا وقضوا حياتهم (مِنْ قَبْلُ) من قبل النبى صلى الله عليه وسلم وأمته وتلك السنة هى أن الله تعالى فرض عليهم أموراً فعلوها وبلغوها لأممهم غير ناظرين لما عليه تلك الأمم من العادات والحالات ، فانهم إنما جاءوا لتغيير هذه العادات ومحو تلك الحالات ، التى لا تعود عليهم بخير ولا فائدة بل فيها ضررهم وأذاهم . والنبى صلى الله عليه وسلم فيما فعل لم يخرج عن هذه السنة

وكل أمر يأمرون به فهو مقدور ومكتوب عند الله تعالى ، ولا بد من حصوله ووقوعه ، فلا اعتراض ، ولا محل للانتقاد على ما كان من زواج زينب رضى الله عنها بالنبي ﷺ ، لأنه لم يكن عن هوى فى نفسه ، وإنما كان لتنفيذ أمر ربه الذى فرضه عليه ، وألزمه به ، كما قال تعالى : (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ) تعالى (قَدَراً) قضاء ثابتاً فى علم الله أزلا (مَقْدُوراً) مقضياً حاصلا وواقعاً فى وقته ، وعلى وفق علمه عز وجل ، ولكن أمر الله بالنسبة للانبياء لا ينافى العصمة ، ولا يكون فى مكروه أو محرم ، لأنهم يبلغون رسالات ربهم كما قال جل شأنه : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ) لأممهم . ومنهم وأولهم وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ ، فهم جميعاً يبلغون (رِسَالاَتِ اللهِ) تعالى ، كما أمرهم ، وعلى وفق ما أرشدهم ، لا ينقصون منها شيئاً ، ولا يتركون منها أمراً ، ولا تأخذهم فى ذلك خشية أحد ، ولا رهبة جبار ، ولا يمنعهم منها لوم لائم ، ولو كانت على غير هوى من أرسلوا إليهم ، وعلى خلاف عاداتهم ورغباتهم ، معتمدين على ربهم (وَيَخْشَوْنَهُ) فى تبليغ رسالاتهم ، فيؤدونها على أكمل الوجوه ، وأتم الأحوال (وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً) فى القيام بالتبليغ وفى كل أمورهم (إِلا اللهَ) تعالى الذى اختارهم واصطفاهم وآواهم وأيدهم ونصرهم ، (وَكَفَى بِاللهِ) تعالى (حَسِيباً) عليما بكل شيء ، فهو ينصر ويجزى المحسنين من الأنبياء وغيرهم ، ويخذل ويعاقب المسيئين ممن

يعارضون الأنبياء ويقترفون الآثام، ولما تزوج النبي ﷺ زينب رضي الله عنها قال الناس: امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ) ﷺ (أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) فقد مات أبناؤه عليهم السلام وهم في سن الطفولة، وزيد ليس من أبنائه، وإنما هو ممن أحبهم وعطف عليهم لسابقيتهم في الاسلام، وتفانيهم في حبه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ﷺ أبا أحد من الرجال (وَلَكِنْ) كان (رَسُولَ اللهِ) إلى الخلق كافة (وَخَاتَمَ) بفتح التاء وكسرها، فهو ختام (النَّبِيِّينَ) لا نبي بعده ولا معه (وَكَانَ اللهُ) جل شأنه (بِكُلِّ شَيْءٍ) في الدنيا والآخرة (عَلِيماً) به، فلم يبق له ابناً يرث النبوة، وجعل شرعه فيه كفاية الخلق في معاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة؛ لأنه أراد أن يكون نبيه ﷺ خاتم الأنبياء فلا حاجة لنبي بعده، لاستيفاء شرعه لكل مافيه سعادة الخلق في دينهم ودنياهم، وفي صحابته وعلماء أمته مايغني عن إرسال رسول بعده ﷺ، وقد قاموا رضي الله عنهم بهذه المهمة خير قيام، ولا يزال في أمته ﷺ من المؤمنين به دعاة عاملون إلى يوم القيامة، وإن اختلفوا كثرة وقوة، باختلاف العصور، والخير في السابقين، والسابقون أولئك المقربون (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فنبينا ﷺ خاتم النبيين، وقد ادعى الرسالة

في زمنه وبعد زمنه دجالون كذابون ففشلوا وبان للناس أمرهم ، وهو ﷺ رسول إلى الخلق كافة كما قال الله تعالى (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) فهو ﷺ خاتم الأنبياء ، وصفى الأصفياء والرسول إلى أهل الأرض والسماء ، عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون . وعن عبد الرحمن بن جبير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودع فقال أنا النبي الأمى ثلاثاً ، ولا نبي بعدى ، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجوز بي ، وعرفت وعرفت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فاذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا حلاله وحرموا حرامه اهـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً * يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً .

لما بين الله تعالى فيما سبق صفات المؤمنين ختمها بقوله : (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ) ، ثم بين أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيرة من أمرهم متى أمر الله ورسوله أو نهى الله ورسوله ، وضرب مثلا لذلك هو حادثة السيدة زينب مع سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما وتزوجها من النبي صلى الله عليه وسلم بعد مفارقة زيد لها وانقضاء عدتها ، ثم شرع يأمر المؤمنين والمؤمنات بالذكر الكثير وتسبيح الله القدير فى كل وقت وعلى كل هيئة ، وأنه تعالى يجزيهم على كثرة ذكرهم بأنه يصلى عليهم هو وملائكته عليهم السلام ، وأنه أعد لهم أجراً كريماً عظيما ، وذلك ليحوزوا صفة الذاكرين الله كثيراً ، وليكونوا

ممن أسلموا أمرهم لله ورسوله فى كل شىء ، فهذه هى المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها ، فقال جل شأنه (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وصدقوا بقلوبهم بالله ورسوله وحازوا صفات المؤمنين (اذْكُرُوا اللَّهَ) تعالى بتضرع وخشوع وخشية وخضوع وتذكروا استحضار (ذِكْرًا كَثِيرًا) بألسنتكم وجوارحكم وقلوبكم فى الليل والنهار ، فى السر والعلن ، فى السفر والحضر ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، ذلك بأن القلب تتجاذبه طبائع الشهوة فى الانسان ؛ وتنتابه وساوس الشيطان، ويؤثر فيه العصيان ، وكثرة الذكر تجلو القلب ،وتطهر النفس فتطفىء الشهوات وتبعده عن ارتكاب السيئات ، ويكون كالملائكة ، روح طاهرة راضية زاكية ذاكرة شاكرة ، والله يذكر بأسمائه أو بالصلاة أو بالدعاء أو بتلاوة القرآن ، وأفضل الذكر ما كان عن استحضار وكان ليلا لقوله تعالى :(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً)وقوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) وقوله : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) وقوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً)وقوله: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقوله : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) وقوله : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) وكان

ﷺ يقوم من الليل وينام من الليل ، ولم يقم ليلة قط حتى أصبح ، ولم ينم ليلة قط حتى أصبح ، رفقاً بالمسلمين حتى لا يقوموا الليل كله اقتداء به ،وكثير من الصحابة والتابعين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه كانوا يقومون الليل كله، ومنهم من دام على ذلك ثلاثين سنة ، ومنهم من دام عليه أربعين سنة ، وصلى الصبح بوضوء العشاء ، كسعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، ووهب بن منبه وأبى عبد الله الخواص وغيرهم ، والأفضل أن يقوم بعض الليل وينام بعضه على قدر استطاعته وعلى شرط ألا يعوقه ذلك عن عمله بالنهار (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) ومما يدل على فضيلة الذكر ، وأنه باب الوصول ،وطريق الرضا والقبول ماورد فيه من الآيات والأحاديث قال تعالى :(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وقال: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) وقال : « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) وقال : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) وقال : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى بالليل والنهار ، في البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ؛ والسر والعلانية ، وقال تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ، بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ

الْغَافِلِين) وقال تعالى : (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر أن ذكر الله تعالى أعظم من كل عبادة سواه، ومن الاحاديث قوله ﷺ يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى ماذكرني وتحركت شفتاه بي ، وقوله ﷺ : من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل ، وقوله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرني فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه ، وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا مشى إلى هرولت إليه وقوله ﷺ سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : من جملتهم ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله وقوله ﷺ قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين . وقوله ﷺ ماجلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة . وذكرهم الله تعالى فيمن عنده . وقوله ﷺ مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات وقوله ﷺ: أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لاإله إلا الله وحده لاشريك له . وقوله ﷺ : من قال لاإله إلا الله مخلصاً دخل الجنة وسئل رسول الله ﷺ أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيرا

كل هذا وغيره مما ورد فى فضل الذكر والذاكرين إنما هو فى الذكر بخشية واستحضار وفهم المعنى، لا فى الذكر باللسان دون القلب، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وليس الذكر حرفة من الحرف، إنما هو عبادة من العبادات، لا تشغل الذاكر عن السعى لرزقه، والكد للحصول على عيشه، فما يفعله بعض الناس من الانقطاع للذكر بالليل والنوم بالنهار ثم يعيشون عالة على غيرهم. ليس من الدين وفاعله آثم متى كان قادراً على العمل، يستطيع الكسب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ)، ثم قال جل شأنه (وَسَبِّحُوهُ) وسبحوا الله تعالى وقدسوه ونزهوه عما لا يليق به (بُكْرَةً) أول النهار (وَأَصِيلاً) آخر النهار، والمراد كل أوقاتهم واختص طرفى النهار بالذكر ليبدأ عمله بذكر الله ويختمه بذكر الله ولأن هذين الوقتين من أوقات الانشغال بالدنيا والمراد بالتسبيح كل ما يشمل التنزيه من دعاء واستغفار وتوبة وقول سبحان الله، وكل ذلك داخل فى ذكر الله فى قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ) وإنما ذكره بعده ليبين فضل التسبيح والذكر فى هذين الوقتين أول النهار وآخره، أو المراد بالتسبيح الصلاة، والصلاة ذكر وأفردها لبيان فضلها وكمال شرفها، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتجعل الانسان ملكا طاهراً، وروى عن قتادة

رضى الله عنه فى قوله : (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) قال : صلاة الصبح وصلاة العصر ، ومما ورد فى ألفاظ التسبيح قوله ﷺ : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ؛ وقوله : أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقوله : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ولما أمر بالذكر والتسبيح ناسب أن يذكر جزاء الذاكرين المسبحين فقال جل شأنه : (هُوَ) الله (الَّذِى) بفضله وإحسانه (يُصَلِّى عَلَيْكُمْ) برحمكم ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة (وَمَلاَئِكَتُهُ) يصلون عليكم يستغفرون لكم ، فهى من الملائكة بمعنى الاستغفار ومن المؤمنين بمعنى الدعاء ، وهذه الصلاة من الله ومن الملائكة عليكم (لِيُخْرِجَكُمْ) الله بها (مِنَ الظُّلُمَاتِ) من من ظلمات الجهل ، أو من ظلمات المعاصى (إِلَى النُّورِ) نور العلم أو نور الطاعة والايمان وعمل الصالحات ، هذا بالنسبة لمن أذنبوا أما الذين تقدمت صفاتهم فى قوله إن المسلمين فالمعنى بالنسبة لهم ليديم إخراجكم من الظلمات إلى النور أى ليديم إيمانكم ويزيدكم نوراً على نوركم ، وسبب نزول آية (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ) إلخ ماروى عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما نزلت (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) قال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله ماأنزل الله عليك

خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت (هُوَ الَّذِي يصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

ثم بين سبحانه وتعالى مزيد فضله وإحسانه على عباده المؤمنين فقال جل شأنه (وَكَانَ) الله تعالى (بِالْمُؤْمِنِينَ) به وبرسله وملائكته وكتبه (رَحِيماً) فقد وفقهم فعملوا فأثابهم الله فى الدنيا بالصلاة عليهم منه ومن الملائكة، وفى الآخرة بجنات لهم فيها نعيم مقيم، ومقام كريم بينه بقوله : (تَحِيَّتُهُمْ) إلخ. وذلك منتهى الرحمة (تَحِيَّتُهُمْ) تحية المؤمنين بعضهم لبعض (يَوْمَ يَلْقَوْنَه) يوم القيامة يوم يلاقون ربهم فى الجنة (سَلَامٌ) تحية أهل الجنة السلام، وقيل تحيتهم معناه تحية الله تعالى لهم فى الجنة يوم يلقونه فيها سلام، فقد ورد أن الله تعالى يقول : السلام عليكم مرحبا بعبادى المؤمنين الذين أرضونى فى دار الدنيا باتباع أمرى، وقيل تحيتهم معناه الملائكة لهم يوم القيامة يوم يلقون ربهم فى الجنة سلام كما قال تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ثم بين بقية جزائهم يوم القيامة بأنه ليس دخول الجنة والتحية فقط بل (وَأَعَدَّ) الله تعالى لهؤلاء المؤمنين (أَجْراً) عظيما (كَرِيمًا) حسناً، ثوابا لهم على طاعتهم، وقد بين الله تعالى هذا الاجر الكريم فى آيات كثيرة كقوله (وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ) وقوله : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ،

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فهذا هو الأجر الكريم العظيم لمن أطاع ربه ، ولقيه بقلب سليم ، ولما أمرهم بالذكر الكثير ، وبين أنه أعد لهم الأجر الكريم حثهم على الاحتفاظ بذلك ليشهد لهم الرسول الكريم بأنهم أهل لجواره ودخول داره مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقال جل شأنه (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ) المختار (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) إلى الناس كافة عربا وعجما بيضا وحمرا وصفرا (شَاهِداً) تشهد عليهم بأنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، وتركت فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا كتاب الله تعالى وسنتك المباركة وأهل بيتك الطاهرين ، وصحابتك الأكرمين والعلماء المرشدين ، فمن اتبع واهتدى كان معك فى الجنة ؛ ومن خالف وعصى حرم ذلك الخير العظيم وأدخل الجحيم « وَمُبَشِّراً » وأرسلناك مبشرا للناس بالجنة لمن أطاع وعمل الصالحات « وَنَذِيراً » ينذر الكافرين والعاصين بالنار « وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ » تعالي تطالبهم بتوحيده وتقديسه وإفراده بالعبوديه وترك الاشراك بكل أنواعه ، وتطالبهم بطاعته وعبادته بما أمر به ونهى عنه فى كتابه الكريم وشرعه القويم الذى تبينه لهم وتدلهم عليه «بِإِذْنِهِ» متعلق بداعيا والمعنى تدعو إلى دين الله تعالى بتيسيره وتسهيله وتوفيقه وإعانته فقوله (بِإِذْنِهِ) يدل على ماصادفه الرسول ﷺ فى سبيل دعوته من عناد المبطلين ، ومقاومة المكذبين ، من قريش واليهود

وغيرهم (وَسِرَاجاً) تستضيء بك القلوب ، وتستنير بهديك النفوس وتشرق ببهاء الدين وجمال الخلق والخلق على قومك وغير قومك ، ثم وصف السراج بقوله : (مُنيراً) أى دائم النور والاشراق ، لأن من السرج ما يقل ضوءه ، لضعف مادته ، وصفة الاضاءة ، ملازمة له فى حياته وبعد وفاته ، لبقاء شرعه الكريم ودينه القويم ظاهراً إلى يوم الدين ولما كان قوله : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً) فى حكم الأمر ، فالمعنى كن مرسلا شاهداً إلخ عطف عليه قوله : (وَبَشِّر الْمُؤْمِنِينَ) الصادقين زيادة على أن بشرتهم بالجنة ، بشرهم (بِأَنَّ لَهُمْ) جزاء على طاعاتهم وصالح أعمالهم (مِنَ اللَّهِ) تعالى ، من عنده ، ومن نعمائه ، ومن حسناته (فَضْلاً) عطاء (كَبِيراً) جزيلا عظيما ينالونه يوم القيامة بعد دخولهم فى الجنة وهو كل ما يشاءون ويشتهون عند ربهم كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ، وعن الحسن قال : لما نزل قوله تعالى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) قالوا يارسول الله : قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا) ويحتمل أن هذا الفضل الكبير فى الدنيا والآخرة لا فى الآخرة فقط ، ويكون المراد به في الدنيا أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم أتباع

خير خلق الله ، وأنهم الأمة الوسط العدول الذين سيكونون يوم القيامة شهداء على الناس ويكون ﷺ عليهم شهيداً ، وأنهم أهل دين هو خير الأديان وختامها ، وفيه كل مايحتاج إليه الخلق فى معاشهم ومعادهم ، وأنهم الأمة التى رفع الله عنها الخسف والصيحة ، وما كان ينزل بالأمم السابقة تحقيقاً لوعده فى قوله : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ولما بين حاله ﷺ مع المؤمنين ناسب أن يبين حاله مع الكافرين فقال جل شأنه : ادع إلى الله وبشر المؤمنين (وَلَا تُطِعِ) ودم على هجر الكافرين ونبذ كلامهم ، ومخالفة أقوالهم وأعمالهم التى تنافى دينك ودعوتك (وَالْمُنَافِقِينَ) ولا تطع المنافقين إن أشاروا برأى ، أو أدلوا بمشورة . فانهم كالكافرين (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ) رغم أنوفهم ، وما يكيدون ، والنهى عن الشىء لا يقتضى أن المنهى قد فعله كقوله تعالى لنبيه ﷺ : (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فهو ﷺ لم يقع منه شك فى الحق الذى جاءه من ربه ، ولم يقع منه تكذيب ، ومحال أن يكون ذلك لأن الله عصمه وجعله نبيا مباركا ، وكان الكافرون والمنافقون يعرضون عليه أموراً يبغون بها أن يكونوا ممتازين ، ولهم منه نصيب فى

الحكم والأمر ، إلى غير ذلك من المقاصد التى قد يكون ظاهرها الخير وهى كل الشر ، فنهى الله تعالى نبيه عن أن يطيعهم فى شىء وهو لم يطعهم من قبل هذا النهى فى شىء ، (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ، (وَدَعْ) واترك (أَذَاهُمْ) ولا تحفل بما ينالك من الأذى بأيديهم وألسنتهم ومكرهم وكيدهم ، وسر فى طريق دعوتك غير مبال بما يؤذونك به ولو كان شديدا ، فإن النصر لك ، والظفر والنعمة لك (وَتَوَكَّلْ) فى كل أمورك وفى دعوتك (عَلَى اللَّهِ) تعالى وحده ولا تنظر إلى ماهم فيه من عز وجاه ، وعدد وعدة (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) فاعتمد فى كل شيء على الله (وَكَفَى بِاللَّهِ) تعالى (وَكِيلاً) تكل إليه أمورك وتعتمد عليه فى كل أحوالك (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وإذا كان الأذى يمس الدين ويضر المسلمين ، وجب ردهم وصدهم وقتالهم ، لقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، وهذه الآية تصف الرسول بما وصفته به التوراة فقد روى عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، قال والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولى سميتك

المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة ، ولـكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعيناً عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا اهـ

وقد ورد فى القرآن هذا الوصف وزيادة ، فقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فيهما كل صفات الجلال والـكمال ومعالى الأخلاق والخلال ، ويدل على أنه ﷺ أوتى مالم يؤت غيره من الأنبياء قوله تعالى (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعوة إلى الله ، وتبليغ شرعه الشريف معتمداً على الله ، غير مبال بأعداء الله ، شرع يبين بعض أحكام الدين فيما يتعلق بالمؤمنين والمؤمنات ، وبه ﷺ وأزواجه الطاهرات فقال جل شأنه (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وصدقوا الله تعالى ورسوله ﷺ (إِذَا نَـكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) إذا عقدتم عقد النـكاح على المؤمنات ، أو الـكتابيات (ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ) لعذر من الأعذار عقب العقد أو بعده بمدة قصرت أو طالت ، وكان هذا الطلاق (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) من قبل أن تجامعوهن (فَمَا لَـكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ) وهى أيام يتربصن فيها بأنفسهن (تَعْتَدُّونَهَا) تستوفون عددها ، وذلك لتظهر براءة الرحم بالعدة فلا يكون على الزوج حق ولا تبعة ، ولذلك أفهمت الآية أن

العدة من حق الرجال لأنها لصيانة مائهم والأنساب الراجعة اليهم ، وتخصيص المؤمنات فى قوله (نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن ينبغى له أن يتخير المؤمنات لزواجه ولا يتزوج إلا مؤمنة ، وإن حل له أن يتزوج الكتابية ، إلا أن المؤمنة خير له وأحق أن يقدمها على الكتابية لقوله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فما يفعله بعض الشبان المتعلمين من التزوج بالكتابية وهم يتعلمون فى بلاد الغرب غير الأفضل إلا إذا قصد بهذا الزواج العفة والصيانة من ارتكاب جريمة الزنى ، أما إذا أمن ذلك فالمؤمنة خير له في حياته وعيشته وذريته ودينه ، وقوله « إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » يفيد أن الطلاق لا يملك إلا بالعقد ، فمن قال كل امرأة أتزوجها طالق ، أو إذا تزوجت فلانة فهى طالق، لا يقع طلاقه لأنه لا يملك العصمة بغير العقد وهو قول الشافعى ؛ وقيل يقع وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر ومحمد ، لأنه علق الطلاق على العقد وقد وجد العقد فيقع الطلاق ويكون الوقوع بعد العقد ، فلا ينافى الآية ؛ وقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ » يفيد أن التى عقد عليها ولم يمسها لا عدة عليها إذا طلقها ولو خلا بها وهو قول الشافعى ، وقيل عليها العدة إذا خلا بها وهو قول أبى حنيفة وأحمد ، فالشافعى لا يوجب العدة إلا بالوطء ، وهما يوجبان العدة بالخلوة كأن يغلق عليها بابا أو يلقى دونهما ستراً ، فالخلوة كالوطء عندهما ، ويكون المس كناية

عن الخلوة التي تفضى إلى المس ، ثم قال « فَمَتِّعُوهُنَّ » فأعطوهن المتعة وهى ماتستتر به عند الخروج من الكسوة الظاهرة والباطنة التي تليق بمثلها من أهل بلدها ، وحكم المتعة أنها واجبة إذا تزوجها بغير صداق وطلقها قبل الدخول ، وليس لها إلا المتعة ،ومستحبة إذا فرض لها مهراً وطلقها قبل الدخول فلهانصف المهر ولاتجب المتعة ، والمتعة تعتبر بحال الزوجين ، فان كانا غنيين فلها الأعلى من الكسوة ، وإن كانا فقيرين فلها الأدنى ، وإن اختلفا فلها الأوسط ، وقيل فيمن طلقها قبل الدخول ولم يسم لها صداقا إن لها مثل نصف صداقها ولاتجب المتعة بل تكون مستحبة ثم قال . « وَسَرِّحُوهُنَّ » وأخرجوهن من منازلكم ، فانه لاعدة لكم عليهن « سَرَاحاً جَمِيلاً » مصحوبا باظهار العطف والرحمة من غير أن تؤذوهن بكلام أو غيره مما ينفر النفوس ويغير القلوب « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » والخير أبقى والاحسان باب الود « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ

يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً .

بعد أن بين الله تعالى الحكم الخاص بالطلاق بعد العقد وقبل الدخول فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) ناسب أن يذكر الأحكام الخاصة بزواجه ﷺ وأن الله تعالى اختصه بمزايا ليست لكل مؤمن فى زواجه ، لأن ذلك الزواج قد ترتب عليه كثير من الحكم التي دلت على أنه زواج قصد به وجه الله تعالى من تقوية شأن الدين ، وشوكة المسلمين ، وإظهار شعائر الاسلام ، ونشر تعاليم الشرع الشريف وصيانة شرف أزواجه الطاهرات ورفع درجاتهن وتشريفهن وتطهيرهن (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فقال جل شأنه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ) الخ والآية نزلت فى أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها ، فقد روى عن أبى صالح مولى أم هانىء قال : خطب رسول الله ﷺ أم هانىء بنت أبى طالب فقالت يارسول الله إني مؤتمة وبني صغار ، فلما أدرك بنوها عرضت عليه نفسها ، فقال أما الآن فلا ، إن الله تعالى أنزل على (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا

لَكَ أَزْوَاجَكَ) إلى قوله (هَاجَرْنَ مَعَكَ) ولم تكن من المهاجرات ، وعن أم هانىء بنت أبى طالب رضى الله عنها قالت خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ) إلى قوله (هَاجَرْنَ مَعَكَ) قالت فلم أكن أحل له لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء . وتفسير هذه الآيات سيكشف عن الحكم الباهرة ، والأسباب المعقولة ، فى اختصاصه ﷺ بما اختص به من زواج أكثر من أربع ، والجمع بين التسع اللائى توفى عنهن ، مماعده من المطاعن أولئك الجاهلون الضالون المكذبون ، وهو عين الحكمة ونفس الصواب لو كانوا يفقهون ، ولكن الله تعالى يقول (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه قد انتظمت الآية ضروب النكاح الذى أباحه الله تعالى لنبيه ﷺ ، وقوله حق وصدق وإليك البيان : قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) المصطفى والحبيب المجتبى ، والأمين على وحى السماء (إِنَّا) تشريعاً لك ولغيرك من أمتك التى تشرفت بك (أَحْلَلْنَا) وأبحنا (لَكَ) أن تتزوج (أَزْوَاجَكَ) اللاتى سيكن لك زوجات ، أبحنا لك أن تتزوج (اللَّاتِى آتَيْتَ) أعطيتهن (أُجُورَهُنَّ) مهورهن ، وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصف أوقية ، وذلك خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فانه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي فانه إصطفاها لنفسه من سبي خيبر

ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية كانت من سبايا بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت بن قيس ابن شماس فكاتبته على نفسها أن تعطيه مالاً وتعتق ، فأدى عنها النبي ﷺ كتابتها وتزوجها ، رضي الله عنهن أجمعين . فهذا هو الصنف الأول وهن اللاتي تزوجهن بمهر مسمى وأعطاهن فأولئك حل له ، ومثله ﷺ في ذلك غيره من أمته ، فمن أوفى شروط عقد النكاح وأعطى المهر حلت له من عقد عليها ، روى عن مجاهد في قوله : (أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) قال صدقاتهن ، والصنف الثاني ممن أحل الله تعالى دل عليه قوله « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » واللاتي يصرن إليك بملك اليمين « مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ » مما أصار الله تعالى إليك من الكفار بالسبي وغيره مثل مارية القبطية وريحانة وصفية وجويرية ، وكلهن أسلمن، فأما مارية وريحانة فبقيتا ملك يمينه ﷺ حتى ماتتا رضي الله عنهما . وأما صفية وجويرية فقد أعتقهما وتزوجهما ، وكن مما أفاء الله عليه من الغنيمة إلا مارية فقد أهديت إليه من المقوقس ملك مصر ولذلك يحل لغيره صلى الله عليه وآله وسلم من المؤمنين أن ينكح بملك اليمين من السبي .

والصنف الثالث مما أحل الله تعالى دل عليه بقوله « وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ » أفرد في العم وجمع في العمات للتنويع كما في قوله : « عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ » وقوله : « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »

وكذلك قوله : « وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ » والمعنى وأحللنا لك أن تتزوج بالمهر بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك « اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ » وخصهن بالذكر مع دخولهن فى اللاتى آتاهن أجورهن تشريفاً لهن بالهجرة ، وقوله آتيت أجورهن وقوله مما أفاء الله عليك ، وقوله اللاتى هاجرن معك ، لبيان الأفضلية وليست قيوداً تدل على تحريم غيرهن ، فيصح نكاح من لم يسم لها مهراً ولها مهر المثل ، ونكاح من ملكها بالشراء ، ونكاح غير المهاجرات غير أن الأفضل نكاح من سمى لها مهراً ، ومن ملكها بالحرب ، ومن كانت من المهاجرات ، والسيدة أم هانىء رضى الله عنها فهمت أن الهجرة شرط ولذلك قالت : فلم أكن أحل له لأنى لم أهاجر معه كنت من الطلقاء ، وهذه الأصناف تحل لغيره ﷺ من المؤمنين فللرجل أن يتزوج ابنة عمه وعمته وخاله وخالته متى استوفى شروط الزواج ، والصنف الرابع مما أحل الله تعالى وهو ما اختص الله به نبيه ﷺ وليس لكل مؤمن ، ما دل عليه بقوله « وَامْرَأَةً » وأحللنا لك امرأة « مُؤْمِنَةً » تريد التشرف بك « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ » ﷺ بغير صداق ، فيحل له زواجها بشرط أن يريد النبى ﷺ ذلك ويرضى به ، فالهبة وحدها لا تكفى ، ولذلك قال : « إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ » ﷺ « أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » أن يطلب زواجها ، فارادته زواجها جارية مجرى القبول ، ثم بين أن هذا الصنف خاص به ﷺ فقال « خَالِصَةً لَكَ »

قد خلص لك هذا الصنف خالصة أى خلوصاً ، وهو الزواج بلفظ الهبة من غير صداق ومن غير ولى ومن غير شهود ، خصصت به « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » فليس لمؤمن أن يتزوج بلفظ الهبة من غير مهر ولا ولي ولا شهود ، فهذه خصوصية له ﷺ دون سائر المؤمنين ، وقال الامام أبو حنيفة يصح الزواج بلفظ الهبة ، ولها ما سمى من المهر وإن لم يسم شيئاً فلها مهر المثل ، وقال الامام مالك الهبة لاتحل لأحد بعد النبي ﷺ ، وقال الامام الشافعى لايصح بلفظ الهبة ، وهو مذهب الامام أحمد ، وعن الامام مالك أنه قال ينعقد الزواج بلفظ الهبة إذا ذكر المهر ، وصريح الآية أنه خصوصية له ﷺ فلا يصح بلفظ الهبة لغيره عليه الصلاة والسلام ، فالله سبحانه وتعالى بين الأفضل فالأفضل فالزوجة التي أوتيت مهرها أطيب من التي لم تؤته ، والمملوكة من طريق السبي أطهر من التي اشتريت ، ومن هاجرت خير ممن لم تهاجر ، وآخر المراتب من وهبت نفسها ، ولذلك لم يتزوج النبي ﷺ واهبة نفسها وإن كانت تحل له ، أخرج ابن سعد عن ابن أبي عون أن ليلى بنت الحطيم ، وهبت نفسها للنبي ﷺ ، ووهبن نساء أنفسهن فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهن إحداهن ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ، وقد وهبت أم شريك بنت جابر نفسها للنبي ﷺ فطلقها قبل أن يدخل بها وكذلك خولة بنت حكيم فأرضاها وتزوجها عثمان بن مظعون باذنه عليه الصلاة والسلام ، وقيل إنه تزوج من الواهبة نفسها فقال الشعبي

وغيره هى زينب بنت خزيمة الأنصارية الهلالية أم المساكين رضى عنها وقد ماتت عند النبي ﷺ فى حياته ، وقال ابن شهاب وقتادة : ميمونة بنت الحارث هى التى وهبت نفسها للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) الآية والصحيح أنه تزوجها ولم تهب نفسها ، وقوله (مُؤْمِنَةً) يدل على أنه ﷺ لم يتزوج كافرة ، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) فان الكافرة لايجوز أن تكون أم المؤمنين ، وقد قال ﷺ سألت ربي ألا أزوج إلا من كان معى فى الجنة فأعطانى ، وأما التسرى بالكافرة فجائز وقد تسرى بريحانة بنت شمعون وكانت يهودية من سبي قريظة وقد أسلمت رضى الله عنها وكذلك مارية القبطية رضي الله عنها ومن خصائصه ﷺ أنه لم ينكح أمة ولو مسلمة ، لأن نكاحها لخوف العنت ، وهو ﷺ معصوم ، ولفقدان مهر الحرة ، ونكاحه ﷺ غنى عن المهر ابتداء وانتهاء ، ولئلا يكون ولده رقيقاً ، ومنصبه ﷺ منزه عن الرق ، وعبر بلفظ النبي فى قوله «لِلنَّبِيِّ» وقوله «إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ» للتعظيم وزيادة التكريم ، وإشارة إلى أن النبوة هى مناط ثبوت الحكم فكانت خصوصية ، كما يدل عليه قوله «خَالِصَةً لَكَ» والمراد ببنات عمه وبنات عماته بنات القرشيين وبنات القرشيات ، فانه يقال للقرشيين قربوا أو بعدوا أعمامه صلى الله عليه وسلم ، ويقال للقرشيات قربن أو بعدن عماته صلى الله عليه وسلم والمراد ببنات خاله وبنات

خالاته ، بنات بني زهرة ذكورهم وإناثهم واللاتي تزوجهن من القرشيات ست وهن : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ؛ ولم يتزوج من الزهريات أصلا ، والمراد باحلال أزواجهن مجرد الجواز وهو لا يستدعي الوقوع والحصول ، ثم شرع يؤكد أن مااختصه به ﷺ من الزيادة على الأربع ، ومن جواز الهبة له ، ليس لأحد من المسلمين أن يفعله ، فقال عز وجل (قَدْ عَلِمْنَا) وما علم الله لابد أن يكون علمنا (مَافَرَضْنَا) ومنحنا وألزمنا وأوجبنا (عَلَيْهِمْ) على المؤمنين (فِي أَزْوَاجِهِمْ) من الشروط والأحكام ، من منع الزيادة عن أربع واشتراط العدل في الزيادة عن الواحدة ، ومن لزوم العقد بولي ومهر وشهود ، مما لم نفرض عليك مثله تكرمة لك ، وتوسيعاً عليك علمنا مافرضنا عليهم في أزواجهم من الشروط (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) وما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من الاماء بشراء أو غيره مما يثبت ملك اليمين ، فرضنا عليهم أن تكون الأمة كتابية لا مجوسية ، وأن تكون ممن تحل لهم ، وأن ينكحوا ماشاءوا من العدد بملك اليمين ، فرضنا على المؤمنين ، وحددنا لهم في الزواج . ووسعنا عليك فيه « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ » أيها النبي الكريم « حَرَجٌ » وحظر ، فجعلنا لك ماجعلنا لهم واختصصناك بما اختصصناك به . لتكون في فسحة من الأمر . ذلك لأنك تملك إربك وتملك نفسك ، وتستطيع العدل والقسم بين أزواجك . وتنظر إلى مافيه رضا ربك .

وتستعين بهن على نشر دعوتك ، وبث دينك ، وتعاليمه القويمة ، أما غيرك من المؤمنين فلا يستطيع ذلك ، لذلك اختصصناك بما لم نبحه لغيرك ، وقوله لكيلا متعلق بقوله (فَرَضْنَا) أو بقوله (أَحْلَلْنَا)، قال أُبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في قوله : (قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ) أى من حصرهم فى أربع نسوة حرائر ، وما شاءوا من الاماء ، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم وهم الأمة ؛ وقد رخصنا لك فى ذلك فلم نوجب عليك شيئا منه لكيلا يكون عليك ا هـ . وقد علمت الحكمة من تخصيصه ﷺ بما لم يبحه الله لغيره ، وإذا كان الله تعالى قد أحل له ماأحل ، وخصه بماخص من الزواج فلا قيل ولا قال ، ولا لوم ولا اعتراض ، فليس بعد حكم الله قول لقائل ، وليس مع أمره إنكار لمنكر ، فما بالك إذا كان مع حكم الله تلك الحكم التي بينتها من نشر الدين وتعاليمه ، و تقوية الاسلام وإقامة دعائمه ، وصيانة أزواجه الطاهرات وتشريفهن به ﷺ ، مع قيامه بالحقوق الزوجية من العدل والقسم وحسن العشرة ، ولكن إذا عميت القلوب انطلقت الألسنة تتخبط على غير هدى (وَ كَانَ اللهُ) تعالى شأنه (غَفُوراً) كثير المغفرة ، يغفر مايعسر التحرز منه كأن يحدث المرء نفسه لم خص النبي ﷺ بأكثر من أربع ، ولم حل له مالم يحل لغيره ، إلى غير ذلك من الوساوس ، ويغفر ماسبق من الزواج على غير مافرض الله من نكاح الجاهلية (رَحِيماً) كثير الرحمة والرأفة ،

ومن رحمته أن بين لكم مافرض عليكم، وما خص به نبيه ﷺ، مما اقتضته الحكمة وفيه الخير لكم، وما انتشلكم به من أوساخ الجاهلية المهلكة، وعاداتها السيئة (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا.

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أصناف الأزواج التي تحل له ﷺ شرع يبين حكم معاشرته ﷺ لنسائه، وأنه تعالى أحل لنبيه ﷺ وجوه معاشرته لهن من غير إيجاب القسم بينهن وأنه يترك من شاء منهن ويؤوي إليه من شاء، لأنه ﷺ بالنسبة لأمته كالسيد المطاع فأزواجه إذا قضى أمراً فيهن كن له مطيعات، ومع هذا التخيير

المطلق أرضاهن جميعاً وفارق الدنيا فكدن يمتن لفراقه عليه الصلاة والسلام وسبب نزول هذه الآية (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ) ما روى عن مجاهد قال : كان للنبي ﷺ تسع نسوة نخشين أن يطلقهن فقلن يارسول الله : اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا فأنزل الله تعالى (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) إلى آخر الآية ؛ والارجاء التأخير ، والايواء الضم ، وترجى وتؤوى خبران بمعنى الأمر ،فالمراد أرجىء من شئت ، وعلى ذلك فالمعنى (تُرْجِي) تؤخر « مَنْ تَشَاءُ » أنت يا نبي الله (مِنْهُنَّ) من نسائك ، فلا تجتمع معها ، ولا تبيت عندها ، وتؤخرها عن نوبتها (وَتُؤْوِي) وتضم (إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) منهن فى نوبتها وغير نوبتها ، أو المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ) وطلبت إيواءها إليك (مِمَّنْ عَزَلْتَ) ممن أرجأت وأخرت وتركت أو طلقت طلاقا رجعياً (فَلَا جُنَاحَ) ولا حرج (عَلَيْكَ) فى شىء من ذلك كله ، وهذه قسمة جامعة لكل الوجوه ، لأنه إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ، وإذا أمسك قارب أو ترك ، وإذا قارب قسم أو لم يقسم ، وإذا طلق أو عزل ، فاما أن يترك من طلق أو عزل ؛ وإما أن يراجع أو يضم وهو المقصود بالابتغاء فى قوله : (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ) فهذا تفويض مطلق وتخيير تام فى أن يعاشرهن كيف شاء ، ومع هذا فقد سوى بينهن فى

القسم إلا سودة رضي الله عنها فانها وهبت نوبتها للسيدة عائشة رضى الله عنها وقالت لرسول الله ﷺ لا تطلقنى حتى أُحشر فى زمرة نسائك فهو ﷺ السيد المطاع المطبوع على مكارم الأخلاق ، شيمته العدل ، ودأبه القسطـاس المستقيم ، قال الزهرى : وما علمنا رسول الله ﷺ أرجأ منهن أحداً ، ولقد آواهن كلهن حتى مات ﷺ ، وقال قتادة : جعله الله فى حل أن يدع من شاء منهن ويؤوى إليه من شاء يعني قسما ، وكان رسول الله ﷺ قسم ، وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، قال أبو داود يعني القلب . وعن هشام بن عروة عن أبيه . قال قالت عائشة : يابن أختى كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم ، من مكثه عندها ، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً ، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس ، حتى يبلغ إلى التى هو يومها ، فيبيت عندها ، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت « وخافت » أن يفارقها رسول الله ﷺ يا رسول الله ، يومى لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها ، وروى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه فى مرضه أن يكون عند عائشة فأذن له ، وهذا يدل على أنه كان يقسم لجميعهن إلا سودة فانها رضيت أن تجعل يومها لعائشة ، وروى أنه كان صلى الله عليه وسلم يحمل فى ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن ، فلما ثقل عليه المرض استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة رضي الله عنها فأذنّ له ، فهو

صلى الله عليه وسلم مع التخيير المطلق والتفويض التام فى العشرة التى يراها مع أزواجه الطاهرات ، لم يترك القسم بينهن حتى فى مرضه إلى أن ثقل عليه المرض الذى توفى فيه ، وهذا نهاية العدل ، وإنه لأعظم مثل ضربه صلى الله عليه وسلم للرجال فى معاملة النساء وعشرة النساء وإنه لغاية مكارم الأخلاق ، ونهاية الخشية من الله العزيز الحكيم .

قال تعالى : (ذَلكَ) التفويض المطلق من كل قيد ، وهذا التخيير التام فيما تراه من عشرة نسائك ، وأنت تقيد نفسك حتى فى مرضك الأخير ، لعظيم خلقك ، وكمال عدلك ، وكريم طبعك ، ذلك التفويض « أَدْنَى » وأقرب إلى « أَنْ تَقَرَّ » بسببه « أَعْيُنُهُنَّ » ويكن مسرورات راضيات ، ولك سامعات مطيعات ، وبك متعلقات « وَلاَ يَحْزَنَّ » بسببك « وَ يَرْضَيْنَ » عنك « بِمَا » بسبب ما « آتَيْتَهُنَّ » من نفسك وعدلك وكرمك « كُلُّهُنَّ » توكيد لضمير النسوة فى يحزن ويرضين ، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك لأن الله تعالى أحل لك أن تسوى وألا تسوى ، وإن رجحت بعضهن وهو مالم يقع علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهن ، ثم عمم الخطاب للسيدات الطاهرات ولجميع المؤمنين والمؤمنات، فقال عزوجل « وَاللهُ » تعالى « يَعْلَمُ مَافِى قُلُوبِكُمْ » أيتها السيدات الطاهرات ويأيها المؤمنون والمؤمنات ، فاذا رأيتم أن النبي ﷺ اختص بشىء أو أتى شيئاً ، أو جعل له شيء فاعلموا أنه من ربه وأنه أوحى إليه ، وأنه

لا يزد ولا يصدر إلا عن وحى ، وأنه لحكمة أرادها الله العليم الحكيم وأنه ﷺ أكمل الأنبياء جميعا لكمال بشريته ، وكمال روحيته ، ومن آثار الكمال الاول تزوج مافوق الأربع وإحصانهن به ، وإيثارهن إياه على كل من سواه ، وما سواه ، إلا الله . ومن آثار الكمال الثانى ذلك الكمال الروحى الملائكى أنه كان كثيرا مايبيت ويصبح ولا يأكل ولا يشرب وهو فى غاية من القوة والنشاط ، وأن قلبه فى صحو دائم تنام عيناه ولا ينام قلبه : وأنه أشجع الناس وأجود الناس. وأوتى من العلم مالم يؤت غيره كما قال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » إلى غير ذلك مما لم يكن لغيره من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام فلا تحدثوا أنفسكم بما يحبط أعمالكم فى شأنه صلى الله عليه وسلم « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ولا تكونوا كالذين كفروا واعترضوا وطعنوا فى مقام النبوة بكثرة تزوجه صلى الله عليه وسلم . وزعموا أن هذا لغلبة الشهوة . وأنه من نفسه صلى الله عليه وسلم وليس من الله سبحانه وتعالى الذى أنزل عليه آية « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ » وآية « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فمن هذا ومما تقدم تعلم بطلان دعواهم ثم قال جل شأنه (وَكَانَ اللهُ) جلت قدرته (عَلِيماً) بكل شيء ظاهر أو خفى . لا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء وهو عليم

بذات الصدور ، يعلم ماتسرون وما تعلنون . فاياكم وما حاك بالصدر وإياكم وما تحدثون به أنفسكم . من الخواطر السيئة والآراء الخاطئة وهو عليم بما يناسب نبيه ﷺ وما يناسب غيره من المؤمنين فاذا خص نبيه بشيء فلحكمة يعلمها ولأن نبيه صلى الله عليه وسلم أوتى مالم يؤته غيره من ضبط النفس . وقوة الارادة . والصبر والاناةوغير ذلك من الطباع الكريمة والخلال الشريفة فيبيح لنبيه مالا يبيح لغيره من المؤمنين . وكان الله تعالى مع علمه التام (حَلِيماً) كثير الحلم على عباده . فلا يعجل العقوبة ليكون هناك مجال يجده المؤمنون المذنبون للتوبة مما كان منهم ومن ذلك أن يقولوا أى قول لا يليق بمقامه العظيم عليه الصلاة وأتم التسليم .

ولما فوض الله تعالي نبيه صلى الله عليه وسلم هذا التفويض المطلق فى عشرة نسائه ورضين بما رضيه الله ورسوله واخترن الله ورسوله والدار الآخرة علي الدنيا وزينتها . أكرمهن الله تعالى بقصر نبيه صلى الله عليه وسلم عليهن وألا يتزوج غيرهن فقال تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) . روى عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر ليستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فدخل ، فوجد النبى ﷺ جالساً واجماً ساكتاً وحوله نساؤه ، قال عمر : فقلت والله لأقولن شيئاً أضحك به النبى ﷺ ، فقلت يارسول الله : لورأيت بنت خارجة سألتنى النفقة (وفى رواية لو رأيت ابنة زيد وهى امرأة

عمر سألتنى النفقة) فقمت إليهـا فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ ، وقال هن حولى كما ترى ، يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجـأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده !! فنهاهما رسول الله ﷺ عن هـذا فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هـذا المجلس ماليس عنده ، وأنزل الله آية الخيار (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) قال فبدأ بعائشة فقال ياعائشة : إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وماهو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، فقالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسـوله والدار الآخرة ، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ماقالت عائشة رضى الله عنهن ، ولما اخترن ذلك أنزل الله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) ، فعن أنس رضى الله عنه قال : لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ) لا يحل لك زواج النساء (مِنْ بَعْدُ) من بعد هؤلاء التسع ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه ، وعن عكرمة قال : لما خير رسول الله ﷺ أزواجه اخترن الله ورسوله فأنزل الله

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) من بعدهؤلاء التسع التي اخترنك ، فقد حرم عليك تزويج غيرهن اه . فلو ماتت واحدة لا يحل له زواج أخرى فقصره الله عليهن تكرمة وجزاء لهن على اختيارهن الله ورسوله ، وهن التسع اللاتي توفى عنهن : عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وصفية بنت حيي بن أحطب الخيبرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضي الله عنهن ، ثم بين أنه لا يحل له أن يبدل بهن غيرهن فقال عز وجل (وَلَا) يحل لك (أَنْ تَبَدَّلَ) أن تتبدل وتستبدل (بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) بأن تطلقهن أو بعضهن وتتزوج بدل من طلقت ، فعن عبد الله بن شداد رضي الله عنه في قوله (وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال ذلك لو طلقهن لم يحل له أن يستبدل ، وكان الاستبدال في الجاهلية أن يتنازل الرجل عن امرأته للآخر ويأخذ امرأة هذا الآخر وشيئاً من المال زيادة عليها تلقاء هذا التنازل ؛ فعن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله (وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال كانوا في الجاهلية يقول الرجل للرجل الآخر وله امرأة جميلة : تبادل امرأتي بامرأتك وأزيدك ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي ، فأنزل الله (وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ

أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) قال فدخل عيينة ابن حصن الفزارى على النبي ﷺ وعنده عائشة بلا إذن ، فقال رسول الله ﷺ أين الاستئذان قال يارسول الله مااستأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت ، ثم قال من هذه الحميراء إلى جنبك ، فقال رسول الله ﷺ هذه عائشة أم المؤمنين ، قال أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال ياعيينة إن الله حرم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة رضي الله عنها : من هذا ، قال الرسول ﷺ هذا أحمق مطاع ، وإنه على ماترين لسيد فى قومه، لايحل لك أن تستبدل بهن أزواجا أخريات (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ)حسن هذه الأخريات اللاتى تأتى بهن بدلا ، فالآية تدل على تحريم سائر النساء على النبي ﷺ سوى من كن زوجات له وقت نزولها ، وقد توفى ﷺ عن هؤلاء التسع رضى الله عنهن فلم يتزوج غيرهن ولم يطلق منهن ، ثم بين أن هذا الحكم فى الحرائر أما الاماء فلك أن تأخذ وأن تترك منهن كما تشاء فقال جل شأنه (إِلاَّ مَامَلَكَتْ يَمِينُكَ) إلا الاماء ؛ فلك أن تبقى من تشاء منهن وأن تترك من تشاء ، وهذا الملك باليمين من طريق الفيء أو من طريق الشراء ، مسلمة كانت أم كتابية أم مشركة ، ولكنه ﷺ لم يكن له علك اليمين إلا مارية القبطية وريحانة وقد أسلمتا رضى الله عنهما(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً) حفيظاً ومطلعاً على كل شيء ، فهو يعلم الحكمة والثمرة فى هذا الحظر عليك أكثر من غيرك من المؤمنين فى هذه المسألة ، فقد أباح لهم الطلاق والاستبدال ، وأما أنت

فلا يحل لك هذا تكريما لأمهات المؤمنين، ولأنهن فيهن الكفاية لارشاد المسلمين إلى ماعرفنه عنك من قواعد الدين، ولتكون أنت يارسول الله خالصا لله، فلا يشغلك عنه شاغل، فانه مابقى لك من عمرك إلا القليل، والمؤمنون فى حاجة شديدة إليك تؤدبهم وتربيهم وتعلمهم وتزكيهم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

عرفت مما سبق أصناف الأزواج اللاتى أحلهن الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن آمن به واللاتى اختص بهن عليه الصلاة والسلام، وأن جمعه لأكثر من أربع إنما هو بوحي، وليس من تلقاء نفسه، لقوله: (إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ) وقوله: (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) وعرفت أن الله تعالى قصره على السيدات التسع اللاتى توفى عنهن، فلم يكن له أن يتزوج غيرهن ولو طلق، مما يقطع بأن الأمر من ربه، ويجزم بعصمته وثبوت نبوته، وأنه لا يأتى إلا عن وحى، ولا يترك إلا عن وحي (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) والآن أبين لك ما كان من فضل الاسلام على النساء، وما أعطاهن من حرية وحقوق، وما مَنَّ به عليهن من رعاية وصيانة، وأن من هذه الحقوق، وتلك المنن، تعدد الزوجات، فهو فضل عليهن، وخير لهن، وما كان الله ليشرع لهن أو لغيرهن، إلا ما هو خير ونعمة، وفيه كل الحكمة، وهو العليم الخبير؛ ثم أتكلم بعد ذلك على سيداتنا الطاهرات الكاملات أمهات المؤمنين، خير نساء العالمين، وأبين الحكمة فى زواجه ﷺ

بهن وجمعه بين تسع منهن رضي الله عنهن ، قطعاً لألسنة المجرمين ، وبياناً للكمال المطلق الذى ناله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام .

ما كانت عليه المرأة قبل الاسلام وبعده

كانت النساء قبل الاسلام مهانات محقرات ، مستعبدات مسخرات مملوكات غير مالكات ، حتى عند أهل الكتاب والديانات ، فلما أشرق نور الاسلام ، وبزغت شمس رسالته عليه الصلاة والسلام ، انتشلن من هذا الرق الأليم ، وحصلن على ذلك الفضل العظيم قال تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) وقال : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) وقال : (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وقال ﷺ : « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » وقال ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله » وقال صلى الله عليه وسلم فى آخر حجة وهى حجة الوداع : « اتقوا الله فى النساء » وإنى ذاكر لك شيئاً مما كانت تعانيه المرأة قبل الاسلام فجاء الاسلام وحررها منه .

١ — كانت تعامل معاملة المال فتورث رغم أنفها كما يورث هذا المال الجامد ، وكما يورث ذلك الحيوان الاعجم ، فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ

كَرْهاً) فكان الرجل فى الجاهلية إذا مات عن زوجته ، جاء ابنه من غيرها ، أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على هذه المرأة المسكينة المستعبدة وقال ورثت امرأته كما ورثت ماله ، فيصير أحق بها من نفسها ، ومن كل الناس ، فان شاء تزوجها من غير صداق جديد ، وإن شاء زوجها من إنسان آخر وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً رضيت بهذا الزواج أم لم ترض ، فنزلت هذه الآية محررة للمرأة من هذا العدوان الاثيم ، وذلك الطغيان الكبير .

٢ — كانت المرأة فى الجاهلية تنكح نكاح المقت ونكاح الفاحشة مما يدل على الاغراق فى الوحشية والهمجية ، فطهرها الله تعالى منهما رحمة منه وفضلا ، فأما نكاح المقت فكان الولد إذا مات أبوه عن زوجة غير أمه ينكح زوجة أبيه من بعد موته فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : (وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) روى أنه لما توفى أبوقيس وكان من صالحى الانصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إنى اتخذتك ولداً وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأمره ، فأتته فأخبرته فأنزل الله عز وجل (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) وأما نكاح الفاحشة فكان الرجل يجمع بين الأختين ، فنهى الله عن ذلك بقوله : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

٣ — كانت تعامل معاملة العبيد فتحبس وتهان حتى تفتدى نفسها بالمال ، فنهى الله عن ذلك بقوله : (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) فكان الرجل إذا كره زوجته وأراد فراقها يسىء عشرتها ، ويضيق عليها ، ويضارها بالحبس والايذاء ، حتى تفتدى نفسها منه بالمال فيطلقها ، أو يفعل ذلك بعد الطلاق فيحبسها عن الزواج ويضارها حتى تفتدى نفسها منه بالمال فيطلق سراحها لتتزوج من غيره ، فنزلت الآية ناهية عن هذا العمل الشنيع ، وذلك الأذى الشديد .

٤ — كان أولياء الأمور فى الجاهلية يأخذون مهور النساء ، ولا يعطوهن شيئاً ، ظلماً وعدواناً ، فنهى الله عن ذلك بقوله : (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) أى أعطوهن مهورهن إعطاء حتما فريضة لهن من الله تعالى ، ولا تأخذوا منه شيئاً إلا عن طيب نفس منهن (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

٥ — كان الرجل فى الجاهلية يتزوج بأكثر من أربع يجمع بينهن فحرم الله الزيادة عن الأربع بقوله : (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) فجعل للرجل التزوج بأربع متى تحقق العدل في الجمع بينهن ، وإن خاف ألا يعدل فلا يتزوج إلا واحدة ، وقد روى أن غيلان ابن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبي ﷺ : أمسك أربعاً وفارق سائرهن

وأن قيس بن الحارث الأسدى أسلم وعنده ثمانى نسوة فأمره النبى ﷺ أن يمسك أربعاً ويفارق باقيهن ، وأن نوفلا بن معاوية الديلمى أسلم وفى عصمته خمس نسوة فقال له النبى ﷺ أمسك أربعا وفارق واحدة

٦ — كانت المرأة تحرم من الميراث فجعل الله تعالى لها نصيبا مفروضا فقال عز وجل : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) فكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون إنما يرث من يحمى الذمار ، ويدافع عن الجار ، ويصد الكتيبة ، ويحوز الغنيمة

٧ — كانوا يحسبون المرأة شيطانة وليست إنسانة ، وعلى ذلك يمقتونها ويحتقرونها ويعاملونها معاملة العدو اللدود فحررها القرآن الكريم من ذلك بقوله (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً) وقال عز وجل : (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) وقال جل شأنه (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) وقال كلمت حكمته : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

٨ — كانت المرأة تكره على الزواج ممن لا تحب ، كما كانت

تكره على البغاء ، فحرم الاسلام ذلك ، وجعل للمرأة الخيار فى التزوج ممن تحب ، ومنع من إكراهها على البغاء . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن) فقالوا يارسول الله فكيف إذنها؟ قال : أن تسكت ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جارية بكراً أتت النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يكرهون المرأة على البغاء ويأخذون الأجر على ذلك فحرم الله ذلك بقوله : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وقد نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أُبى بن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما ، وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون إماءهم ، فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذى نحن فيه لايخلو من وجهين ، فان يك خيرا ، فقد استكثرنا منه ، وإن يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية . وقوله إن أردن تحصنا ، ليس شرطاً بل لبيان أنهما أرادتا ذلك كما يؤخذ من سبب النزول ، فالاكراه على البغاء محرم وإن لم يردن التحصين ، فالمعنى إن أردن أم لم يردن فالاكراه على البغاء حرام مطلقا .

٩ — كانوا لايعدون المرأة أهلا للاشتراك فى المعابد الدينية ،

والمنتديات الأهلية ، والمجتمعات الأدبية والسياسية ، وأن الجنة خاصة بالرجال دون النساء ، فنزل القرآن باعطائها هذه الحقوق ، قال تعالى :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فجعل لهن الصلاة فى المسجد على انفصال ،وأباح لهن الحج،وشهود الجمعة والجماعة، مع الصيانة التامةواتباع الدين الحنيف فى ذلك، وكثيرات من المسلمات شهدن الغزو مع رسول الله ﷺ ، فكن يهيئن الطعام والشراب للمقاتلين ، ويداوين الجرحى ، ويقمن بالتمريض ، وكثيرا ماقمن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحاججن فى الدين ، روى سعيد بن منصور أبو يعلى بسند جيد عن مسروق أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعمائة درهم ، ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش ، فقالت : أما سمعت الله يقول : (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا) فقال : اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر وقال : إني نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن

على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب ، وكثير منهن قاتلن الكافرين فى صفوف المسلمين فى مبدإ الاسلام فى حروب مسيلمة الكذاب وحروب الفرس والروم ، وفي واقعة اليرموك بدت الهزيمة فى صفوف المسلمين فعقد النساء خمرهن رايات ورفعن عمد الخيام ، وسرن كمدد للمسلمين فأوقعن الرعب فى قلوب الكافرين وكان النصر بسببهن .

١٩ — كانوا يعدون البنات بدفنهن وهن على قيد الحياة فيقتلونهن قتلا شنيعاً ، خشية العار والاسترقاق والاملاق ، فحرم الله ذلك بقوله (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) وقوله : (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) وقوله : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة فتمخضت على رأس الحفيرة ، فان ولدت جارية رمت بها فى الحفيرة ، وإذا ولدت غلاما حبسته ، ويروى أن الرجل كان يأخذ بنته إذا شبت وقد زينها وجملها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيجيء بها إلى هذا البئر فيقول لها انظرى فيها فاذا نظرت جاء من خلفها ودفعها فتقع فى البئر ويهيل عليها التراب حتى يستوى بالأرض

وقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقا أخرى . فقد جعل الله الجهاد والقتال على الرجال دون النساء مالم ينزل بالمسلمين الضرر فيجب عليهن

أن يدافعن مع المدافعين ، وجعل صلاة الجمعة والعيدين على الرجال دون النساء لئلا يشغلن عن أولادهن ومنازلهن ، وجعل النفقة الزوجية على الرجال دون النساء لاشتغال الرجال بالكسب ، واشتغال النساء بتدبير المنازل ، وجعل نفقة أولادهن على الآباء دونهن لأن الرجال يعملون للكسب وهن يعملن لاقامة البيوت ، وجعل نفقة البنت على أبيها أو من تلزمه نفقتها عند عجز الأب أو موته مادامت غير متزوجة ، لأن الكسب ليس من شأنها ، وأباح الله تعالى تعدد الزوجات حتى يجد النساء من يحصنهن ويحميهن وينفق عليهن ، والنساء أكثر عددا من الرجال ، فلو قصر الرجال على واحدة لبقى عدد عظيم بلا زواج وفى ذلك مافيه من الضرر بهن وبأمتهن ، وأباح الله الطلاق فى حدود الشرع حتى لا يكون فى بقائهن من غير طلاق على كره فى العشرة وعلى مضض من الحياة مضار لاتحتمل ، وأوجب على الرجال صيانتهن وعشرتهن بالمعروف والعدل بينهن إن تعددن أو كانت واحدة

وجعل للرجال القوامة على النساء ، فقال عز وجل : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) للأسباب الآتية :

١ — لأن الرجل أكمل عقلا ، وأوسع حيلة ، وأكثر صبراً ، وأقوى جسما من المرأة

٢ — لأن الرجل مهيأ للحياة والعمل والمكافحة وتحمل المشاق

والمرأة دونه في كل ذلك ، لأنها مشغولة متعطلة أكثر وقتها بالحيض والنفاس ، والحمل والوضع والرضاع والفطام والتربية وتدبير البيت فهى محتاجة إلى الرجل ، ولا تؤدى وظيفتها بغيره ، لذلك جعله الله العليم الحكيم قيما عليها

٣ — لأن الرجل مطالب باعطاء المهر والقيام بالنفقة والكسوة والسعى عليها وعلى أولادها ، لذلك جعل الله له الولاية على من ينفق عليهن .

٤ — لأن الرجل اختص بأعباء كثيرة لا تستطيعها المرأة ، كالنبوة والرسالة والخلافة ، والامامة والقضاء بين الناس ، والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة والجمعة والخطبة والسفر وحده والجهاد والشهادة فى الحدود والقصاص ، خصه الله تعالى بذلك كله دون المرأة ، فكانت له القوامة عليها

٥ — جعل الله تعالى للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع عند ضمان العدل دون المرأة لقوة شكيمة الرجل واحتماله وصبره وثباته ، وسرعة انخداع المرأة وميلها وقرب تأثرها ، وجزعها وضعفها وعجزها وقلة حيلتها ، وكثرة تقلبها ، ولأن ماء الرجل فى أربع ينتج ويأتين بأولاد معروف أبوهم ، وأما مياه الرجال فى واحدة يفسد بعضه بعضا فلا تلد ، وإن ولدت فلا يعرف له أب وفى ذلك مافيه من فساد نظام الحياة فى الأمة ، وما يترتب عليه من الأمراض ، لذلك قدم الله تعالى الرجل على المرأة وجعل له القوامة دونها

٦ — قد جعل الله للرجل ضعف نصيب المرأة فى الميراث ، قال (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) لما يقوم به الرجل من الحقوق والواجبات الداخلية والخارجية منزلية وغير منزلية لهولأهله ولوطنه فهو المكاف بالدفاع وحماية النفس والمال والانفاق والسعى وما إلى ذلك ، والمرأة عبؤها على الرجل ، وتصرفاتها قد تكون سيئة فاذا ساوت الرجل فقد تذهب بمال الأسرة إلى أجنبي عنها وهو زوجها هذا هو الغالب وإن كان في الرجال سيئو التصرف وفى النساء محسنات التصرف ، وفى الرجال الكسالى وفى النساء العاملات ، إلا أن الشرع الحكيم يراعى الغالب وما فيه المصلحة العامة ، لذلك كان للرجل القوامة على المرأة .

٧ — جعل الله تعالى شهادة المرأة نصف شهادة الرجال ، قال جل شأنه : (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) لأن المرأة سريعة الانقياد ، سريعة التأثر ، تنخدع بزخرف القول ، وتلين للحن الكلام ، وتميل مع الأهواء ، فجعل الله تعالى شهادتها نصف شهادة الرجل خشية أن تضل لسبب من الأسباب ، فتذكرها أختها التي تشهد معها ، مما يدل على أن القوامة ، إنما تكون للرجل لا للمرأة .

٨ — المرأة لا تسافر بغير محرم لها بخلاف الرجل ، قال ﷺ لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم » ذلك

لضعف المرأة والخوف عليها من الوقوع فى حبائل الشياطين من الانس

٩ — لا يختلى بالمرأة بخلاف الرجل، قال ﷺ : لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم، وقال عليه الصلاة والسلام لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، ذلك لسرعة ميلها وانخداعها وتأثرها فهى محتاجة إلى الزوج يحميها، والزوج يحمى نفسه وزوجه، فجعل الله له القوامة عليها

١٠ — جعل الله الرجل أمينا على المرأة وأوصاه بها خيرا، قال ﷺ « اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله » وقال عليه الصلاة والسلام « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى » وقد خلق الله المرأة من الرجل فالرجل أصل والمرأة فرع قال تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً) وقال عز وجل (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) وقال ﷺ « كلكم لآدم وآدم من تراب » لهذا كله كان للرجل القوامة على المرأة

وهذا هو العدل والحكمة وما يكون به نظام الحياة فى الأسرة والوطن، ولا يوجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم منذ خلق الله الخلق أعطى النساء من الحقوق والعناية والكرامة والحفظ والصيانة ما أعطاهن الاسلام ونبى الاسلام عليه الصلاة والسلام.

قد فسرت الآيات وتكلمت على ما كان للمرأة قبل الاسلام وبعده وعلي حقوق الرجال ، وسأتكلم على مشروعية تعدد الزوجات وترجمة كل سيدة من الأزواج الطاهرات ، فأقول وبالله أستعين :

مشروعية تعدد الزوجات

أباح الدين الاسلامى دين العقل والحكمة تعدد الزوجات وإنه لنعمة للرجال والنساء متى كان فى حدود الشرع ، وروعيت فيه العدالة وأمن معه الميل والجور ، والخروج علي ما قرره الشرع الشريف ، وإنه لنقمة وأى نقمة علي الرجل والمرأة إن كان لقضاء الشهوة ولم تراع فيه الحقوق ، وصحبه الظلم والجور ، ورافقه الاجحاف والميل ، وهكذا كل شيء قرره الشرع ، وشرعه الله وأمر به يكون خيراً ورحمة إن أتى به العبد علي وفق ما أمر الله ، ويكون نقمة وشراً إن خالف فيه أمر الله وأباح الشرع تعدد الزوجات لأسباب منها :

١ — لايجاد صلة النسب بين الرجل وأهل نسائه ، وأهله وأهلهن مما يقوى العصبية ويكون سبباً فى كثرة الأنصار والأعوان والقوة والسلطان .

٢ — لكثرة النساء على الرجال ولا سيما عقب الحروب أو الجوائح التى تجتاح الرجال دون النساء ، وترى للرجل ولداً واحداً وبنات كثيرات ، أو ترى له البنات ولا أولاد له ، فأبيح للرجل التعدد رحمة بهؤلاء النساء وصيانة لهن .

٣ - لأن المرأة تبلغ سن اليأس متى بلغت الخمسين فلا تلد، فلو قصر الرجل على واحدة لبقى مدة غير قصيرة من عمره من غير نسل يفيده ويفيد المسلمين، والغرض الهام من الزواج هو النسل. قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة»

٤ - لأن المرأة أغلب عمرها ضائع فى الحيض والحمل والنفاس والرضاع، وقد يكون الرجل شهوانياً فاما أن يقربها فى حيضها أو نفاسها فيضر نفسه، أو يزنى فيغضب ربه ويضر نفسه وغيره، فأبيح التعدد للخلاص من مثل هذه الحال، ولتكون هناك فائدة وثمرة من غشيان الرجل امرأته وهى النسل، فان الحامل والمرضع والحائض والنفساء لا فائدة من غشيانها إلا قضاء الشهوة الذى ضرره محقق مع الحائض والنفساء (وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ).

٥ - لأن المرأة قد تكون عاقراً لا تلد، أو مصابة بمرض مزمن أو بمرض معد، أو بجنون أو غير ذلك مما لا تستقيم معه الحياة الزوجية فمن الظلم قصر الرجل عليها فى هذه الحال، أو تكليفه أن يفارقها ولا عائل لها غيره، فأبيح التعدد للخروج من هذا المأزق.

٦ - أباح الله التعدد للقضاء على تلك العادة الخبيثة عادة الزنى التي أصبحت مضارها واضحة ظاهرة يعرفها الصغير والكبير. ويئن من ويلاتها الحاكم والمحكوم، وقد ضج من أدوائها الغربيون لمنعهم من تعدد الزوجات، ومن العجب أنهم يبيحون اختلاط النساء بالرجال ويحرمون التعدد، فكان من هذا الاختلاط وذلك التحريم مصائب

اجتماعية ومنزلية وشخصية أذهلتهم وحيرتهم، فكتب كتابهم يعلنون أن إباحة التعدد هى الدواء للخلاص من هذا البلاء، وتلك الازدراء.

٧ — من النـاس من آتاه الله بسطة فى الجسم وسعة فى المـال، فأباح الله التعدد لتنتفع الأمة بمثل هذا فى نسله، فانه إذا تزوج أربعاً أتى منهن بأولاد يستطيع الانفاق عليهم وتربيتهم أحسن تربية،فلو منع التعدد لحرمت الأمة من مثل هذه الثمرة الطيبة، ولـكان هذا وأمثاله شراً على الأمة بدل أن يكونوا خيراً لها لأنهم فى سعة من المال والقوة فلا بد أن يقضوا شهواتهم، فلأن يقضوها فى الحلال وفى فائدة الأمة خير وأولى من قضائها فى الحرام وفى الاضرار بالأمة والله حكيم عليم

٨ — إذا كان الرجل فى سعة من المال والقوة وله امرأتان فأكثر وله منهن أولاد حرص على ماله وسعى فى الـكسب وعمل لحفظ كيان بيته أو بيوته، أما إذا كانت له امرأة واحدة وبيت واحد فلا يهتم هذا الاهتمام فتخسر الأمة سعيه وعمله وقد تخسره لـكسله وعربدته؛

وإن تحريم تعدد الزوجات عاد على من حرموه فى بلادهم بمضار كثيرة منها ماسبق ومنها: —

(١) أنه يجعل الحياة الزوجية حياة أسر وحبس واستعباد لـكل من الزوج والزوجة إذا كان بينهما وفاق وفى المرأة أو الرجل مايمنـع من التمتع بها أو به، أو أن أحدهما لا يصلح للنسل فيضطر أو تضطر إلى الزنى الذى فشت منه أمراض خبيثة فى تلك البلاد حار فيها الطب على تقدمه وارتقائه

(٢) أوجد كثيراً من النساء العانسات غير المتزوجات فاضطررن للعمل مع الرجال ، وشاركنهم فى الأعمال فضيقن سبيل الحياة عليهن وعلى الرجال ، وكان من الاختلاط في العمل ما كان من الفساد والشر المستطير الذى تئن منه تلك الأمم .

(٣) حمل كثيراً من الرجال والنساء على اقتراف جريمة الزنى وخيانة كل من الزوج والزوجة صاحبه في أحوال كثيرة وحوادث عديدة امتلأت بها سجلات الشرطة والقضاء أتت من تحريم التعدد وتحريم الطلاق ، أما الاسلام فأباح التعدد وأباح الطلاق تخلصاً من هذه المخازى وتلك المضار ، ولم يبح الشرع الشريف الزيادة على الأربع فى الجمع بينهن ، ليكون الزوج إلى العدل أقرب ، ومع هذا فهو لا يستطيع العدل التام فى الجمع بين الأربع ولو حرص على ذلك لقوله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ) ولم يبح الشرع للمرأة أن تتزوج أكثر من واحد لأنها لو كانت عند زوجين فأكثر لفسد النظام وضاعت الأنساب ، وقتل الأزواج بعضهم بعضا ، وعظمت البلية ، واشتدت الفتنة ، وفشت من ذلك الأمراض الخلقية والجسمية ، وكيف تستقيم حال امرأة فيها شركاء متشاكسون ، وكيف تستقيم حال هؤلاء الشركاء فيها ، ومن الذى يقوم منهم بشأن الذرية إن وجدت ، والأرجح أنها لا توجد لفساد الحرث بهذا الاختلاط ، ونحن نرى الحوادث المؤلمة التي تحدث

لاشتراك رجلين أو أكثر فى امرأة واحدة كل منهم يريد الانفراد برفقتها على غير ماأمر الله ، هذا إلى تعطل كثير من النساء لو أبيح للمرأة أن تتزوج بأكثر من واحد وفى ذلك مافيه من الفساد الكبير، مع أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال . فالشرع حكيم فى أمره حكيم فى نهيه حكيم في إباحته حكيم فى حظره (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

وقد شدد القرآن الكريم ، والسنة النبوية على من تزوج بأكثر من واحدة في وجوب العدل فى القسم ، ومراعاة المساواة فى كل شيء ، عظم أو هان ، قل أو كثر ، فى النفقة ، فى الكسوة ، فى البيات ، فى البشاشة ، في كل الأمور ؛ حتى فى الكلمة ، والنظرة والابتسامة وكل مايسر ، ولو كان لا يذكر ، قال تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ، فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ) وقال عز وجل : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) وقال ﷺ : من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ، وروى فى الصحيح أن آخر ماأوصى به النبي ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تجلجل لسانه وخفى كلامه : الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون ، الله الله فى النساء فانهن عوان (أسراء) فى أيديكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فالدين الاسلامى جعل التعدد مثقلا

بشروط لا يستطيعها إلا من كمل إيمانهم ، واستنارت قلوبهم ، وعظمت ثروتهم ، واشتدت قوتهم ، واستطاعوا مع ذلك كله العدل وعدم الميل الظاهر ، أما أولئك الذين أباحوا لأنفسهم التعدد ، وهم لا يملكون مايقيم أودهم ، ويسد حاجتهم ، أولئك الذين لا يريدون إلا قضاء شهواتهم ، ولو أضروا بغيرهم ، فقد أساءوا إلى أنفسهم وإلى دينهم واستحقوا غضب الله ومقته ، فقد أوقعوا فى شراكهم أرواحا عذبوها ، وأنفساً أهانوها ، وأعراضاً انتهكوها ، وأسراً آلموها ، واستخفوا بدينهم وأمتهم وبلادهم ، وأتوا أمراً إدًّا ، وارتكبوا إثماً وجرماً ؛ (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا) وَ (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ، أولئك الذين أفسحوا المجال للطعن على الاسلام فى قوانينه وأحكامه ، ولو أنصف الطاعنون لتريثوا فى حكمهم ؛ وحكموا على هؤلاء الظالمين ، لا على أحكام الدين ، فان أحكام الدين صريحة فى أن التعدد مشروط بشروط لا يحل لمسلم أن يتخطاها ولا أن يتعداها ؛ (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) كيف يطعنون على الاسلام وهو لم يوجب التعدد وإنما أباحه وأباحه بشروط إن وجدت جاز وإن لم توجد لم يجز ، فلا بد أن يكون التعدد فى حدود الشرع ، وفى سياج العدل والمساواة والرحمة والشفقة والخير ، وقد سار المسلمون وراء الغربيين فى كثير من معتقداتهم ، وقلدوهم فى أغلب أعمالهم ، ولو حرمها رب العالمين ، وصرح بتحريمها فى كتابه المبين ، فحرموا التعدد وأباحوا الاختلاط ،

وحرموا الحجاب وأباحوا السفور ، بقول الله تعالى (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) ويقول فى آية أخرى (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) وهن يقصرن جلابيبهن ويرفعن خمرهن ويظهرن شعورهن ومحاسنهن ويعصين الله ورسوله ، أضاع المسلمون الصيانة ، وحافظوا على الخروج إلى المراقص والملاهى بنسائهم وبناتهم ، وإلى شواطىء البحار ومواطن المهالك والدمار ، وانطبق عليهم قوله ﷺ : لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع (كناية عن شدة موافقة الكافرين فى المحرمات) حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى؟ قال النبي ﷺ : فمن ؟ يعنى ليس المراد غير اليهود والنصارى ، تقتفون آثارهم حتى لو دخلوا أردأ مكان ضيق لاتبعتموهم ودخلتم وراءهم ، فنزل بالمسلمين وبالغربيين ما نزل من المصائب والويلات الاجتماعية ، فقد كثرت الفتيات العانسات ، والنساء الفاسدات ، واضطرت الفتيات لمشاركة الشبان فى المدارس والأعمال ، فأوقعن الضيق بأنفسهن وبالشبان في التعليم والمهن ، ونشأ عن الاختلاط ماتئن منه مصر ، ويئن منه الشرف والعفاف ، وكثرت حوادث اللقطاء وقتل الأطفال الآتين من السفاح ، ولحق العار بكثير من الأسر ، وعمت الفوضى ، وساد الفساد ، لمخالفة الدين الحنيف : والشرع الشريف قال

تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال جل شأنه : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) وقال عز وجل : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) والآن أتكلم على السيدات الطاهرات أمهات المؤمنين رضى الله عنهن

أزواج النبى صلى الله عليه وسلم

هن السيدات الكاملات ، المسلمات المؤمنات ، القانتات التائبات ، العابدات السائحات ، الزاكيات الطاهرات ، اللاتى سماهن الله تعالى فى كتابه الكريم ، أمهات المؤمنين ، فقال جل شأنه : (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) فهن أمهات المؤمنين فى الاحترام والحرمة ، والبر والتكريم ، فلا يحل لمسلم أن يتزوج منهن بعده ﷺ لقوله تعالى : (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً) وذلك ليتشرفن به ﷺ فى الجنة ، كما تشرفن به فى الدنيا ، ولا يحل لمسلم النظر إليهن والخلوة بهن ، لقوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) ولا يحل لمسلم أن يغتابهن أو يتكلم فى حقهن لأن ذلك يؤذى النبي ﷺ والله تعالى يقول : (وَمَا كَانَ لَكُمْ

أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ) ولأن الله أذهب عنهن الرجس وطهرهن تطهيراً كاملا كما قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فقد نزلت فيهن هذه الآية وإن كان المقصود عموم أهل البيت ، ويقال لهن أمهات المؤمنات كما يقال لهن أمهات المؤمنين . وقد خيرهن النبي ﷺ بأمر ربه بين الدنيا وبين الآخرة فى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيما) فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وكافأهن الله تعالى على ذلك الاختيار بقصره ﷺ عليهن وعدم تطليقهن ، فلم يتزوج غيرهن وتوفى عنهن ، وهن مفضلات على سائر النساء لقوله تعالى : (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) وكن متقيات ومتن على التقوى فهن الفضليات ، وثوابهن وعقابهن مضاعفان ، لقوله تعالى : (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً . وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً) وذلك لكمال قربهن ، وعلو درجاتهن ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وما ذلك إلا

لأنهن أفضل من غيرهن من النساء ، وأفضلهن السيدة خديجة ثم السيدة عائشة ، ثم السيدة حفصة ، وأفضل النساء على الاطلاق السيدة فاطمة الزهراء ثم السيدة خديجة ، ثم السيدة مريم عليهما السلام ، ثم السيدة آسيا امرأة فرعون ومما سيأتى تعلم أفضلية أمهات المؤمنين رضى الله عنهن ، والمتفق عليه أن نساءه ﷺ إحدى عشرة سيدة ، ستة من قريش وهن : خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وسودة بنت زمعة ، وأربع عربيات من قريش وهن زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، وواحدة غير عربية وهى من بنى إسرائيل وهى صفية بنت حيى ، وقد مات منهن عنده ﷺ اثنتان وهما خديجة وزينب بنت خزيمة ، وتوفى ﷺ عن التسع الباقيات ، وسأكتب عن كل سيدة منهن كلمة تبين الغرض من زواجهن ، وأنه ﷺ لم يتزوج واحدة منهن إلا لغرض دينى ، وقصد سام شريف ، والله المستعان .

١ — السيدة خديجة رضى الله عنها

هى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى فتجتمع معه ﷺ فى قصى ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم جندب ابن حجر بن بغيض بن عامر بن لؤى ، فتجتمع معه من جهة أمها فى لؤى ، فهى قرشية أما وأبا ، وهى أول من أسلم باجماع المسلمين لم

يتقدمها رجل ولا امرأة ولا صغير ولا صغيرة ، فلها فضل الأسبقية في الاسلام (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة ، لتركها ماكانت تفعله نساء الجاهلية ، تزوجها بكراً أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة التميمى الأسدى ، وجاءت منه بولدين هندوهالةوهما صحابيان ، فلما مات تزوجها عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر المخزومى ، وجاءت منه ببنت اسمها هند ، وهى صحابية ، فلما مات عتيق تزوجها النبى ﷺ ولها أربعون سنة ، وله عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة ، والسبب فى زواجها بالنبى ﷺ أنها رضى الله عنها كانت ذات شرف ومال ، وكانت تاجرة تستأجر الرجال فى مالها على جعل لهم من الربح ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظيم أمانته ، وكريم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه خيراً مما كانت تعطى غيره من التجار ، فقبل وخرج مع غلام لها يقال له ميسرة حتى قدم الشام فرآه بحيرى الراهب وأخبر ميسرة بأنه النبى المنتظر ، وباع النبى ﷺ سلعته التى خرج بها واشترى ماأراد ، ورجع إلى مكة فباعت خديجة ما اشتراه فكان ضعف ثمن السلعة ، وحدثها ميسرة بقول الراهب ، وكانت رضى الله عنها سيدة حازمة لبيبة ، مع ما أراد الله لها من كرامتها فبعثت إليه ﷺ تقول له : إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى وشرفك فى قومك ، وأمانتك عندهم ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، وكانت

أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهم شرفا، وأكثرهم مالا، فلما عرضت عليه نفسها أخبر أعمامه. فخرج معه حمزة وأبو طالب، وخطبها أبو طالب من عمها عمرو بن أسد فقبل فتزوجها ﷺ وأصدقها خمسمائة درهم وخطبها من عمها، لأن أباها قد مات فولدت له قبل الوحي القاسم وهو أكبر ولده عاش حتى مشى، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله، وكان يقال له الطيب والطاهر، ولما جاء جبريل إلى النبي ﷺ أول ماجاء أخبرها فذهبت معه إلى ورقة بن نوفل وكان عنده علم بالعبراني ويكتب الانجيل فأخبره الرسول بما رأى، فقال هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، فآمنت خديجة رضى الله عنها، فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء، وكان يخبرها بتكذيب الناس وإيذائهم إياه فكانت تخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس فنالت بذلك فضلا عظيما، فكانت من الأربع اللاتى فضلهن النبى ﷺ على نساء العالمين وهن فاطمة الزهراء، وخديجة بنت خويلد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وأفضل النساء على الاطلاق فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وبشر النبي ﷺ خديجة رضى الله عنها ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب، وروى فى إسلامها أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ وبحث في الأرض فنبع الماء فتوضأ جبريل وتوضأ النبي ﷺ مثل وضوئه، وصلى ركعتين عليه الصلاة والسلام نحو الكعبة وبشره جبريل بنبوته وبلغه: اقرأ باسم ربك ثم انصرف جبريل ومضى الرسول فلم يمر على شجر ولا حجر إلا

سمع : سلام عليك يارسول الله ، فجاء إلى خديجة فأخبرها ، فقالت أرنى كيف أراك ، فأراها فتوضأت كما توضأ ثم صلت معه ، وقالت أشهد أنك رسول الله — قبل أن يشهد بذلك غيرها ، وقد كانت رضى الله عنها حريصة على رضاه ﷺ ، ولم تتعبه فى إيمانها كغيرها ، وأزالت عنه كل نصب وآنسته من كل وحشة : وهونت عليه كل عسير ، ولم تغضبه قط ، وآزرته فى كل موافقه فكانت له عوناً قبل البعثة وبعدها وكان ﷺ يقول : إنى رزقت حبها ، وهي التى كونت أول بيت فى الاسلام ؛ منها ومنه ومن أبنائهما ، ومرجع أهل البيت إليها ، فهى أم السيدة فاطمة الزهراء التى تناسل منها أهل البيت الأصفياء ، الذين قال فيهم الله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين فى السنة العاشرة من البعثة لعشر خلون من رمضان ودفنت بالحجون ونزل ﷺ فى حفرتها وسوى عليها وتوفيت وسنها خمس وستون سنة فعاشت معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ولم تكن فرضت الصلاة ولاشرعت صلاة الجنازة ، ولم يتزوج عليها النبى ﷺ حتى ماتت ؛ ومات أبو طالب قبلها بثلاثة أيام فسمي عام وفاتهما عام الحزن ولاقى النبى ﷺ بعدهما أشد الأذى من قريش فقد كانا له ردأين عظيمين وحصنين منيعين ، وكان ﷺ لا يكاد يخرج من بيته بعد وفاتها حتى يذكرها فيحسن الثناء عليها ويكثر الاستغفار لها ، إلى أن تزوج عائشة

رضي الله عنها فسمعت ذلك منه . قالت عائشة رضي الله عنها فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا ؛ فقد أبدلك الله خيرا منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال لا والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني فى مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء ، قالت عائشة فقلت فى نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا ، وفى رواية قد أبدلك الله بكبيرة السن حديثة السن ، فغضب غضبا شديدا ، قالت عائشة وسقطت فى جلدي ، وقلت اللهم أذهب غيظ رسولك ، لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت ، وفى رواية فغضب حتى قالت والذي بعثك بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير ، من هذا نعلم أنه ﷺ تزوجها بعد أن رغبت فيه وعرضت عليه نفسها وهو زاهد والناس يترامون عليها لمالها وشرفها ، وكانت سنها أربعين سنة وسنه خمسا وعشرين فهي كهلة وهو شاب ، وأنه لم يتزوج عليها حتى ماتت وبلغ الخمسين ، فبذلك نجزم أن قصده الدين ، وغرضه رب العالمين ، وإلا لتزوج قبل هذا السن ، ولتزوج بكراً ، ولتزوج أكثر من واحدة إذ كان ذلك شائعاً لا لوم فيه ولا تثريب ، وهو الصادق الأمين الشريف الذي آتاه الله الحسن والجمال وحب القلوب ، ولكنه لم يفعل ، فدل ذلك على تقديمه الدين على الدنيا ، وتفضيله الآخرة على الأولى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ

بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ).

٢ - السيدة سودة رضى الله عنها

هى السيدة سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى القرشية العامرية تجتمع معه ﷺ فى لؤى ، وأمها الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو بن لبيد ابن خراش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارية . وقد أسلمت السيدة سودة رضى الله عنها قديما ، وبايعت على الاسلام قديما ، وكانت متزوجة ابن عم لأبيها يسمى السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود وكان للسكران إخوة كلهم صحابيون وهم سهيل وسهل وسليط وحاطب بنو عمرو ، وقد أسلم السكران معها قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وقد مات رضى الله عنه حين قدم مع زوجه سودة إلى مكة ، وقيل مات بأرض الحبشة ، فهو رضي الله عنه ممن مات على الاسلام ، خلافا لما قيل من أنه تنصر وتركها وعادت إلى مكة ، قال فى أسد الغابة صفحة ٤٨٤ من الجزء الخامس « وكان مسلما فتوفي عنها فتزوجها رسول الله ﷺ » وقال فى الجزء الثالث من شرح الزرقانى على المواهب صفحة ٢٧١ « وكانت تحت ابن عم لها يقال له السكران ابن عمرو أخو سهيل ابن عمرو ، أسلم معه قديما وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها) . ولما مات زوجها

السكران رضى الله عنهما ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها ، وذلك سنة عشر من النبوة ، وهى أول امرأة تزوجها بعد السيدة خديجة رضى الله عنهما تزوجها قبل السيدة عائشة رضى الله عنها .

روى أن خولة بنت حكيم قالت للنبي ﷺ : أفلا أخطب عليك ؟ قال بلى فانكن معشر النساء أرفق بذلك ، فخطبت عليه سودة بنت زمعة وعائشة ، فتزوجهما ، فبنى بسودة بمكة وعائشة يومئذ بنت ست سنين ، حتي بنى بها ، بعد ذلك حين قدم المدينة ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يدخل بعائشة إلا بعد سودة رضى الله عنهما بثلاث سنين ، ولما كبرت سنها وهبت نوبتها للسيدة عائشة ، فقد روى أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : مابى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك ، وكانت شديدة الاتباع لأمره صلى الله عليه وسلم ، وكانت تؤنسه وتضحكه بالمشى أحيانًا ، وأسنت عنده ولم تصب منه ولداً ، وتوفيت رضي الله عنها آخر خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه سنة ثلاث وعشرين هجرية ، فترى من هذا أنه صلى الله عليه تزوجها كبيرة السن وهى ثيب ، ولم يكن معه غيرها ومكث معها وحدها أكثر من ثلاث سنين ، حتى تزوج السيدة عائشة فى السنة الأولى من الهجرة ، وترى أنه أمضي من عمره أربعاً وخمسين سنة ولم يجمع بين اثنتين ، ولم يتزوج بكراً ، وترى أنه تزوج السيدة سودة لايوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذي مات معها فاراً

بعقيدته ، حريصاً على إيمانه ، وأنه تزوجها كذلك تألفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته صلى الله عليه وسلم ، فلم يتزوجها إلا لقصد دينى ، وغرض إسلامى ، ووجهة خالصة لله رب العالمين ، فتبا لقوم يتقولون عليه الأقاويل ، ويدعون فيه ماهو منه برىء إن هو إلا كفر وجهل وطغيان (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

٣ - السيدة عائشة رضى الله عنها

هى السيدة المباركة الجليلة الكريمة العليمة القرشية الكنانية عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة : عبد الله بن عثمان ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مره بن كعب بن لؤى فهى تجتمع معه ﷺ فى مرة ، وأمها أم رومان : زينب بنت عامر ابن عويمر بن عبد شمس بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة الكنانية ، وقد أسلمت أم رومان وبايعت وهاجرت وماتت فى حياته ﷺ وقد تزوج النبي ﷺ عائشة رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين ، وبنى بها فى السنة الأولى من الهجرة عقد عليها فى شوال سنة عشر من النبوة ولها ست سنين بعد عقده على السيدة سودة ، وأعرس بها فى المدينة فى شوال بعد سبعة أشهر من مقدمه إلى المدينة ولها تسع سنين ، وقال الدمياطى فى سيرته : ماتت خديجة فى رمضان ، وعقد على سودة فى شوال ، ثم على عائشة

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم بن الأوقص امرأة عثمان بن مظعون ، وذلك بمكة : أى رسول الله : ألا تتزوج ؟ قال ومن ؟ قلت إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً قال فمن البكر ؟ قلت ابنة أحب خلق الله إليك : عائشة بنت أبى بكر ، قال ومن الثيب ؟ قلت سودة بنت زمعة بن قيس ، آمنت بك ، واتبعتك على ما أنت عليه ، قال فاذهبى فاذكريهما على ، فجاءت فدخلت بيت أبى بكر فوجدت أم رومان أم عائشة ، فقالت أى أم رومان : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت وما ذاك ؟ ، قالت أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قالت وهل تصلح له ، إنما هى ابنة أخيه ، وددت ، انتظرى أبا بكر فانه آت ، فجاء أبو بكر فقالت ياأبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قال وما ذاك ؟ قالت أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قال وهل تصلح له ، إنما هى بنت أخيه ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال ارجعى وقولى له أنت أخى وأنا أخوك فى الاسلام ، وابنتك تصلح لى ، فرجعت وأخبرته بذلك ، فقال أبو بكر لأم رومان : إن المطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه ، والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط . فأتى المطعم وعنده امرأته أم الفتى ، فقال ماتقول فى أمر هذه الجارية ؟ فأقبل على امرأته فقال ما تقولين ؟ فأقبلت على أبى بكر فقالت : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبى إليك تصبئه وتدخله فى دينك والذى أنت عليه ، فقال أبو بكر للمطعم ما تقول

أنت ؟ فقال إنها تقول ماتسمع ، فقام أبو بكر ليس فى نفسه شىء من الموعد ، فقال لخولة : قولى لرسول الله ﷺ فليأت ، فدعته فجاء فملكها (تزوجها) وهى يومئذ بنت ست سنين قالت خولة وخرجت فدخلت على سودة فقلت ياسودة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة قالت وماذاك ؟ قلت أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه قالت وددت : ادخلي على أبي فاذكرى ذلك له ، قالت وهو شيخ كبير قد تخلف عن الحج ، فدخلت عليه فقلت إن محمد بن عبد الله أرسلني أخطب عليه سودة ، قال كفء كريم ، فماذا تقول صاحبتك ، قالت تحب ذلك ، قال ادعيها فدعتها ، فقال إن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجك منه قالت نعم قال فادعيه لى فدعته ، فجاء فزوجها ، وجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، وقال بعد أن أسلم : إني سفيه يوم أن أحثو التراب على رأسى ، أن تزوج رسول الله ﷺ سودة ؛ وعن عائشة رضى الله عنها أن جبريل جاء بصورتها فى خرقة من حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة ، وعنها قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً ياعائش ، هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى مالا أرى ، وكان مسروق إذا روى عنها يقول حدثتني الصديقة بنت الصديق البريئة المبرأة حبيبة حبيب الله ، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض ، وقال عطاء كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأيا فى العلم ، ولو لم يكن

لعائشة من الفضائل إلا قصة الافك لـكفى بهـا فضلا وعلو مجد ، فانها نزل فيها من القرآن مايتلى إلى يوم القيامة اهـ

وكانت أحب نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه بعد خديجة، لأنها بنت الصديق الذى كان معه فى هجرته (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) ولما نزلت آية التخيير بدأ بها ، واختار الاقامة عندها فى مرضه ، وقام لها وهى تنظر من ورائه إلى لعب الحبشة بحرابهم فى المسجد النبوى ، وقال لها إنى لأعلم إذا كنت على راضية وإذا كنت على غضبى ، قالت بم ؟ قال إذا كنت راضية قلت لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبي قلت لا ورب ابراهيم ، قالت صدقت ما أهجر إلا اسمك ، رواه البخاوى ومسلم والنسائى ، وسابقها فى سفر فسبقته ، فلما امتلأت من اللحم سابقها فسبقها ، فقال ياعائشة هـذه بتلك ، وكان يوافقها فيما تحبه ولا يغضب الله تعالى ، وروى عنها أنهـا قالت فضلت على نساء النبي ﷺ (غير خديجة رضى الله عنها) بعشر ، لم يتزوج بكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين نحرى وسحرى ، وقبض فى الليلة التي كان يدور على فيها ، ودفن فى بيتى . وكانت مدة مقامه معها عليه الصلاة والسلام تسع سنين ، ومات عنها ولها ثمانى

عشرة سنة ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وكانت كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ ، عارفة بأيام العرب وأشعارها ، قال أبو موسى الأشعرى ، ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً . رواه الترمذى وصححه ، وقال عروة ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ، ولا بفرضه ولا بحرام ، ولا بحلال ، ولا بفقه ، ولا بشعر ، ولا بطب ، ولا بحديث العرب ، ولا نسب ، من عائشة ، وقد روى لها ألفان ومائتا حديث وعشرة ، وروى أنها مدحت النبى ﷺ بقولها :

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد
لواحى زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

وكانت زاهدة كثيرة الكرم والصدقة ، ولم تلد قط ، وروى هشام عن أبيه ، قال كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، قالت : « عائشة » فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقالوا ياأم سلمة ، إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد من الخير كما تريد عائشة ، فمرى رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان أو حيث ما دار ، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبى ﷺ — قالت أم سلمة . فأعرض عنى ، فلما عاد إلى ذكرت له ذلك فأعرض عني ، فلما كان فى الثالثة ذكرت له ذلك ، فقال يا أم سلمة لا تؤذيني فى عائشة ، فانه والله مانزل على الوحى وأنا في فراش امرأة منكن غيرها ، وروى عنها أنها قالت رأيت رسول الله ﷺ طيب النفس فقلت يارسول الله ادع لى ، قال : اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وما أسرت وما

أعلنت ، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها فى حجرها من الضحك فقال ﷺ أسرك دعائى ؟ فقالت مالى لا يسرنى دعاؤك ، قال فوالله إنها لدعوتى لأمتى فى كل صلاة ، وتوفيت رضى الله عنها بالمدينة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين للهجرة وهى ابنة ست وستين سنة فعاشت بعده ﷺ خمسين سنة ، ودفنت بالبقيع ، وقد نفع الله بها الأمة الاسلامية فى نشر العلوم وتعاليم الدين والشرع الشريف ولا سيما ما يتعلق من ذلك بأمور البيت والأسرة والمرأة ، وحضر جنازتها أكثر أهل المدينة ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، ودفنت ليلا ، ونزل فى قبرها خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله ابن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وروى عنها الحديث كثير من أكابر الصحابة فعن عمر قال : إن عائشة حدثتنى أن رسول الله ﷺ قال : وهو على فراشى : أيما امرأة مؤمنة وضعت خمارها على غير بيتها هتكت الحجاب بينها وبين ربها عز وجل ، فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة عائشة رضى الله عنها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وكانت بنت تسع ، ولم يمكث معها غير تسع سنين ؛ وأنه ﷺ تزوجها بوحى من ربه ، لا لغرض من نفسه ، وأراد بهذا الزواج مكافأة أبيها الصديق وإحكام الرابطة بينهما ، فلم يتزوجها إلى للدين وابتغاء مرضاة رب العالمين ، فهى لم تعقب منه ولداً ، ولكنها أذاعت علماً وفضلا ، وفقهاً وعدلا ، ودينا وشرعاً ، ولم يتزوج غيرها

بكراً ، وهى أول من جمع بينها وبين غيرها وهى السيدة سودة رضى الله عنها ، وقد علمت السبب في زواجها والغرض منه ، مما يبطل كلام المبطلين ، ويدل على عصمة سيد المرسلين ، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

٤ – السيدة حفصة رضى الله عنها

هى السيدة الجليلة القرشية أم المؤمنين حفصه بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدى بن كعب بن لؤى فتجتمع معه ﷺ فى كعب ، وأمها وأم أخيها عبد الله بن عمر زينب بنت مظعون ، الجمحية الصحابية المهاجرة ، وقد ولدت حفصة رضي الله عنها قبل البعثة بخمس سنين وقريش تبنى الكعبة ، وقد أسلمت وهاجرت ، فهى من المهاجرات ، وكانت قبل رسول الله ﷺ زوجاً لخنيس بن حذافة السهمى ، وكان ممن شهد بدراً وتوفى بالمدينة بعد غزوة بدر من جراحات أصابته ببدر ، فهو صحابى جليل مهاجر بدرى ، ولما مات خنيس رضى الله عنه وانقضت عدتها ، عرضها عمر أبوها على عثمان ثم على أبى بكر رضى الله عنهم جميعاً ، فلم يجبه أحدهما إلى زواجها لأنه ﷺ ذكرها أمام أبى بكر فأمسك عنها ، روى عن ابن عمر شقيقها رضى الله عنهما قال تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدراً وتوفى بالمدينة ، قال عمر فلقيت عثمان

فقلت إن شئت أنكحتك حفصة ، قال سأنظر فى أمرى فلبثت ليالى ، ثم لقيني فقال : قد بدا لى ألا أتزوج فى يومى هذا ، قال عمر فلقيت أبا بكر فقلت إن شئت أنكحتك حفصة فصمت ، فلم يرجع إلي شيئاً ، فكنت عليه أوجد منى على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها النبى ﷺ فأنكحتها إياه ، فلقينى أبو بكر فقال لعلك وجدت عليّ حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ، فقلت نعم ! قال فانه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أنى قد علمت أن رسول الله ﷺ قدذكرها ، فلم أكن لأفشي سره ، ولو تركها لقبلتها ، وكان قد عرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم، فالسبب فى امتناع أبي بكر أن النبي ﷺ ذكر حفصة أمامه ؛ والسبب فى امتناع عثمان أنها عرضت عليه حين ماتت رقية رضى الله عنها فلم يقبل ورقية قد ماتت قريباً ، وقد أكرم الله حفصة برسول الله ﷺ وأكرم عثمان بأم كلثوم أخت رقية ، وأكرم أبا بكر بإيثاره رسول الله ﷺ على نفسه ، وتزوجها النبى ﷺ بعد السيدة عائشة بسنتين سنة ثلاث للهجرة وسنه ﷺ ست وخمسون سنة ، وسنها إحدى وعشرون سنة مكافأة لها ، وحباً فى أبيها ، وكان رسول الله ﷺ قد طلقها تطليقة واحدة ثم راجعها ، روى عن أنس رضى الله عنه أنه ﷺ طلق حفصة تطليقة فأتاه جبريل ، فقال طلقت حفصة وهى صوامة قوامة ، وهى زوجتك فى الجنة ، وفى رواية أنه ﷺ طلق حفصة ، فبلغ ذلك عمر فحثا على رأسه التراب ، وقال مايعبأ الله

بعمر وابنته بعـدها ، فنزل جبريل من الغد وقال إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر ، وروى أن عمر رضى الله عنه دخل على حفصة وهى تبكي ، فقال لعل رسول الله ﷺ قد طلقك ، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ، فان كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً ، وروى لها عن النبي ﷺ ستون حديثاً ، وقد استرضاها ﷺ بتحريم مارية ونزل فى هذه الحادثة (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ونزل فيها وفى عائشة رضي الله عنهما (تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) وقوله (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)وعن نافع قال: صامت حفصة حتى ماتفطر ، كناية عن كثرة صيامها ، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين للهجرة بالمدينة في خلافة معاوية،وهى ابنة ثلاث وستين سنة رضى الله عنها.

فترى من هـذا أنه ﷺ تزوج السيدة حفصة وهى ثيب ، وقد تزوجها رغبة فى إيوائها ، وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى غزوة بدر وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه ، وتزوجها استرضاء لأبيها عمر رضى الله عنه الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، وتزوجها ﷺ وسنه ست وخمسون سنة ، ولم يجمع بين ثلاث إلا بحفصة رضى الله عنها وهو فى هذه السن ، وهو ﷺ الرءوف بالمؤمنين والمؤمنات، الرحيم بالمسلمين والمسلمات ، العادل المحسن العارف بحقوق الزوجية ، فهو ﷺ بالمقام الأسمى والمحل الأرفع يسير على ضوء من ربه ، ويعمل بنور ممن بعثه واصطفاه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

٥ - السيدة أم سلمة رضى الله عنها

هى السيدة الجليلة ذات الرأى الصائب ، والأدب الكامل أم المؤمنين أم سلمة : هند بنت ابى أمية : حذيفة بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ، فهى تجتمع معه ﷺ في مرة ، وكان أبوها يعرف بزاد الراكب ، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية ، وكانت السيدة أم سلمة موصوفة بالجمال البارع ، والعقل الراجح ، والرأى الصحيح ، دخل عليها النبي ﷺ والغضب فى وجهه الشريف ، حين أمر أصحابه رضي الله عنهم بالحلق أو التقصير بعد صلح الحديبية ، فتثاقلوا فأشارت عليه أن يبدأ بنفسه ، ففعل فتسابقوا وحلقوا وقصروا ونحروا اقتداء به ﷺ ، مما يدل على رجاحة عقلها ، وإصابة رأيها رضى الله عنها ، وكانت قبل النبي ﷺ عند ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها ، وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فولدت له عمر ودرة وزينب ، فأما زينب فولدتها بعد موت أبى سلمة ، فخلت وانقضت عدتها بوضع الحمل ، فبعث إليها أبو بكر يخطبها عليه فلم تتزوجه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يخطبها عليه ، فقالت أخبر رسول الله ﷺ أنى امرأة غيرى ، وأنى امرأة مصبية ، وليس أحد من أوليائى شاهداً ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال ارجع إليها فقل لها : أما قولك إنى امرأة غيرى فسأدعو

الله فيذهب غيرتك ، وأما قولك إنى امرأة مصبية فستكفين صبيانك .
وأما قولك ليس أحد من أوليائى شاهداً فانه لا أحد شاهد ولا غائب
من أوليائك يكره ذلك ، فقالت لابنها عمر (حين سمعت ذلك) قم
فزوج رسول الله ﷺ فزوجه فى ليال بقين من شوال من السنة الرابعة
للهجرة بعد السيدة حفصة وبعد أربعة أشهر ونصف من موت أبى
سلمة وسنها حينئذ تسع وعشرون سنة ، وسنه ﷺ سبع وخمسون سنة
وهى أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة ، فقد روى عنها أنها قالت :
لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل بعيراً له ، وحملنى وحمل
معى ابنى سلمة ، ثم خرج معى يقود بعيره ؛ فلما رآه رجال بنى المغيرة
ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم « قوم أم سلمة » قاموا إليه فقالوا هذه
نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى
البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى ، وغضبت عند ذلك
بنو عبد الأسد وأهووا إلى سلمة وقالوا والله لا نترك ابننا عندها إذ
نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق
به عبد الأسد رهط أبى سلمة ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق
زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة ، ففرقوا بينى وبين زوجى وبين
ابنى ، قالت فكنت أخرج كل غداة (صباح) فأجلس بالأبطح فما أزال
أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبها ؛ حتى مر بى رجل من بنى عمى من
بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة ، ألا تخرجون من
هذه المسكينة ؛ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها . فقالوا لى ألحقى

تزوجك إن شئت ، ورد علي بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله ، أتبلغ بمن لقيت ، حتي أقدم علي زوجي ، حتي إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال أين يا بنت أبي أمية قلت أريد زوجي بالمدينة ، فقال : هل معك أحد ؟ فقلت لا والله ، إلا الله وابني هذا ، فقال : والله مالك من منزل ، وما مثلك يترك ، فأخذ بخطام البعير ؛ فانطلق معي يقودني ، فوالله ماصحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه ، إذا بلغ بي المنزل أناخ بي . ثم تنحي إلي شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام إلي بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني وقال اركبي ، فاذا ركبت واستويت علي بعيري أتي فأخذ بخطامه فقادني حتي ننزل ، فلم يزل يصنع ذلك حتي قدم بي إلي المدينة ، فلما نظر إلي قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية ، وكان أبو سلمة نازلا بها ، فدخلتها علي بركة الله تعالي ، ثم انصرف راجعاً إلي مكة ، وكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهل بيت أصابهم في الاسلام ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة . ومات أبو سلمة البدري بجرح أصابه في غزوة أحد ، فعالجه شهراً حتي برىء ، ثم بعثه ﷺ في سرية فغاب شهراً ، ثم عاد فانتقض جرحه ، فمات لثمان خلون من جمادي الآخرة سنة أربع ، وسمعت أم سلمة رسول الله ﷺ يقول : (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول اللهم آجرني في مصيبتي ، واخلفني خيراً منها

إلا أخلف الله له خيراً منها) قالت رضى الله عنها فلما مات أبو سلمة ، استرجعت وقلت : اللهم عندك احتسب مصيبتى هذه ، ولم تطب نفسي أن أقول : اللهم اخلفنى خيراً منها ، وقلت أى المسلمين خير من أبى سلمة ؟ ثم إنى قلتها ، فأخلف الله لى رسول الله ﷺ ، فآواها وكان لها خيراً من أبى سلمة ، فلم تشعر بألم الحياة مع كثرة أولادها من أبى سلمة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ وأما العيال فالى الله ورسوله . وروى عنها أنها قالت فى بيتى نزلت (إِنَّمَا يرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْس أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلى والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتي ، قالت فقلت يارسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال بلى إن شاء الله : وتوفيت رضى الله عنها سنة تسع وخمسين للهجرة فى شوال ، وهى آخر أمهات المؤمنين وفاة ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه ، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة : فترى من هذا أن النبي ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته وهى تحبه ولا ترى بعده خيراً منه ، وكانت كثيرة الأولاد فلو تركت لكانت عيشتها بهم نكدة مؤلمة، فآواها وآوى أولادها وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها وصبرها ووفائها لزوجها ، فقد امتنعت عن الزواج وفاء لزوجها وأولادها ، ولم ترض إلا بالنبى ﷺ لعلمها بصبره وحلمه ، ووفائه وعدله ، وأنه خير لها ولأولادها من غيره ، فهذا هو السبب فى زواجها بالنبي ﷺ ، وتلك هي الحكمة

وليحفظ الرسول ﷺ امرأة مؤمنة كانت زوجة لرجل مؤمن مات شهيداً فى الذود عن حياض الاسلام ، وبها كان النبى ﷺ قد جمع بين أربع من الزوجات الطاهرات رضى الله عنهن ، وقد بلغ سنه ﷺ سبعاً وخمسين سنة : مما يدل على أن قصده فى كل أحواله الله الذى بعثه واصطفاه وقال فيه : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

٦ - السيدة أم حبيبة رضى الله عنها

هى السيدة رملة وكنيتها أم حبيبة ، وهى بنت أبى سفيان : صخر ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فهى تجتمع معه ﷺ فى عبد مناف ، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية ، عمة سيدنا عثمان بن عفان بن أبى العاص ، فهى قرشية أموية ، وقد ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً وأسلمت قديماً بمكة ، وكانت متزوجة عبيد الله بن جحش ، وولدت له بمكة حبيبة ربيبة رسول الله ﷺ ، واشتهرت بكنيتها بها ، فدعوها أم حبيبة ، وقد هاجرت رضى الله عنها مع زوجها عبيد الله وابنتها حبيبة إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها عبيد الله بن جحش ومات بالحبشة ، وثبتت على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته ، وفضلت الاسلام على زوجها ، فجمع الله لها الاسلام والهجرة والصحبة هى وابنتها حبيبة رضى الله عنهما ، وأكمل الله لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ ، فقد تزوجها سنة ست للهجرة وسنها ست وثلاثون سنة ، وسنه ﷺ تسع وخمسون سنة ، قالت رضى الله

عنها : رأيت فى المنام كأن زوجى عبيد الله بن جحش بأسوإ صورة ففزعت ، فأصبحت فاذا به قد تنصر ، فأخبرته بالمنام فلم يحفل به ، وأكب على شرب الخمر حتى مات ، فأتانى آت فى نومى ، فقال : ياأم المؤمنين ، ففزعت ، فما هو إلا أن انقضت عدتى ، فما شعرت إلا برسول النجاشى يستأذن ، فاذا هى جارية تقوم على بناته يقال لها أبرهة ، فقالت : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجك منه ، فقلت بشرك الله بخير ، قالت ويقول لك الملك وكلى من يزوجك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكلته ، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة كانت على ؛ وخواتيم من فضة كانت فى أصابعى ، سروراً بما بشرتنى به ، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر ابن أبى طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشى فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال : أما بعد فان رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، ثم تكلم خالد بن سعيد ، فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال ، أما بعد فقد أجبت رسول الله ﷺ إلى مادعا إليه وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وبارك الله لرسوله ، ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد فقبضها ، ثم أرادوا أن يتفرقوا فقال اجلسوا ودعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا ، قالت أم حبيبة : لما وصل إلى المال أعطيت أبرهة منه خمسين ديناراً ، قالت فردتها على ، وقالت إن الملك عزم على بذلك ، وردت على

ما كنت أعطيتها أولا (السوارين والخواتيم) ثم جاءتني من الغد بعود وورس وعنبر وزبد كثير ، فقدمت به معى على رسول الله ﷺ ، وقد أرسل النجاشى أم حبيبة مع شرحبيل بن حسنة ، قالت رضى الله عنها : ولما دخلت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة ، وما فعلت معى أبرهة جارية النجاشى ، وأقرأته منها السلام ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال وعليها السلام ورحمة الله وبركاته وكان قدومها إلى المدينة بعد رجوعه ﷺ من فتح خيبر سنة سبع للهجرة ، ودخل بها النبى ﷺ بالمدينة فى هذه السنة ، فكان عقد الزواج سنه ست بالحبشة والدخول سنة سبع بالمدينة وأجمعوا على أنه ﷺ تزوج السيدة أم حبيبة وهى بالحبشة ، ودخل بها بالمدينة ، وأن الدخول بها كان قبل إسلام أبيها أبى سفيان ، فقد روى أن أبا سفيان قدم المدينة ليزيد فى هدنة الحديبية فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته دونه ، فقال يابنية : أرغبت بهذا الفراش عنى ، أم بى عنه ؟ قالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك ، فقال لقد أصابك بعدى شر ، فقالت : بل خير ، وقد أسلم رضى الله عنه فى غزوة الفتح سنة ثمان للهجرة وهو أبو معاوية رضى الله عنه ، وتوفيت رضى الله عنها بالمدينة سنة أربع وأربعين فى خلافة أخيها معاوية ولها أربع وسبعون سنة ،وقد أرسلت قبل وفاتها إلى السيدة عائشة ، والسيدة أم سلمة تقول : قد يكون بيننا مايكون من الضرائر ، فاصفحا عما كان ، فاستغفرتا لها وسرها ذلك ، وقد روت

أم حبيبة عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث فى الـكتب الستة ، وروت عن زينب بنت جحش رضى الله عنها وعن غيرها من الصحابة رضى الله عنهم : فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم دخل بها وسنه ستون سنة ، وسنها سبع وثلاثون سنة وهى ثيب ولم تلد له شيئاً ، وتزوجها وهى فى دار الهجرة فى شدة شديدة ؛ وكرب عظيم ، قد فقدت الناصر والمعين ، وتنصر زوجها وتركها وابنتها فى المهاجرين المظلومين ، فسرها وشرح صدرها ، وآواها ونصرها ، وكافأها وأعزها ، لثباتها على الاسلام وتقديمها الدين على الدنيا وليبعث هـذا الزواج أباها أبا سفيان وقومها بنى أمية على مناصرته صلى الله عليه وسـلم والوقوف فى صفه فـكان تزوجه بها رغبة فى الدين ، وتقرباً لله رب العالمين ، وهو صلى الله عليه وسلم الرءوف بالمؤمنات والمؤمنين .

٧ — السيدة زينب بنت خزيمة

أم المساكين رضى الله عنها

هى الأولى من السيـدات الأربع العربيات من غير قريش ، وهى السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن صعصعة بن بكر بن هوازن الهلالية ، وأمها هند بنت عوف وكانت زينب رضى الله عنها فى الجاهلية تدعى أم المساكين لـكثرة إطعامها إياهم ، ورقتها عليهم ، واستمرت على ذلك ، وزادت بالاسلام شفقة ورحمة وبرا وصدقة ، وكانت متزوجة عبد الله بن جحش رضى الله عنـه فقتل

عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثلاث للهجرة بعد انقضاء عدتها بوضع الحمل ، وكان زواجها به صلى الله عليه وسلم بعد حفصة رضى الله عنها ، فأقامت عنده ثمانية أشهر ، وتوفيت فى ربيع الآخر من السنة الرابعة وسنها ثلاثون سنة ، وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنها بالبقيع ولم يمت عنده إلا أم المساكين وخديجة رضى الله عنهما : فترى من ذلك أنه تزوجها ولم تمكث عنده إلا ثمانية أشهر فأقل ، وأنه تزوجها ثيبا ، وأن غرضه إيواءها عنده بعد موت زوجها شهيدا وهو يدافع عن الاسلام يوم أحد؛ فقصده ﷺ الدين ، ووجهته لله رب العالمين ، وهى مكافأة أم المساكين ، لقتل زوجها في الذود عن المسلمين .

٨ - السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها

هى ثانية السيدات الطاهرات العربيات من غير قريش ، وهى السيدة زينب بنت جحش بن رياب بن يعمر بن صبر بن مرة بن كثير ابن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمته ﷺ ، وكانت السيدة زينب زوجة لزيد ابن حارثة مولى النبي ﷺ ، وهو ﷺ الذى تولى تزويجها من زيد فقد خطبها عليه الصلاة والسلام لزيد فظنت أنه صلى الله عليه وسلم يريدها لنفسه ، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت واستنكفت ، وقالت أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) فرضيت وسلمت ولما تزوجها زيد مكثت عنده مدة ، وهى تتعاظم عليه ، وتفتخر بشرفها ، فرغب عنها زيد ، وجاء يشكوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ) واصبر عليها ، وأحسن إليها ، وكان الله تعالى أطلع نبيه أنها ستكون زوجا له فنزل قوله تعالى (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ) من أن زيداً سيطلقها وأنك تتزوجها ، وكان صلى الله عليه وسلم يخشى أن يقع الناس فى الاثم والمعصية بسببه ويقولون تزوج زوجة من تبناه ، لأن ذلك لم يكن مباحاً عندهم فنزل قوله تعالى (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) كما هو شأنك ودأبك وشيمتك وما أنت عليه ، ثم طلقها زيد رغبة عنها ، وكراهة لما يلقاه منها ، من تعاظمها عليه ، وفخرها بشرفها وحسبها ، ولم يطلقها لرغبة رآها من النبي صلى الله عليه وسلم ولا لأى كلمة أو إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انقضت عدتها من زيد قال له النبي صلى الله عليه وسلم ، تنفيذاً لأمر ربه وما أوحاه إليه من أنها ستكون زوجته ، اذهب الى زينب فاذكرنى لها ، فصدع زيد بالأمر ولم يبد عليه إلا السرور بما تشرفت به ، قال زيد رضى الله عنه ، فذهبت إليها ، فجعلت ظهرى إلى الباب (فعل ذلك تورعاً لأنه كان قبل نزول الحجاب) فقلت يازينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

يذكرك ، فقالت ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجد لها ، فأنزل الله تعالى (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا) فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن وسجدت لله شكراً على هذا الشرف العظيم ، وعلى أنها تزوجت بوحى نزل من الله على رسوله ، وكان للتشريع ، كما قال تعالى (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) فكانوا لا يتزوجون زوجة الدعى فنزلت الآية بحل ذلك وأول من بدأ بنسخ هذه العادة هو النبى صلى الله عليه وسلم ليكون لهم قدوة حسنة فى ذلك ، وقد سبق الكلام مستوفى فى هذه الحادثة فى تفسير قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) إلخ . وكانت رضى الله عنها تفتخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بقولها : زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات ، وقد أولم لها النبى صلى الله عليه وسلم ، فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً ، وكان تزويجها منه صلى الله عليه وسلم سنة خمس للهجرة وكان سنها خمساً وثلاثين سنة ، وكانت رضى الله عنها مؤمنة صالحة قانتة صوامة قوامة ، صناع اليد ، تعمل بيدها فتكسب وتتصدق به على المساكين . ولما كانت حادثة الافك سألها النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها ماذا علمت أو رأيت « عن عائشة » فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً ، وقد وصفت السيدة عائشة السيدة زينب بالوصف الجميل فى

قصة الافك ، وأن الله عصمها بالورع ، وقالت عنها هى التى كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه ، ولم تكن امرأة خيراً منها في الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تتصدق به ويقرب إلى الله تعالى وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقا به ، فصدق فيها قوله صلى الله عليه وسلم أولكن لحوقا بي أطولكن يداً ، فكانت أولهن لحوقا به وأطولهن يدا بالمعروف والصدقة والبر ، قالت رضي الله عنها حين حضرتها الوفاة ، إنى قد أعددت بكفني وإن عمر سيبعث إلى بكفن فتصدقوا بأحدها ، وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى فافعلوا ، فذهبت كما قالت السيدة عائشة : حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل ، بعث إليها عمر باثنى عشر ألفاً عطاء لها فجعلت تقول : اللهم لا يدركني هذا المال من قابل فانه فتنة ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فأجاب الله دعاءها ولم تأخذ العطاء إلا عاما واحدا ، وماتت رضى الله عنها بالمدينة سنة عشرين للهجرة ، وهى بنت خمسين سنة وصلى عليها عمر رضى الله عنه ، وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث فى الكتب الستة ، وروى عنها كثير من الصحابة رضي الله عنها وعنهم فترى من هذا أنه تزوجها بأمر ربه للتشريع الذى هو مرسل له ، فكان لزاما عليه تنفيذ أمر ربه ، ولم يكن لغرض نفسى ، بل بوحي من ربه ، والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل .

٩ - السيدة جويرية رضى الله عنها

هى ثالثة السيدات العربيات من غير قريش ، وهى السيدة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب بن أبى عائذ بن مالك بن خزيمة ، وهو المصطلق بن سعد بن كعب بن عمرو ، وهو خزاعة ، وكانت متزوجة مسافع ابن صفوان المصطلقى المقتول كافراً يوم المريسيع « وغزوة المريسيع كانت فى شعبان سنة خمس » وكانت جويرية قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى الخزرجي خطيب الأنصار ومن كبار الصحابة بشره النبي ﷺ بالجنة فقتل شهيداً باليمامة ولما وقعت فى سهمه كاتبته على نفسها بتسع أواق من ذهب ، وكانت بنت سيد المصطلق ، وكانت ذات بهجة وحسن منظر ، فجاءت رسول الله ﷺ ، وقالت يارسول الله : إنى امرأة مسلمة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ؛ وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك ، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس ابن شماس ، وإنى كاتبته على نفسي فكاتبنى على مالا طاقة لى به ، ولا قدرة لى عليه ، وهو تسع أواق من الذهب ، وجئت أسألك فى كتابتي فقال ﷺ : فهل لك إلى ماهو خير ؟ فقالت : وما هو يارسول الله ؟ قال أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله قد فعلت ، فأرسل إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت : هى لك يارسول الله ، بأبي وأمى ، فأدى ﷺ ما كان من كتابتها وأعتقها وتزوجها

فتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية فأعتقوا ما بأيديهم من السبي الباقي بلا فداء ، وقالوا هم أصهار رسول الله ﷺ فما وجدت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ، أعتق بسببها أهل مائة بيت من بني المصطلق ، وجاء أبوها لفدائها بإبل معه ؛ فرغب في بعيرين منها . فغيبهما بالعقيق ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فقال يا محمد هذا فداء ابنتي ، فقال ﷺ فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق ، فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له ، وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ودفع الابل إلى النبي ﷺ ، ويروى أنه لما قدم أبوها ليأخذها ، قال له النبي ﷺ ، أرأيت إن خيرتها ، أليس قد أحسنت ، قال بلى ! فأتاها أبوها ، فقال : إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا ، قالت : فاني أختار الله ورسوله ، وأسلم بسببها بنو المصطلق وحسن إسلامهم ، وكان زواجها سنة خمس ، وسنها عشرون سنة ، فأكرمها الله بالاسلام ، وزواجها بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فملأ الله قلبها نورا وإيمانا ، وزادها رفعة وعلوا ، وشرفا وفضلا ؛ وأصبحت من المؤمنات العابدات ، القانتات الصالحات ، روى أن النبي ﷺ مر بها ، وهي في مسجدها أول النهار ، ثم مر عليها قريبا من الزوال « وهي في مسجدها تعبد الله لم تبرحه » فقال لها : ما زلت على حالك قالت نعم ، قال ألا أعلمك كلمات تقولينهن : سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات ، سبحان الله رضاء نفسه ثلاث مرات ، سبحان الله زنة عرشه ثلاث

مرات ، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات ، وكان زواجها بعد زواج السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنهما ، وقد حجبها النبى ﷺ وقسم لها مع زوجاته ، وتوفيت بالمدينة فى ربيع الأول سنة خمسين وصلى عليها مروان بن الحكم وهو أمير المدينة فى خلافة معاوية ، وقد روت عن النبى ﷺ أحاديث ، وروى عنها ابن عباس وجابر وابن عمر وغيرهم رضى الله عنها وعنهم أجمعين : فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها فأنقذها من السبى والأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل ، وأكرمها من الاهانة ، وكان هذا الزواج سبباً فى عتق قومها وإسلامهم وإعزازهم بالاسلام ، وإكرامهم بصحبة النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان القصد من هذا الزواج هو إكرام الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وفك الرقاب من الرق ، والاكثار من عدد المسلمين ، والترغيب فى اعتناق هذا الدين ، وقد كان ما قصده السيد الأمين ، رسول رب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

١٠ — السيدة ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

هى رابعة السيدات العربيات من غير قريش ، وهى ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن هزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية ؛ وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ابن حماطة بن حمير الحميرية ، وقد عقد عليها ﷺ فى شوال سنة سبع وسنها زهاء خمسين سنة وسنه إحدى وستون سنة وظهر أمر زواجها

وهو ﷺ محرم فى ذى القعدة فى عمرة القضاء ودخل بها بعد أن أحل من هذه العمرة بسرف بطريق مكة على عشرة أميال منها ، وذلك أنه ﷺ أقام بمكة ثلاثا فى عمرة القضاء ، فأتاه حويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو (وقد أسلما بعد) أتيا فى نفر من قريش فى اليوم الثالث ، فقالوا له قد انقضى الأجل فاخرج عنا وكان شرط فى الحديبية أن يعتمر من قابل ويقيم بمكة ثلاثا ، فقال وما عليكم لو تركتمونى فأعرسنا بين أظهركم ، وصنعت لكم طعاما فحضرتموه ، فقالوا لا حاجة لنا بك ولا بطعامك ، فغضب سعد بن عبادة وقال لسهيل كذبت لاأم لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لايبرح إلا طائعا راضيا ، فتبسم النبى ﷺ ، وقال ياسعد لا تؤذ قوما زارونا فى رحالنا ، فخرج ﷺ وخلف أبا رافع على ميمونة فأقام حتى أمسى ، فخرج بها فلقيت من سفهاء مكة عناء ، فأتاه بها بسرف ، فبنى بها فى قبة لها ؛ قالت رضى الله عنها تزوجنى رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف ، وكان صداقها خمسمائة درهم ، وولى زواجها العباس بن عبد المطلب ، وهى خالة بن عباس وخالد بن الوليد رضى الله عنهما ، وأخواتها أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس رضى الله عنهما ، ولبابة الصغرى أم خالد ابن الوليد رضى الله عنهما ، وعزة وهزيلة وأسماء وسلمى وكلهن صحابيات منجبات رضى الله عنهن ، ولذلك كان يقال أكرم عجوز فى الأرض أصهارا هند بنت عوف أصهارها رسول الله ﷺ وحمزة والعباس وعلى وجعفر وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم ، وكانت ميمونة قبل النبى

ﷺ عند أبي رهم بن عبد العزى ، وتوفيت سنة إحدى وخمسين بسرف وهو المكان التى بنى بها رسول الله ﷺ فيه ، وصلى عليها ابن عباس رضى الله عنهما ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد ، وهم أولاد أخواتها ، ودفنت فى موضع قبتها بسرف ، وروى عنها ابن عباس أحاديث ، وقد عمرت حتى نيفت على التسعين رضى الله عنها ، فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها كبيرة السن ثيبا ، وتزوجها لايوائها وحفظها بعد وفاة زوجها ، وكانت لها أخوات متزوجات برجال أفذاذ كرام ، فتزوجها لاحكام الصلة بهم ، وبسبب هذا الزواج أسلم خالد بن الوليد سيف الاسلام ، وغيظ الأعداء ، فكان قصده ﷺ الدين لا الدنيا وغرضه الآخرة لا الأولى . وإلا لم يتزوج بنت خمسين وتزوج بكرا بنت عشرين فأقل ، ولكنه النبي المعصوم الذى يريد وجه الله والدار الآخرة فى كل أموره عليه الصلاة والسلام .

١١ — السيدة صفية رضى الله عنها

هى السيدة غير العربية من نسائه ﷺ كانت من بني اسرائيل وهى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب من بني النضير من سبط لاوى ابن يعقوب ثم من ولد هرون بن عمران أخى موسى عليهما السلام ، قال الجاحظ ولد صفية مائة نبي ومائة ملك ، ثم صيرها الله أمة لنبيه ﷺ فأعتقها ، وكان أبوها سيد بني النضير قتل مع بنى قريظة ، وكانت صفية زوجة لسلام بن مشكم القرظى ثم فارقها فخلف عليها كنانة بن أبى الحقيق

فقتل عنها يوم خيبر في المحرم سنة سبع للهجرة ، فأخذت رضى الله عنها في السبي ، ولما جمع السبي أتى دحية بن خليفة فقال يارسول الله أعطني جارية من السبي ، قال اذهب فخذ جارية ، فأخذ السيدة صفية ، فقيل له : يارسول الله أخذ دحية صفية بنت حي سيد قريظة وسيد النضير ، ماتصلح إلا لك ، لأنها من بيت رياسة وبيت نبوة ، قال ادعوه بها فجاء بها ، فقال له خذ جارية غيرها ، وذلك لئلا يمتاز بها دحية عن سائر الجيش وفى الجيش من هو أفضل منه ، ولئلا تذل عنده وهى من بيت الملك والنبوة . قالت رضي الله عنها : أعتقنى ﷺ وجعل عتق صداقى ، فلما كان بالصهباء على عشرة أميال من خيبر طهرت وانقضت عدتها فدخل بها النبي ﷺ فى فسطاط له ، ولما أصبح قال : من كان عنده شيء فليجيء به وبسط نطعاً وجاء كل مما عنده من الطعام وجمعوا ذلك وخلطوه فكانت هذه وليمتها ، ومد الحجاب بينها وبين الناس ، فهى من أمهات المؤمنين ، ولما ارتحلوا وضع ﷺ لها فخذها لتركب الراحلة ، فأجلته أن تضع رجلها على فخذه ، فوضعت ركبتها على فخذه وركبت وسار الركب حتي دخلوا المدينة ، وأنزلت فى بيت لحارثة بن النعمان ، فجاء نساء الأنصار وجاءت عائشة يستقبلنها ويرين جمالها . فسأل النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها فقال : كيف رأيت ياعائشة . . ؟ قالت رأيت يهودية ، فقال : لاتقولى ذلك فأنها أسلمت وحسن إسلامها وعن صفية رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله ﷺ وأنا أبكي وقد بلغني أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما قالتا نحن أكرم على رسول الله ﷺ

منها ، نحن أزواجه وبنات أعمامه ، فقال مايبكيك ؟ فذكرت له ذلك فقال : ألا قلت كيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هرون وعمي موسى عليهم الصلاة والسلام ، وكانت رضى الله عنها عاقلة حليمة فاضلة ، ولما كان ﷺ فى مرضه الذى توفي فيه اجتمع عنده نساؤه رضي الله عنهن ، فقالت صفية : إني والله يانبي الله لوددت أن الذى بك بي ؛ فتغامزن بها فقال ﷺ : والله إنها لصادقة ، وقد روت عنه ﷺ أحاديث وروى عنها غيرها ، وتوفيت فى رمضان سنة خمسين فى زمن معاوية ودفنت بالبقيع وسنها ستون سنة ، روى عنها أنها قالت : مابلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ فهي على ذلك ولدت بعد البعثة بثلاث سنين رضى الله عنها . فترى من ذلك أن زواجها كان لصيانتها وحفظها وفكها من الرق والعبودية ، وقد خيرها النبى ﷺ بينه وبين أهلها فاختارته عليه الصلاة والسلام ، فأكرمها كل الاكرام وقصد ﷺ بهذا الزواج فوق ذلك أن يرغب الاسرائيليين فى الاسلام

فهؤلاء السيدات الكاملات أزواجه الطاهرات اللائى دخل بهن بلا خلاف ، وهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، وقد علمت أنه ماتزوج بواحدة منهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية ، وأغراض شريفة سامية ، وهو عليه الصلاة والسلام مرسل للتبليغ وأهم وأعظم مايبلغه متعلق بالأسرة وأحوالها وأحوال الرجل مع المرأة وأحوال المرأة مع الرجل ، وأحوال المرأة الخاصة ، وهذه الأحوال عليها قوام الأسرة ، وحياة الامة ، وهى معقد نظامها ، وأساس بقائها — لذلك تعددت

زوجاته الكريمات لينقلن عنه تلك الأحوال البيتية الدقيقة المتعلقة بالمرأة والرجل من طهارة وغسل وحيض ونفاس وولادة ورضاع وما إلى ذلك من أمور البيت السرية التي يتعلمها النساء بعضهن من بعض من غير استحياء ولا خجل فيعرفن حكم الدين على وجهه الصحيح وقد روى الأحاديث البيتية عن النبي ﷺ أزواجه الطاهرات، وللسيدة عائشة من ذلك النصيب الأوفر، بطول عشرتها معه ﷺ وتربيتها في كفالته وهي بنت تسع سنين مع ماوهبها الله تعالى من ذكاء وفطنة وعلم وفهم رضي الله عنها، والنبي ﷺ ليس كسائر الناس تكون مفارقته سهلة على النفس، حتى كان يفارقه من زدن على الأربع، فان أبا بكر رضي الله عنه كان لا يهدأ له مقام بعيدا عن النبي ﷺ، فكان لا يفارقه إلا عند الضرورة، ومتى كان معه لا يغفل عن النظر اليه، وكان هو والصحابة رضي الله عنهم لا يعدون من عمرهم الأوقات التي تمضي عليهم في غير حضرة النبي ﷺ، فما بالك بالنساء اللاتي يقول فيهن الله تعالى (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) إنهن رضي الله عنهن قد رأين وشاهدن وعلمن عنه ﷺ ماجعلهن يفضلن الموت على مفارقته، وجعل حفصة رضي الله عنها تبكي بكاء الثكلى حين علمت أنه طلقها ولم تهدأ حتى راجعها، وجعل سودة رضي الله عنها تصرح بأنها لا تبغي إلا التشرف بأن تكون من أزواجه في الدنيا والآخرة، وجعلهن جميعاً يخشين غضبه، ويخفن فراقه، ويخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا ومتاعها، وهو ﷺ الرءوف الرحيم بالمؤمنات والمؤمنين، وقد

أباح الله له الطلاق فى قوله (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) ولكنه لم يفعل شفقة منه ورحمة ، وأباح الله له الجمع بين أكثر من أربع لأنه لا يأخذ ويطلق كغيره ، بل يأخذ ويربى ويهذب ويعلم ويزكى ويطهر كما قال جل شأنه (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ) ولم يجمع بين أكثر من تسع ، وقد قصره الله على هؤلاء التسع اللائى توفى عنهن بقوله (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) فكان غيره من المسلمين يأخذ أربعا وله أن يطلق ويأخذ غيرهن وهكذا في حدود الشرع والعدل ، أما هو ﷺ فكان له أن يطلق ، ولكن ليس له أن يأخذ غير من يطلق ، فكأنه مقيد بما لم يتقيد به غيره وذلك أظهر دليل على أنه لا يعمل إلا عن وحى ، ولا يصدر إلا عن أمر ولم يطلق واحدة منهن ، لأن الله حرمهن على غيره من بعده مع إباحة الطلاق له ؛ قال تعالى (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا) فمع إباحة الطلاق له لم يفعله رحمة ورأفة بمن يطلقها أن تبقى بلا عائل ، فكأنه كان مقيداً عن الطلاق والزواج ، فى حين أن غيره من أتباعه يباح له الطلاق والزواج فكيف يقول الجاهلون إنه خص نفسه بما لم يبحه لغيره ، وغيره ﷺ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمع بين الزوجات أكثر منه كثيراً ، فلم يأت ﷺ بما لم يأت به غيره من الانبياء ، ولم يكن بدعا من الرسل ، ولم يفعل مافعله ﷺ إلا عن وحى قال تعالى (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ

أَزْوَاجَكَ) وقال (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) ولما اجتمع عنده التسع قال له (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ)

أما بعد فقد كان لزواجه ﷺ بأكثر من أربع وجمعه بينهن أكبر هاد للمسلمين فى دينهم ومعاملتهم لأزواجهم وإقامة العدل ، وإكرام العشير ، وتقرير الأحكام والنظر إلى الصالح العام ، وبهذا الزواج أوثق روابط الصلة بين القبائل من قريش وغيرها ويسر السبيل لدخول كثير منهم فى الاسلام ، وأوى كثيرا ممن فقدن أزواجهن ، ولو كان يريد بالتعدد مايريده الملوك والامراء من التمتع واللذة ليس غير لانتخب الحسان الأبكار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات الكهلات الكبيرات ، ولكنه النبي المعصوم الذى وهب نفسه وقوته وحياته لرفعة الدين ، وهداية المسلمين ، والرحمة بالمؤمنين ، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ

لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً * إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً

أنهيت الكلام على السيدات الطاهرات بذكر نبذة عن حياة كل واحدة منهن رضي الله عنهن وأستعين بالله في المضي في تفسير بقية السورة حتى أتمها بفضل الله ونعمته فأقول وعلى الله أتوكل : —

مناسبة هذه الآيات لما سبقها أن كلا منهما في أحكام وأخبار تتعلق بالسيدات الطاهرات ، فان الله تعالى لما خيرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة وبين الدنيا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكافأهن على ذلك بقصره ﷺ عليهن في قوله : (لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) وكافأهن بالصيانة والحفظ والحجاب في قوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ وفي الآيات السابقة بين ما تجب رعايته من حقوقهن على النبي ﷺ وفي هذه الآيات بين ما تجب مراعاته من حقوقهن على الناس ، والسبب في نزول هذه الآيات ما عليه أكثر المفسرين من أنها نزلت في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بني بها رسول الله ﷺ .

روى الشيخان عن أنس بن مالك قال كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل ، وكان أول ما أنزل في بناء رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً . فدعا القوم فأصابوا من الطعام ، ثم

خرجوا وبقى رهط عند النبي ﷺ ، فأطالوا المكث ، فقام رسول الله ﷺ فخرج وخرجت معه ، لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة ، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فاذاهم جلوس لم يقوموا ، فرجع النبي ﷺ ورجعت ، حتى إذا بلغ حجرة عائشة فظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذاهم قد خرجوا ، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر ، وأنزل الحجاب ، وزاد في رواية قال دخل : يعني النبي ﷺ البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة وهو يقول (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) إلى قوله (وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المواضع الخالية لقضاء الحاجة من البول والغائط ، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : ألا قد عرفناك ياسودة ، حرصاً على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن الآية (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ ، أنزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل الطعام ، ويجلسون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم ، فنزلت الآية ، وروى عن أنس بن مالك قال قال عمر بن الخطاب يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؛ فأنزل الله آية الحجاب . وعن عائشة رضى الله عنها قالت كنت آكل مع النبى صلى الله عليه وسلم طعاما فى قعب ، فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعى ، فقال عمر أوه ، لو أطاع فيكن مارأتكن عين ، فنزلت آية الحجاب ، وعن قتادة رضى الله عنه فى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلى قوله : (غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) قال غير متحينين طعامه (وَلَـكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) قال كان هذا فى بيت أم سلمة رضى الله عنها : أكلوا ثم أطالوا الحديث ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يخرج ويدخل ويستحي منهم والله لا يستحي من الحق (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) قال بلغنا أنهم أمروا بالحجاب عند ذلك (لاَجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ) قال فرخص لهن ألا يحتجبن من هؤلاء . وروى عن أنس رضى الله عنه قال : لما تزوج النبى ﷺ زينب أهدت إليه أم سليم حيساً فى قدر من حجارة ، فقال النبي ﷺ اذهب فادع من لقيت من المسلمين ، فدعوت له من لقيت فجعلوا يدخلون فيأكلون ويخرجون ، فوضع النبى ﷺ يده على الطعام فدعا فيه ، وقال فيه ما شاء الله أن يقول ، ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته ، فأكلوا حتي شبعوا وخرجوا ، وبقيت طائفة منهم فأطالوا عليه الحديث

فأنزل الله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) إلى قوله (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) وعن أنس رضى الله عنه قال : نزل الحجاب مبتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها، وذلك سنة خمس من الهجرة ، وحجب نساؤه من يومئذ، وأنا ابن خمس عشرة سنة ، وعن صالح بن كيسان قال نزل حجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، ولا مانع أن يكون كل ماذكر جميعه من أسباب النزول والله أعلم ، وقد وافق القرآن الكريم رأى عمر رضى الله عنه فى هذه الحادثة

وبهذه المناسبة أذكر الحوادث التى وافق فيها القرآن الكريم رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١ — هذه الحادثة حادثة الحجاب . قال رضى الله عنه يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله تعالى آية الحجاب(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ

٢ — اتخاذ مقام ابراهيم عليه السلام مصلى ، قال عمر رضي الله عنه يارسول الله : لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى ، فأنزل الله تعالى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) والمعنى (اتَّخِذُوا) أيها الناس (مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) عليه السلام . وهذا المقام هو الحجر الذى قام

عليه عند بناء البيت الحرام، وهذا الحجر غير الحجر الأسود ، وطوله ذراع وعرضه ذراع ، ومن بمعنى عند والمعنى اتخذوا عند مقام ابراهيم عليه السلام (مُصَلًّى) مكانا للصلاة ، بأن تصلوا عنده ركعتى الطواف .

٣ — حادثة أسرى بدر ، فقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضى الله عنهم فى أمر أسارى بدر فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله هؤلاء أئمة الكفر فاضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر رضى الله عنه نأخذ الفداء ونطلقهم ، عسى أن يسلموا ، فكانت أغلبية الصحابة على رأى أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين ، فعمل الرسول بهذا الرأى وأطلقهم ، وأخذ الفداء منهم ، ومن لم يستطع أن يفدى نفسه كان فداؤه تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، فنزل القرآن الكريم بموافقة عمر رضى الله عنه ، فى قوله تعالى (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) ويبالغ فى قتال الكافرين المعاندين المحاربين (تُرِيدُونَ) أيها المؤمنون الذين رأوا أخذ الفداء (عَرَضَ) حطام (الدُّنْيَا) بأخذ الفداء (وَاللَّهُ) عز وجل (يُرِيدُ) لكم (الْآخِرَةَ) ثواب الآخرة بقتلهم والانتصار عليهم حتى يرتدع بهم غيرهم من أمثالهم الواقفين عقبة كئودا فى سبيل الدين ونصرة المسلمين (لَوْلَا كِتَابٌ) لولا حكم (مِنَ اللَّهِ) العزيز العليم (سَبَقَ) فى اللوح المحفوظ باحلال الغنائم والأسرى لكم (لَمَسَّكُمْ) لأصابكم (فِيمَا) بسبب ما (أَخَذْتُمْ) من الفداء (عَذَابٌ عَظِيمٌ) شديد لايثار

العاجلة على الآجلة ، ولما نزلت هذه الآية بكوا وكفوا أيديهم عن الفداء فنزل قوله تعالى :(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً) فصار الحكم بعد ذلك فى الأسرى الإثخان فى القتل ثم الخيار فى الأسرى، بالقتل أو العتق ، أو الفداء بالمال أو بنظيرهم من المسلمين المأسورين ، كما قال تعالى (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ) أى بعد القتل والأسر ، والمن إطلاقهم عتق (وَإِمَّا فِدَاءً) بالمال أو بنظيرهم من المسلمين المأسورين، وإما أن يبقوا أرقاء، ورضى النبى ﷺ رأى الأغلبية أخذا بمبدإ الشورى من العمل برأى الأغلبية، ولأن فيه حقنا للدماء، وتألفا للأسرى وأهليهم عسى أن يسلموا، وتألفا لمن أسلموا ولهم فى الأسرى قرابة ، ولم يكن قد نزل حكم يمنع أخذ الفداء فليس عليه ﷺ أى مأخذ فى ذلك ، لأنه قصد هذه المقاصد الشريفة ، ولم يبد رأيه فى الفداء بل صار مع الأكثرية التى أقر الله رأيها بعد ، فنزل قوله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً) ومما غنموا الأسرى ، وقوله تعالى فى الأسرى: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)

٤ — حادثة مارية القبطية رضى الله عنها . وذلك أن حفصة زوج النبى ﷺ استأذنته فى يومها أن تزور أبويها . فأذن لها ، وأرسل إلى مارية فجاءت إليه فى بيت حفصة ، فلما رجعت حفصة ورأت مارية فى بيتها ، غضبت فأسر إليها النبى ﷺ أنه لا يقرب مارية وحلف لها على ذلك ، وأسر إليها أن الخلافة بعده لأبى بكر ثم عمر ، فأفشت سره إلى عائشة ، وكانت تحبها ، ففرحتا ، وكان ذلك الافشاء والفرح تظاهراً منهما عليه ﷺ

فأسف الرسول من تظاهرهما ، وإفشاء حفصة سره إلى عائشة ، فحلف ألا يدخل على نسائه شهراً مؤاخذة لهن ، ومكث الشهر فى بيت مارية بعد أن كفَّر عن يمين تحريمها بعتق رقبة ، وعلم بذلك عمر رضى الله عنه ، وشاع فى الناس أنه ﷺ طلق نساءه لما اعتزلهن ، فقال عمر : يا رسول الله : لا يشق عليك أمر النساء ، فان كنت طلقتهن ، فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، قال عمر : وقلَّما تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقوله ، فأنزل الله تعالى : (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) وقال عمر رضى الله عنه لأمهات المؤمنين حين اجتمعن رضي الله عنهن على الرسول يطالبنه بنفقة كثيرة : لتكففن عن رسول الله ﷺ أو يبدله الله أزواجا خيراً منكن ، فأنزل الله تعالى : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ) . ولما انتهى الشهر تسعاً وعشرين عاد ﷺ إلى نسائه ، وبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فاستأذنه عمر رضى الله عنه أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، فقام على باب المسجد ، ونادى بأعلى صوته : لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ، واعلم أنه لا شىء فى تحريم مارية رضى الله عنها لأنه ليس تحريماً مؤبداً ، بل له أن يرجع فيه متى شاء ، وقد حصل ورجع وكفَّر عن يمينه بعتق الرقبة ، وكان

هذا التحريم لمنع ما كان سيقع من الخصام بين أزواجه رضى الله عنهن وليكون هذا التحريم والرجوع فيه بالعتق تشريعاً للمسلمين.

٥ — حادثة عبد الله بن أبي بن سلول الذى كان رأس المنافقين، وهو الذى تولى كبر حديث الافك، وإشاعته فى الجيش وهم راجعون من غزوة بنى المصطلق، وهو المقصود بقوله تعالى: (وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وذلك أنه لما توفى عبد الله بن أبى ابن سلول جاء ابنه عبد الله رضى الله عنه فدعا النبي ﷺ ليصلى على أبيه رجاء أن يغفر الله لأبيه فأجابه النبي ﷺ إلى مادعا تسلية له ومراعاة لجانبه، وكان عبد الله طلب إلى النبى ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه لعله أن يخفف الله عنه بسببه، فأعطاه ﷺ قميصه وصلى على أبيه تطييباً لقلبه رضى الله عنه، فانه كان من خيار الصحابة، وكان من أصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة، وأشرحهم بالايمان صدراً. فلما قام النبي ﷺ يصلى على عبد الله بن أبى بن سلول، حال عمر رضى الله عنه دون ذلك، فأخذ بثوب النبى ﷺ ومنعه من الصلاة عليه، ولكن الرسول لم يمتنع وصلى عليه فنزل قوله تعالى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) فلما نزلت هذه الآية لم يصل بعدها رسول الله ﷺ على منافق ولم يقم على قبره، وهذه الحادثة

تدلنا على كمال خلقه صلى الله عليه وسلم ؛ وعظيم عفوه ، وكبير صفحه ، وحسن عطفه على أصحابه رضي الله عنهم .

٦ — حادثة الاستغفار للمنافقين . لما فضح الله المنافقين بما أنزل فيهم من القرآن ، وعلموا أنهم كاذبون ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم ، فاستغفر لهم يتألفهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى أن يهديهم إلى الصواب ، فنزل قوله تعالى (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فقال صلى الله عليه وسلم : « لأزيدن على السبعين » زيادة فى الرحمة وحباً فى الخير وأخذ فى الاستغفار لهم ، فقال عمر يا رسول الله ؛ والله لا يغفر الله لهم أبداً استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لأنه رضى الله عنه شاهد وعلم ما فعلوه وأتوه من الاضرار بالرسول وأصحابه والمكر والكيد لهم ، وضروب النفاق التى أوقعت به ﷺ وبأصحابه أذى شديداً مما جعلهم من أهل النار وأصحاب جهنم لعنهم الله فأنزل الله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فامتنع عن الاستغفار لهم .

٧ — لما نزل قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال عمر : تبارك الله أحسن الخالقين ، فنزل قوله تعالى : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

٨ - لما قال أهل الافك فى السيدة عائشة ما قالوا استشار النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضى الله عنه فيها ، فقال عمر يارسول الله من زوجكها ؟ قال الله تعالى : قال أفيظن عن اختارها الله لرسوله ﷺ سبحانك هذا بهتان عظيم ، فأنزل الله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ، سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) .

٩ - كان عمر رضى الله عنه حريصاً على تحريم الخمر ، لما رآه من مضارها ، وكان يقول : اللهم بين لنا فى الخمر فانها تذهب المال والعقل فأنزل الله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) فتلاها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فلم ير فيها بياناً شافياً ، فأنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فتلاها عليه النبى صلى الله عليه وسلم فلم ير فيها بياناً شافياً ، فقال اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فتلاها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال رضى الله عنه عند ذلك : انتهينا يارب انتهينا

١٠ — أرسل رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار إلى عمر رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل بيت عمر من غير استئذان ، فرأى عمر على حالة كره عمر رؤيته عليها ، فقال عمر : يارسول الله ، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فأنزل الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

١١ — لما نزل قوله تعالى : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) بكى عمر وقال يارسول الله ، وقليل من الآخرين ، آمنا برسول الله ﷺ ، وصدقناه ، ومن ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) فدعاه رسول الله ﷺ وقال له قد أنزل الله فيما قلت ، فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، وتلك الموافقات مما تدل على مكانة عمر رضى الله عنه وبعد نظره مما جعله ثانى الخلفاء الراشدين والأئمة العادلين رضى الله عنهم أجمعين ، وأعود للتفسير فأقول : قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله ، وبما أنزل عليه من ربه

(لَا تَدْخُلوا) فى أى حال من الأحوال ولا فى أى وقت من الأوقات (بُيُوتَ النَّبِيِّ) محمد ﷺ وهذا شروع فى بيان بعض الحقوق الواجبة على الناس للنبي ﷺ وهو عند نسائه الطاهرات رضي الله عنهن بعد ما بين الحقوق الواجبة لهن على رسوله ﷺ ، وفيه بيان لبعض حقوقهن الواجبة على الناس ، والنهى فى قوله (لَا تَدْخُلُوا) للتحريم ، وأضاف البيوت إلى النبي ﷺ لأنها ملكه ، وأما قوله : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) فالاضافة إليهن لأنها منازلهن لاملكهن ، ولذلك تورث عنهن بعد وفاتهن ، بل جعلت زيادة فى المسجد النبوى الذى يعم المسلمين نفعه ، ولأن الله تعالى جعل الاذن فى الدخول فيها إلي النبى ﷺ فى قوله : (إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) فى دخولها منه ﷺ لأنه رب هذه البيوت ، والاستثناء من عموم الأحوال أو الأوقات ، والمعنى لا تدخلوا فى حال من الاحوال إلا حال الاذن لكم ، أو لا تدخلوا فى وقت من الاوقات إلا وقت الاذن لكم ، فالمصدر المؤول من أن والفعل مضاف أو منصوب على الحال ، والمعنى لا تدخلوا إلا وقت الاذن لكم أو إلا مأذو نين ، أو متعلق بالحال والتقدير إلا مصحوبين بالاذن ، وعلى ذلك يحرم الدخول بغير إذن مطلقاً ، وقوله : (إِلَى طَعَامٍ) متعلق بقوله (يُؤْذَنَ) مضمناً معني تدعى ، فالمعني لا تدخلوا إلا أن تدعوا إلى طعام ، وقيد الدخول بقوله إلى طعام لأنه الغالب فى الدعوة ، ولأن الحادثة كانت فى الدعوة إلي الطعام ، وهو طعام السيدة زينب زوج النبي ﷺ ، والمراد إلى

طعام أو غيره ، ثم قيد الدخول بقيد آخر وهو قوله : (غَيْرَ نَاظِرِينَ) غير منتظرين (إِنَاهُ) نضجه واستواءه وإدراكه ، فالمعنى لا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم ولا تدخلوا غير منتظرين إناه ، وإنى كرضا مصدر سماعي ،لأنه من أنى يأنى كرمى يرمى،فقياسه الأنى كالرمى . ولما كان هذا النهى قد يمنعهم من قصد بيوت النبى صلى الله عليه وسلم استدرك على هذا النهى فقال : (وَلَكِنْ) لا يمنعكم هذا النهى عن قصد بيوته صلى الله عليه وسلم للتشرف به ، وأخذ الشرع والحكمة عنه ، وأكل طعامه ، وشرب شرابه (إِذَا دُعِيتُمْ) إلى شىء من ذلك ، فاذا دعيتم (فَادْخُلُوا) بيوته صلى الله عليه وسلم حيث دعاكم ، فان كانت الدعوة للطعام (فَإِذَا طَعِمْتُمْ) وأكلتم الطعام ، أو شربتم الشراب ، ورأيتم أن لا داعى للانتظار ، ولم يطلب منكم الانتظار (فَانْتَشِرُوا) فى الارض إلى منازلكم أو إلى أى جهة تشاءون (وَلاَ) تمكثوا بعد الأكل فى هذا البيت الذى دعيتم إلى الطعام فيه (مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) فيأنس بعضكم لحديث بعض ، أو لحديث أهل البيت مما يطيل مكثكم ، ويجعل صاحب البيت وأهله يتأذون منكم ، وقدقيل زرغباً تزددحباً ، والضيف يثقل إذا طال مكثه ، ولذلك قال تعالى (إِنَّ ذَلِكُمْ) إشارة إلى الدخول بغير إذن ، والدخول مع انتظار نضج الطعام ، والمكث الطويل الممل بعد الأكل كل ذلك (كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ) صلى الله عليه وسلم

لما فيه من تضييق المنزل عليه وعلى أهله ، ولأنه يشغله عما يهمه ويعنيه من السعي لخير المسلمين ، والخلوص لرب العالمين ، فوقته أثمن من أن يصرف إلا في طاعة الله عز وجل ، أو في خيركم ونفعكم في دينكم ودنياكم ، ثم بين هذا الأذى بقوله (فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ) أن يخرجكم من بيته ، فيكظم ذلك في نفسه تأدباً منه ﷺ ، وشفقة عليكم ، وتألفاً لكم (وَاللَّهُ) سبحانه وتعالى الذي يعلم ماينفعكم وما يضركم ، ويعلم أن مكثكم يؤذي نبيه ﷺ (لَا يَسْتَحْيِي) لا يمنعه (مِنَ الْحَقِّ) أن يذكره أي مانع ، فهو تعالى يقول الحق ويأمر به ويرشد إليه ، وقال لايستحيي للمشاكلة ، كما في قوله (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) . وهذه الآداب ليست خاصة بالنبي ﷺ وأصحابه ، بل هي تشريع لكل المسلمين ، يجب على كل مسلم مراعاتها ، والعمل بها ، ومثل من يتأخر بعد الأكل ، من يتأخر قبل الأكل ولا يعتذر ، أو يحضر متأخراً يقصد بذلك أن يحترمه الناس بالقيام له وقت حضوره وأن يتأخر تقديم الأكل بسببه ، وما شاكل ذلك ، من المقاصد التي يراد بها حب الذات وحمل الناس على فعل ما يكرهون ، وعلى أن يغتابوه ، وكثير من الناس يفعل ذلك ولا يبالي ، فيضر الحاضرين ، ويضر نفسه ، ويضر صاحب المنزل ، الذي قد يقدم الطعام للحاضرين ، ثم يجيء هذا المتأخر فيكره صاحب المنزل على أن يعدله طعاماً جديداً ، وفي ذلك مافيه من الارتباك لصاحب المنزل وأهل المنزل ، وفي هذا أذى

كثير . ثم شرع يذكر حقاً آخر له ﷺ ولأمهات المؤمنين على المؤمنين فقال عز وجل (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ) وإذا سألتم أزواجه ﷺ (مَتَاعاً) وهو كل ماينتفع به من ماعون وغيره (فَاسْأَلُوهُنَّ) رضى الله عنهن ما تريدونه من المتاع (مِنْ وَرَاءِ) من خلف (حِجَابٍ) ستر يكون بينكم وبينهن بحيث لا ترونهن (ذَلِكُمْ) الذى تقدم بيانه وهو عدم الدخول بغير إذن ، وترك انتظار نضج الطعام ، وترك الاستئناس للحديث بعد الانتهاء من الأكل ، وسؤال المتاع من وراء حجاب ، كل ذلك (أَطْهَرُ) أكثر تطهيراً (لِقُلُوبِكُمْ) مما يعرض لها عند الاجتماع بالسيدات ورؤيتهن (وَ) هو أكثر تطهيراً (لِقُلُوبِهِنَّ) مما يعرض لها عند هذا الاجتماع وتلك الرؤية قال القرطبى (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) يريد من الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء ، وللنساء فى أمر الرجال ، أى ذلك أنفى للريبة ، وأبعد للتهمة ، وأقوى فى الصيانة والحفظ ، وهذا يدل على أنه لا ينبغى لاحد أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له ، فان مجانبته ذلك أحسن لحاله ، وأحسن لنفسه ، وأتم لعصمته ، ثم أكد حرمة مانهى عنه ، وبين أن أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم لا تحل لأحد من بعده فقال عز وجل (وَمَا كَانَ) وما صح ولا استقام وما أبيح (لَكُمْ) أيها المؤمنون (أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ) محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأى

نوع من أنواع الأذى التى سبق بيانها ، من دخول بيوته بغير إذنه ، أو دخولها منتظرين نضج الطعام ، أو دخولها مستأنسين لحديث بعد أن تطعموا عنده أو أن تسألوا أزواجه بلا حجاب ، أو غير ذلك من أنواع الأذى ، ومن هذا ومما سبق يعلم أن صاحب الاذن فى دخول البيوت هو الرجل ، فليس لمسلم أن يدخل بيت أخيه المسلم فى غيبته متى كان أجنبياً منه وقد أنزل الله آيات الاستئذان فى سورة النور شارحة آداباً عالية لو اتبعناها وعملنا بها ماوقع شيء من تلك الحوادث الدامية الذاهبة بالشرف والاعراض مما تقرؤه فى الصحف من وقت لآخر ، وسببها التفريط فى تلك الآداب السامية ، لا يحل لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ (وَلاَ) يحل لكم (أَنْ تَنْكِحُوا) تتزوجوا (أَزْوَاجَهُ) رضى الله عنهن (مِنْ بَعْدِهِ) من بعد وفاته ﷺ (أَبداً) تحريماً مؤبداً لا طريق لجوازه مطلقاً ، روى أن طلحة بن عبيد الله قال : إذا قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة رضى الله عنها ، فنزل قوله تعالى (وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبداً) فندم طلحة رضى الله عنه ومشى إلى مكة على رجليه من المدينة ، وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله ، وأعتق رقيقاً ، فكفر الله عنه ، ثم أكد حرمة ذلك بقوله تعالى (إِنَّ ذَلِكُمْ) الايذاء ونكاح أزواجه من بعده (كَانَ عِنْدَ اللهِ) تعالى فى حكمه وشرعه ذنباً (عَظِيماً) وإثماً كبيراً يعاقب عليه فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا إشارة إلى علو مقامه ﷺ عند ربه عز

وجل ؛ فقد شدد فى مراعاة ذلك تشديداً كثيراً ، ثم شرع يأمر نابمراعاة ذلك فى السر والجهر والخفية والعلن ، وألا نعمل مع رسول الله ﷺ ولا مع غيره إلا الذى يرضاه الله تعالى ويحبه فقال عز وجل : (إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا) مما يؤذيه ﷺ أو يؤذى غيره من المؤمنين مما سبق بيانه لكم ، أو غيره من أنواع الأذى (أَوْ تُخْفُوهُ) فى صدوركم أو تعملوه فى الخفاء (فَإِنَّ اللَّهَ) تعالى (كَانَ) ولا يزال (بِكُلِّ شَيْءٍ) ظاهر أو خفى (عَلِيماً) لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فهو يعاقب من خالف ويجزى من أساء ، وكل ما ورد فى هذه الآيات من الأحكام واجب اتباعها فى معاملة المسلمين بعضهم بعضاً فهى أحكام عامة وإن وردت فى رسول الله ﷺ ماعدا زواج من يموت عنها زوجها فان الله أحله فى غير أزواجه ﷺ ، وعلى هذا فالحجاب واجب على غير نسائه صلى الله عليه وسلم كما وجب عليهن لقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ومن يقول بغير ذلك فهو خارج على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والحكمة فى أن أمهات المؤمنين لا يتزوجن غيره صلى الله عليه وسلم أنهن سيكن زوجاته فى الجنة ، وأنهن كالأمهات فى الاحترام والحرمة ماعدا الارث وسماهن الله تعالى أمهات المؤمنين فى قوله وأزواجه أمهاتهم ، وفى زواجهن بغيره صلى الله عليه وسلم ضياع لذلك كله ، قال حذيفة رضى الله عنه لامرأته : إن سرك أن تكونى زوجتى فى الجنة — إن جمع الله

بيننا فيها — فلا تتزوجى بعدى ، فان المرأة لآخر أزواجها ، ولذلك حرم الله على أزواج النبي ﷺ أن يتزوجن بعده ، وعن أنس رضى الله عنه قال : سألت أم حبيبة رضي الله عنها رسـول الله ﷺ قالت المرأة منا يكون لها زوجان فتموت فتدخل الجنة هى وزوجها ، لأيهما تـكون ؟ قال ياأم حبيبة لأحسنهما خلقاً كان معها في الدنيا فتـكون زوجته ، ياأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيـا والآخرة يعنى أن صاحب الخلق الحسن ينال خيرى الدنيـا والآخرة ، نسأله سبحانه وتعالى أن يهبنا من فضله حسن الخلق فى كل الأمور والأحوال وفى الحديث إن أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً ، (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَآئِهِنَّ وَلآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلاَ نِسَآئِهِنَّ وَلاَ مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً * إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

مناسبة هذه الآية لما سبقها أن الآية السابقة كانت فى وجوب احتجاب نساء النبى ﷺ عن الرجال ولم تستثن الآية أحداً من الرجال بل قالت (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ) فهذه الآية (لاَجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ) إلخ استثنت ممن يحتجبن عنهم من بينهم، وهم الآباء والأبناء والاخوان وهم: الاخوة، وأبناء الاخوة وأبناء الأخوات، ونساؤهن المتصلات بهن من المسلمات لخدمة أو غيرها أو ماملكت أيمانهن من الاماء والعبيد، والسبب في نزول هذه الاية ما روى أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء والأقارب: أو نحن يارسول الله نكلمهن أيضا من وراء حجاب فنزلت (لآجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلآ أَبْنَائِهِنَّ) الآية والمعنى: لا إثم ولا حرج ولاحرمة على أزواج النبي ﷺ ومثلهن جميع المؤمنات اللائى رأين الحيض، أو كن فى سن يشتهين فيها: من تسع فما فوق (فِى) رؤية (آبَائِهِنَّ) وعدم الاحتجاب عنهم والتكلم معهم من غير ستر بينهم وبينهن ومثل الأب الجد لأب أو لأم (وَلآ) جناح عليهن فى (أَبْنَائِهِنَّ) ولا أبناء أبنائهن ولا أبناء بناتهن (وَلاَ) فى (إِخوَانِهِنَّ) جمع أخ كالاخوة جمع أخ (وَلاَ) فى (أَبْنَاءِ إِخوَانِهِنَّ وَلاَ) فى (أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ) ولا فى أبناء أبناء الاخوة والأخوات ولا فرق فى الاخوة والأخوات بين الاشقاء أو لأب أو لأم، لكثرة

المخالطة الضرورية ، وقلة توقع الفتنة عند عدم الاحتجاب ، والأعمام والأخوال كالآباء لا جناح عليهن فى عدم الاحتجاب منهم ، ولم يذكرهم لأن الأحوط التستر منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم ؛ فان ابني العم والخال ليسا من المحارم ، بل يباح لهما زواج بنتي العم والخال ، وفى حكم المذكورين الذين لا إثم عليهن فيهم كل ذى رحم محرم من نسب أو رضاع ، فلا يحتجبن مثلا عن آباء أزواجهن ، ولا أبناء أزواجهن ، ولا يحتجبن عن آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن من الرضاع (وَلاَ) جناح عليهن فى (نِسَآئِهِنَّ) المختصات بهن لخدمة أو غيرها ، والمراد بهن النساء المسلمات الحرائر من الأمهات والاخوات وسائر القريبات ، ومن يتصلن بهن من المتصرفات لهن والقائمات بخدماتهن وشئونهن ، وقيل يباح ألا يحتجبن عن كل النساء فيما يبدو عند الخدمة من الوجه والرأس والذراعين والقدمين إلى الساقين أما ماعدا ذلك فحرام أن يراه منهن إلا الأزواج (وَلاَ) جناح عليهن فى (مَامَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ) من الاماء والعبيد ، وقيل من الاماء فقط ، ويحتجبن عن العبيد ، ثم أمرهن بتقوى الله تعالى فى كل أحوالهن ومنها ألا يظهرن لغير من أحل الله لهم رؤيتهن فقال جل شأنه (وَاتَّقِينَ اللهَ) تعالى فيما بين الله لكن من الاحكام فلا يراكن غير هؤلاء (إِنَّ اللهَ) تعالى (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) كبير أو صغير ظاهر أو خفى فى الصدور

أو خارجها (شَهِيداً) عليما خبيراً لا يغيب عنه أمر ، ولا تخفى عليه خافية فى الارض ولا في السماء .

والحجاب فى غير أمهات المؤمنين رضى الله عنهن يكون بستر جميع الجسم أو ستر ماعدا الوجه والكفين ، وأما الحجاب فى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن فيكون بسترهن كلهن مع جواز ظهور أشخاصهن مستترات ، أو سترهن وستر أشخاصهن ، فان حفصة رضي الله عنها لما توفي أبوها عمر رضى الله عنه سترتها النساء عن أن يرى شخصها ، وأن زينب بنت جحش رضى الله عنها لما توفيت جعلوا لها قبة فوق نعشها لتستر شخصها ، وصنع ذلك فى جنازة السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ . ومما يشهد للأول وهو ستر أبدانهن دون أشخاصهن أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص ، ثم شرع يذكر حقا خاصاً به ﷺ ذلك هو الحق الذى شرفه الله تعالى به فى حياته وبعدوفاته وهو الصلاة والسلام عليه من الله وملائكته والمؤمنين فقال عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) هذه الآية بينت مقامه المحمود ، ودرجته الرفيعة وعزه الممدود ، وما أعطاه الله من كرم وجود ، لا يعلم قدر ذلك غير من خلقه وصوره ، وكمله وأرسله ، وجعله رحمة للعالمين وهدى للمتقين ، وإماماً للمرسلين ، وقد ذكرها بعد تلك الأحكام ، وهذه الحوادث ، لئلا يظن ظان أنه ﷺ اختص نفسه بشيء ، أو

استأثر لشخصه بأمر، فكل ماتقدم خاصاً به من الأحكام، في الزواج وفي الدخول، وفي احتجاب أزواجه الطاهرات، وفي الاحترام الشديد من فعل ما يؤذيه إنما هو لعلو مقامه، وارتفاع درجته، وأنه ليس كسائر الناس كما بين الله تعالى ذلك بقوله: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ) جميعاً في السموات وفي الأرض وفي كل هذا الملكوت (يُصَلُّونَ) جميعاً (عَلَى النَّبِيِّ) المصطفى المختار سيدنا محمد ﷺ نور الأنوار وسر الأسرار وأصل كل خير، ومصدر كل نعمة، كرامة له من ربه، وتشريفاً له من مولاه، الذي أعلى قدره، ورفع ذكره في قوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) فما رفع به ذكره أنه تعالى وملائكته والمؤمنون يصلون عليه ﷺ، وبالتعبير بالجملة الاسمية في الصدر. وبالجملة الفعلية في العجز إشارة إلى الاستمرار التجددي، فهي تفيد استمرار الصلاة عليه وتجددها وقتاً فوقتاً فلا يمر وقت إلا ويلحقه ﷺ كرامة من ربه ودعاء من ملائكته، وهذا مالم ينله سواه عليه الصلاة والسلام، ويتبين لك مقدار عظمة هذه الصلاة إذا عرفت مقام الألوهية الأعلى، وعرفت أن الملائكة لا يحصيهم كثرة ولا عداً إلا الله تعالى، فهم الملائكة المقربون وحملة العرش، وسكان سبع سموات وخزنة الجنة والنار، والحفظة على الأعمال، وحفظة بني آدم. والموكلون بالبحار والجبال والسحاب والأمطار والأرحام والنطف والتصوير ونفخ الأرواح في الأجسام، وخلق النبات، وتصريف الرياح، ويجرى ان

الأفلاك والنجوم والموكلون بإبلاغ صلاتنا على رسول الله ﷺ والذين يحضرون مجالس الذكر والقرآن . والذين يكتبون الناس يوم الجمعة الأول فالأول ، والمؤمنين على تأمين المصلين ، والمجيبون لقول القائلين ربنا ولك الحمد ، والداعون لمنتظر الصلاة ، واللاعنون لمن هجرت فراش زوجها ، إلى غير ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة ، روى أن سيدنا عثمان سأل النبي ﷺ عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمي ، فقال لكل آدمي عشرة ملائكة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وواحد عن يمينه وآخر عن شماله . واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على شفتيه ، ليس يحفظان عليه إلا الصلاة على محمد . واثنان على جنبيه . وآخر قابض على ناصيته ، فان تواضع رفعه . وإن تكبر وضعه والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه : يعني إذا نام اه وليس فى العالم العلوى . ولا فى العالم السفلى مكان إلا وهو معمور بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، وقد ثبت أن الله جزء الخلق عشرة أجزاء ، فجعل الملائكة تسعة أجزاء ، وجزء سائر الخلق . وفى حديث المعراج المتفق على صحته أن البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا . وفى الحديث أطت السماء وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك واضع جبهته ساجد ، وهؤلاء جميعاً يصلون على سيدنا محمد رسول الله ﷺ بنص القرآن حيث كانوا وأين كانوا ، فأعظم به من فضل ، ومن درجة رفيعة عالية ، لم ينلها سواه ﷺ .

وعن كعب أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب مامن فجر إلا ينزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا خرجوا وهبط سبعون ألفاً حتى يحفوا بالقبر، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ: سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج فى سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه، وفي لفظ يوقرونه، رواه إسماعيل القاضي، وابن بشكوال، والبيهقى فى الشعب والدارمى فى باب ماأكرم الله تعالى به نبيه ﷺ من جامعه، وابن المبارك فى الرقاق له، ولا يعلم مبلغ عدد الملائكة إلا علام الغيوب قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) فاذا عرفت ذلك وعرفت مقدار العدد الذى صلى على النبي ﷺ من بنى آدم من عهد النبى ﷺ إلى يوم القيامة عرفت أن هذا هو المقام الذى لا يدانى، والشرف الذى لايسامى، والفضل العظيم الذى لم يكن لأحد غيره ﷺ من الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام. والصلاة من الله تعالى معناها الرحمة ولهذه الرحمة آثار تختلف باختلاف من يصلى عليه الله عز وجل، فان الله كما يصلى على نبيه ﷺ يصلى على المؤمنين قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى: (أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) فهذه الرحمة تختلف باختلاف من يصلى عليهم ربهم؛ فهى بالنسبة له ﷺ ثناء الله

تعالى عليه ، وتعظيمه عند الملائكة والعباد باعلاء ذكره ، ورفع قدره ، وإظهار شرفه ، وإعلان دينه ، وإبقاء العمل بشريعته ، وتكريم أمته ، وحفظ كتابه المنزل عليه من ربه إلى غير ذلك مما أكرمه به في الدنيا ، وفى الآخرة تظاهر عليه رحمة ربه بتشفيعه فى أمته وفى كل الأمم ، وتعظيم أجره ، وإبداء فضله للأولين والآخرين ، بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، وتقديمه على جميع المقربين بالشهود ، ورؤية الملك المعبود ، وإلى غير ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله ، الذى اختاره واصطفاه ، وأحبه واجتباه ، وفضله وقربه ، وأكرمه وعظمه ، وإذا اشترك معه فى الصلاة عليه أحد فالرحمة لكل على حساب مقامه وقدره عند ربه جل جلاله ، والصلاة من الملائكة معناها الدعاء بالاستغفار أو غيره ، وفى الاستغفار وغيره رفع درجات وعلو منازل ولا يلزم من الاستغفار أن يكون هناك ذنب يستغفر له ، فقد يكون الغرض منه مجرد الذكر ، والاقرار لله تعالى بأنه صاحب المغفرة قال تعالى : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) فلم يقل للذين أذنبوا ، وفى استغفار الملائكة للمؤمنين زيادة فى ثوابهم وعلو درجاتهم عند ربهم ، لأنهم فعلوا ما يستحقون من أجله هذا الاستغفار ، وهو اتباع خير الأنام عليه الصلاة والسلام ، وقيامهم بالأعمال الصالحة التى استحقوا لها أن يتصفوا بالايمان ، ثم أمرهم سبحانه وتعالى بالاقتداء به عز وجل

وبملائكته عليهم السلام فى الصلاة على نبيه ﷺ فقال وهو أصدق القائلين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله وما نزل عليه من ربه (صَلُّوا عَلَيْهِ) ﷺ اقتداء بالله وملائكته (وَسَلِّمُوا) عليه ﷺ (تَسْلِيماً) بقلوب يملؤها الاخلاص ويعمرها الايمان، وألسنة رطبة بذكر الله والصلاة على رسول الله فأنتم أولى بذلك، وهو خير لكم؛ فقد علمتم أن الله تعالى وملائكته يصلون عليه، والله الغنى، وملائكته معصومون، وأنتم فى حاجة وغير معصومين؛ فأولى لكم أن تصلوا عليه، ففى ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون وإذا قيل أى حاجة إلى صلاة المؤمنين عليه بعد صلاة الله تعالى وملائكته عليهم السلام فالجواب أن الصلاة ليست لحاجة إليها، وإلا فلا حاجة لصلاة الملائكة عليه مع صلاة الله تعالى عليه، وإنما الصلاة عليه من الملائكة ومن المؤمنين لاظهار تعظيمه ﷺ، فان الله تعالى أوجب علينا أن نذكره سبحانه وتعالى ولا حاجة له إليه من هذا الذكر، وإنما هو لاظهار تعظيمه عز وجل؛ لنثاب على ذلك، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من صلى علىّ مرة صلى الله عليه بها عشراً، وعلى ذلك فلصلاتنا عليه ﷺ فوائد (١) إظهار تعظيمه ﷺ (٢) أن يكون جميع من يعبدون الله تعالى فى الأرض وفى السماء يقومون بتعظيم خير الأنبياء؛ عليه الصلاة والسلام، والله تعالى من فوقهم يهب لنبيه ﷺ ما يشاء من كمال وإكرام (٣) النبى ﷺ أصل هدايتنا وولى نعمتنا فوجب علينا الشكر له بالصلاة والسلام عليه ﷺ (٤) فى الصلاة والسلام عليه إجابة لأمر الله تعالى فى قوله

(صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (٥) نصلى عليه فنتذكره ونتذكر ما قام به من جلائل الأعمال فنقتدى به ﷺ (٦) فى الصلاة والسلام عليه تقرب إليه وفتح باب لمحبته ومن أحب الرسول أحبه الله (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (٧) فى الصلاة والسلام عليه ثواب لنا، وثوابنا يكتب فى صحائفه ﷺ من غير أن ينقص منه شيء منا، فان العطايا الالهية لا تتناهى ولا حد لها ولا تقبل النقص والقلة، فما من عمل صالح يعمله أحد من أمته ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه وله مثل أجره مصداقاً لقوله ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فجميع أعمال أمته الطيبة مكتوبة فى صحائفه ﷺ زيادة على ماله من الأجر على أعماله الذاتية، من غير أن ينقص ذلك من ثواب أعمال أمته شيئاً، فأى عبد من عباد الله نال هذه المزية، (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)، وصدق الله تعالى إذ يقول: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً).

والصلاة من المؤمنين طلب الرحمة، وزاد السلام مع المؤمنين، لأن الله من أسمائه السلام والملائكة أهل السلام، أما المؤمنون فقد يتصور منهم الأذى والمعصية فطلب إليهم زيادة السلام ولأن هذه الآية ذكرت بعد قوله تعالى (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) وذكر بعدها (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) والأذى لا يكون إلا من الناس، لذلك زاد السلام، حتى

يتنبه المؤمنون إلى الابتعاد عن كل ما يؤذى رسول الله ﷺ، فانه لايجتمع الأذى وطلب السلام، وعلى ذلك فليس المراد من الصلاة والسلام صيغتهما فقط بل المراد معناها الذى يقتضى أن يفعل المؤمن كل ماأمر به، ويترك كل مانهى عنه، والابتهال إلى الله أن يعطى رسوله ﷺ الفضل والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود فى الجنة، وأن يظهر دينه، ويحفظ أمته، والمراد بالسلام السلامة فمعنى السلام عليك السلامة لك ومعك من النقائص والآفات، ومعنى اللهم سلم على النبي، اللهم حقق السلامة له، وفى الآية توجيه القلوب إلى الاكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ، فقد أخبر الله تعالى أنه بجلاله وعظمته وعلو شأنه وارتفاعه وغناه عن خلقه يصلى على نبيه ﷺ وأن الملائكة مع عصمتهم واشتغالهم بذكر الله تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) ومع مكانتهم عند ربهم يصلون على النبى ﷺ، فالمؤمنون أحق بذلك، لأنهم محتاجون إلى الصلاة على نبيهم إذ هداهم إلى الله، ودلهم على الجنة، وهو الذى سيشفع لهم يوم القيامة، وهو الذى لأجله جعل الله أمته خير أمة أخرجت للناس فى الدنيا والآخرة جزى الله نبينا عنا أحسن الجزاء، وإذا صلى المؤمن على النبى ﷺ نال الثواب المضاعف، وأى ترغيب أكثر من هذا فى الاكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ، فصلاة الله تعالى على نبيه وعلى المصلين عليه والمؤمنين به معناها إفاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم عليهم،

وأما صلاتنا عليه وصلاة الملائكة فهي سؤال وابتهال فى طلب تلك الكرامة ، ورغبة تامة فى افاضتها عليه صلوات الله وسلامه عليه. وما ورد فى الصلاة عليه جاء بصيغة اللهم صل الخ ولم يرد بلفظ أصلي وأسلم ، لأنه ﷺ طاهر مطهر ، نقى مقرب ، لا عيب فيه ، ولا يجد العيب إليه سبيلا ، ونحن فينا المعايب ، وتنتابنا النقائص فى كل صبح ومساء وحركة وسكون إلا من عصمهم الله : فكيف يثنى من فيه المعايب على الطاهر المعصوم ، فنسأل الله تعالى أن يصلى عليه لتكون الصلاة من رب طاهر على نبي طاهر ، قال النيسابورى : لا يكفى العبد أن يقول فى الصلاة صليت على محمد ، لأن مرتبة العبد تقصر عن ذلك ، بل يسأل ربه أن يصلى عليه لتكون الصلاة من ربه ، وحينئذ فالمصلى فى الحقيقة هو الله ، ونسبة الصلاة للعبد مجازية بمعنى السؤال اه. وسألنا الله تعالى لأنه أعلم بما يليق بمقامه الكريم منا. وقد ورد فى صيغة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة منها ما أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والامام أحمد وعبد بن حميد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن كعب بن عجرة رضى الله عنه ، قال قال رجل يارسول الله ، أما السلام عليك فقد علمناه ، فكيف الصلاة عليك قال قل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وأخرج الامام مالك والامام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن

ماجه وغيرهم عن أبي حميد الساعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلى عليك ، فقال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل : اللهم صل على محمد النبي وأزواجه وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال : كنت عند النبي ﷺ فجاء رجل فسلم فرد النبي ﷺ وأطلق وجهه وأجلسه إلى جنبه فلما قضى الرجل حاجته نهض فقال النبي ﷺ ياأبا بكر هذا رجل يرفع له كل يوم كعمل أهل الارض ، قلت ولم ذاك ؟ قال إنه كلما أصبح صلى علىَّ عشر مرات كصلاة الخلق أجمع ، قلت وما ذاك ؟ قال يقول : اللهم صل على محمد النبى عدد من صلى عليه من خلقك ، وصل على محمد كما ينبغى لنا أن نصلى عليه ، وصل على محمد النبي كما أمرتنا أن نصلى عليه . وصيغ الصلاة والسلام عليه كثيرة جداً . وأى صيغة تجمع الصلاة والسلام تجزىء ، والصلاة والسلام عليه ﷺ فرض مؤقت فتي جاء بهما المؤمن فى أى وقت سقط عنه ، وهما واجبان فى التشهد الاخير عند الامام الشافعى والامام أحمد رضى الله عنهما . ويكرهان على غير الرسل والملائكة إلا تبعاً نحو اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد ، بخلاف اللهم صل وسلم على آل محمد فانه مكروه ، وكذلك الافراد بالسلام كان يقال علىٌّ عليه السلام .

مكروه ، بل يقال عليّ رضي الله عنه ، والافضل تكرار الصلاة والسلام على النبي ﷺ كلما ذكر اسمه الشريف ، وفي كل يوم ولو مرة ، والاكثار منها يوم الجمعة وليلتها ، وعقب الدعاء ، أخرج البخاري في الأدب عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان ، أن النبي ﷺ قال : إن جبريل عليه السلام جاءني فقال : من صلى عليك واحدة صلى عليه عشراً ، ورفع له عشر درجات ، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : قالوا يا رسول الله أرأيت قول الله (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ) قال: إن هذا لمن المكتوم ، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله وملائكته لذينك الملكين آمين ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة فانها معروضة علي . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاة ، إنه قد كان في الله وملائكته كفاية ، ولكن خص المؤمنين ليثيبهم ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا

عليّ فان صلاتكم علي زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة ؛ قال : فاما حدثنا وإما سألناه ؛ قال : الوسيلة أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل وأرجو أن أكون ذلك الرجل ، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال إنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فانه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة : لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة ، وعن أبى طلحة الأنصارى قال أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يرى فى وجهه البشر ، قالوا يارسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى فى وجهك البشر قال أجل ! أتانى آت من ربى عز وجل فقال من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها ، والأحاديث الواردة فى الحث على الصلاة عليه ﷺ كثيرة وفى هذا القدر كفاية ، وأفضل صيغ الصلاة ، ما كانت بالدعاء إلى الله تعالى : أن يصلى عليه عليه الصلاة والسلام ، كما جاء فى الأحاديث السابقة وغيرها ، والأمر فى قوله صلوا عليه وسلموا للوجوب فى العمر مرة كما تقدم وللوجوب فى التشهد الأخير فى الصلاة عند الامام الشافعى والامام أحمد رضى الله عنهما ، وللندب والاستحباب بعد ذلك ، وما ورد عنه عليه الصلاة والسلام لجاء فيها اسمه الشريف من غير لفظ سيدنا ، وهذا تواضع منه عليه الصلاة والسلام ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : أناسيد ولد آدم يوم القيامة ولا

فخر ، وأنه قال في الحسن إن ابني هـذا سيد . وأنه قال عند قدوم سعد قوموا إلى سيدكم ، وقد علمت أنه أعطى السيادة والفضل على جميع الخلق ، وأعطى الشفاعة والمقام المحمود فمن الأدب فى حقه العظيم الذى أولاه إياه مولاه الذى اختاره وفضله واصطفاه أن تقول اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وذلك مذهب الامام الشافعى فاقتديه وتأدب فى حق نبيك عليه الصلاة والسلام :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وقال فى الآية الشريفة « إن الله » ولم يقل إن الرب ، أو إن الرحيم إلخ من أسمائه الحسنى ، لأن اسم الجلالة هو الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات فاذا قلت الله فقد حققت أنه إله واحد فرد صمد بر كريم جواد عظيم رءوف رحيم إلى غير ذلك من أسمائه عز وجل وقال فى الآية يصلون فاسند لله الصلاة ، والصلاة المعهودة تكون باللسان والقلب بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله تعالى فتكون بكلامه الذى ليس بصوت ولا حرف ولا تقطيع ولا تأليف ولا توضيع ، فقوله تعالى وكلامه من صفاته قديم كذاته ، وكذلك كل صفة من صفاته من علمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وحياته كلها أزلية سرمدية أبدية ، فهو المتكلم العليم الخبير المدبر القديم الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وقال فى الآية « على النبي » ولم يذكر اسماً من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، لأن لفظ النبي جمع كل الأسماء والصفات الواردة فيه ﷺ وفى لفظ النبي تشريف وأى تشريف ، ولذلك لم يرد فى

القرآن نداء له ﷺ إلا بلفظ النبى ، قال تعالى (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ) ، (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَـٰتُ) ، (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً) وأما غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم يجىء فى القرآن نداء لهم إلا بأسمائهم ياآدم ، يانوح ، ياإبراهيم ، ياموسى ، ياعيسى ، يايحيى الخ وفى ذلك تشريف له ﷺ ، فهذا أيها المسلمون نبيكم العظيم الذى كنتم به خير أمة أخرجت للناس ، وجعلكم الله به أمة وسطا شهداء على الناس ، فاتقوا الله واقتدوا به واتبعوه وأعطوه حقه من التأدب والتكريم بالتخلق بأخلاقه وكثرة الصلاة والسلام عليه ، وأختم كلمتى بهذا الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودع فقال أنا محمد النبى الأمى : قاله ثلاث مرات . ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ، وتجوز بى ، وعوفيت ، وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فاذا ذهب بى ، فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه اه نسأل الله تعالى أن يوفق كل مسلم ومسلمة للعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ

مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

حذر الله تعالى أن يؤذى أحد رسول الله ﷺ فيما سبق في قوله: (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) ﷺ بأى نوع من أنواع الأذى التي سبق بيانها ، ثم بين أنه ﷺ حقيق بكل إجلال واحترام وتعظيم وتفضيل ، لأنه تعالى وملائكته يصلون عليه ﷺ ، وأمر المؤمنين بذلك قياماً ببعض ما يجب له ﷺ من الشكر ، ثم شرع يذكر ذلك مرة أخرى زيادة فى التأكيد ، ويهدد بالوعيد الشديد ، من تسول له نفسه عمل أى شىء يؤذى رسوله ﷺ كأن يدخل بيته بغير إذنه ، أو يخاطب نساءه من غير حجاب ، أو ينتظر فى بيته بعد ما طعم وأكل انتظاراً طويلا ، أو أن يفعل معه أى أذى غير ذلك ، وأن هذا الايذاء إن وقع فهو إيذاء لله تعالى ، ومن يؤذى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ملعون مطرود من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، وله عذاب

مهين مؤلم شديد، فقال جل شأنه : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبي بن سلول وناس معه وهم الذين أشاعوا عن السيدة عائشة من الافك ما أشاعوا، وبرأها الله مما قالوا، وقال الله فيهم (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ) الآية . قال أنزلت فى عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها، فخطب النبي ﷺ، وقال من يعذرنى فى رجل يؤذيني فنزلت : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ) تعالى ويفعلون ما يغضبه، ولا يرضى به، من إيذاء النبي ﷺ، أو الاشراك به عز وجل، أو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى أو اتخاذ الصاحبة أو غير ذلك مما هو منزه عنه؛ أو نبذ كتابه الكريم، وترك دينه القويم، والخروج على رسله وأنبيائه وأوليائه والأئمة المتقين، إن هؤلاء الذين يغضبون ربهم (وَ) يؤذون (رَسُولَهُ) ﷺ بعمل ما نهوا عنه فيما سبق، أو بتكذيبه، أو بالوقوف في سبيل دعوته، وصد الناس عن دينه، والعمل بغير سنته، أو هجر ما جاء به، ونبذ تعاليمه، والايذاء مجازى بالنسبة لله تعالى، ومعناه فعل مالا يحبه ولا يرضاه، وفى التعبير به تشنيع على مرتكبيه، وحقيقى فى حق رسول الله ﷺ، فقد وقع من قريش أن رموه بالسلى والحجارة

وهو يصلي ، وحفروا له الحفر يوم أُحد ، فوقع فيها وكسرت رباعيته وشج وجهه ودخل المغفر في جبينه ، وتألبوا عليه يوم الخندق وحاصروه ، وكذبوه وقالوا ساحر ، وقالوا شاعر ، وقالوا كاهن ، وحاربوه وقاوموه وأجمعوا على قتله ، وهو صابر على إيذائهم حتى نصره الله عليهم يوم الفتح نصراً مؤزراً ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما ، وإيذاء الرسول إيذاء لله ، كما أن من أحبه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، وروى أنه ﷺ قال : الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه ، رواه الترمذي ، وإذا كان الله تعالى يحارب من عادى وليه ، فهو يحارب من عادى نبيه فقد قال ﷺ إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، فما بالك بمن يعادي رسوله وحبيبه وصفيه صلى الله عليه وسلم إن له النكال والوبال في الدنيا والآخرة ، كأبي جهل ومن على شاكلته ، ممن كانوا يتنقصون الرسول ويعيبونه وهو المبرأ من كل عيب ، كما قيل فيه .

خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

فهؤلاء ملعونون بنص القرآن إذ يقول : إن الذين يؤذون الله ورسوله (لَعَنَهُمُ) طردهم (ٱللَّهُ) تعالى وأبعدهم من رحمته (فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) في الدنيا بظهور أمرهم ، وافتضاح نيتهم ، وإحباط عملهم ،

وأنزل المقت والغضب عليهم ، فهم الصم البكم العمى الذين لا يعقلون ، فلا يتذكرون ولا يتدبرون ، ولا يتعظون ولا يعتبرون ، وفى طغيانهم يعمهون ، وفى الآخرة بما أعده لهم من نار السعير ، وبئس المصير ، كما قال تعالى (وَأَعَدَّ لَهُمْ) يوم القيامة (عَذَابًا) شديداً (مُهِينًا) فيه أكبر الاهانة لهم ولو كانوا أكبر الناس . وملوك الناس وعظماء الناس فى هذه الدنيا (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) وإيذاء الرسول كما يكون فى حياته يكون بعد وفاته ، بالصد عن دينه ، وترك العمل بما جاء به ، وتفريق كلمة المسلمين ، ومعاداة من يقيم سنة سيد المرسلين ، ويتبع شريعة رب العالمين ، والطعن فيه وفى آل بيته عليه الصلاة والسلام ، فهو صلى الله عليه وسلم يتأذى من أمته بالعصيان ، كما يرضيه منها اتباع الرحمن يتأذى ويرضى وهو فى قبره الشريف بقوة الله ، ونور الله وإكرام الله وقد نطق القرآن بحياة الشهداء بعد قتلهم فى قوله عز وجل : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) والأنبياء أفضل من الشهداء ، ونبينا ﷺ سيد الأنبياء . فهو حى فى قبره ، يسره من أمته الخير ، ويؤذيه منها الشر ، وقد روى ابن سعد فى الطبقات من حديث بكر بن عبد الله المزنى أنه ﷺ قال : حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فاذا مت كانت وفاتى خيراً لكم ، تعرض على أعمالكم ، فان وجدت خيراً حمدت الله ، وإن

وجدت شرا استغفرت لـكم ، تلك حياة برزخية روحية علم تفصيلها إلى الله تعالى الذى يقول : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)فايذاءالرسول كما يكون فى حياته يكون بعدوفاته ، فليتق الله المسلمون ، وليفعلوا ما به يؤمرون ، وليجتنبوا مالأجله يعذبون ، فان معصيتهم تغضب الله تعالى وتؤذى رسول الله ﷺ (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) ولما بين حال الذين يؤذون الله ورسوله ناسب أن يبين حال الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، فقال عز وجل (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ) ويلحقون بهم الضرر ، ويوقعون بهم الشر بغياً وعدواناً ، وزورا وبهتانا كما قال : (بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) بغير إثم أتوه ، وبلا ذنب ارتـكبوه ، أو أذى فعلوه فينسبون إليهم ماهم برآءمنه،ويشيعون عنهم ماليس فيهم، أو يستهزئون بهم ويسخرون منهم ، أو يغتابونهم وينمون عليهم ، أو يأتون معهم فسقا أو خيانة أو غدرا أو مظاهرة عدو أو غير ذلك من ضروب الأذى ، وأنواع الشر ، من فعلوا ذلك بلا حق (فَقَدِ احْتَمَلُوا)تحملوا بفعلهم أو قولهم (بُهْتَانًا) كذباً بينا ، وافتراء ظاهرا ،وزوراً واضحاً إذا كان الايذاء بالقول (وَإِثْمًا) وجرما وذنباً (مُّبِينًا) ظاهرا جلياً لاخلاف فى العقاب عليه ، ولا شك فى الادانة به ، لايغفره الله لهم ، ويذيقهم بسببه سوء العذاب إذا كان الايذاء بالفعل ولم يتوبوا ويرفعوا

أذاهم عن الناس ، ويعملوا على إرضاهم ، روى عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، قال إني لأبغض فلانا فقيل للرجل ما شأن عمر يبغضك ، فلما أكثر القوم فى الذكر (بأن عمر يبغض فلانا) جاء الرجل فقال ياعمر : أفتقت فى الاسلام فتقا ؟ قال لا ، قال أفجنيت جناية ؟ قال لا ، قال أأحدثت حدثاً ؟ قال لا ، قال فعلام تبغضني ؟ وقد قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) فقد آذيتنى فلا غفرها الله لك ، فقال عمر رضي الله عنه ، صدق والله مافتق فتقا ، ولا ، ولا ، فاغفرها لى ، فلم يزل به حتى غفرها له ، فانظر هداك الله هذه الأخلاق العالية ، والايمان الصحيح ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . يرى الحق فيتبعه ويستعطف رجلا من رعيته أن يغفر له حتى يستجيب ويرضى ويقوم من مجلسه مسرورا مطمئنا . هذه هى مكارم الاسلام . ومفاخر المسلمين وقد أصيب الاسلام بكثير ممن يدخلون فى هذا الوعيد كالكفرة بالله ورسوله وكالرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم عما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ماأخبر الله عنهم ، فقد أخبر عزشأنه أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم فى قوله (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ومن هؤلاء علي ومعاوية وعمرو بن

العاص رضي الله عنهم ؟ ومع ذلك ترى أولئك الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ويذكرون عنهم ما يؤذيهم فى كرامتهم وشرفهم ، ويدخل فى الآية وفى هـذا الوعيـد الذين يؤذون غير الصحابة من المؤمنين والمؤمنات ، فعن أبي هريرة أنه قيل يارسول الله ما الغيبة ، قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ، قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ، رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ لأصحابه أي الربا أربى عند الله ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ثم قال : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال ليس منا ذو حسد ولا نميمة ولا خيانة ولا إهانة ، ثم تلا هـذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) فلعل الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات باسم الدين ، وينالون من إخوانهم باسم الدفاع عن الدين يقرءون ذلك ويعملون به ، ويكفون أيديهم وألسنتهم وأقلامهم عن النيل من المؤمنات والمؤمنين ، ويسيرون فى الدعوة إلى الدين على ضوء قوله تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

وقوله (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقوله (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وقوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) فهذا رسول الله ﷺ لما جاء الاعرابي وبال في المسجد ونفر منه الصحابة وقاموا إليه قال ﷺ دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذنوباً من ماء، فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، وكان يتأذى من الناس ويستحي أن يصارحهم لئلا ينفرهم حتى قال الله تعالى فيمن يدخلون بيوته وينتظرون طويلا بعد ما يأكلون (إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) وكانوا ينادونه من وراء الحجرات يامحمد فقال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) وقال (لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً) ولما قسم الغنائم قال أعرابي هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب الرسول حتى بدا الغضب في وجهه وكظم غيظه وقال: من يريد وجه الله غيري؟ فما لاحى أحداً ولا خاصم أحداً ولا رمى أحداً بكلمة تؤذيه متبعاً قول ربه (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فضرب لنا خير الأمثال في البعد عن إيذاء المؤمنين ولو بحق لقوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ) حتى قال تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ

إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) وقال جل شأنه (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) وقد قال الناس فى ربهم الذى خلقهم ورزقهم وهو الذى يميتهم ويحييهم ، قالوا فيه مالا يليق بمقام الألوهية ، جعلوا له البنات ونسبوا إليه الشريك والصاحبة والولد ، وأنكروا أنه يبعثهم ، فلم يقطع رزقه عنهم ، ولم يمنع نعمه عليهم ، ولم يعجل لهم العذاب ، بل صبر عليهم ، وهو الصبور ، ومن أسمائه الحليم ، العفو ، الرحيم ، وقال (بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا) فوجب على كل مؤمن ومؤمنة نصب نفسه للدعوة وأعدها للارشاد ، وحبسها للوعظ : أن يتحاشى جهد طاقته أن يرى أخاه المسلم بما يكره ، أو يذكر عنه ما يسيئه ، وأن يسلك معه طريق الاقناع ، وسبيل الحكمة ، ومنهاج المودة والألفة ، فرب كلمة أورثت نقما ، وزرعت إحنًا ، وأهاجت فتنًا ، وأوجبت غضب الله وعذابه ، وَرُبَّ كلمة كانت سببًا فى خير ونعمة وثواب عظيم قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

وقال ﷺ إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم ، فليترك المسلمون الخصام والجدال ، والتنابز بالألقاب خشية أن يكونوا ممن قال الله فيهم (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) وقد قال ﷺ : إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

ولما كان من أشد ضروب الأذى التعرض للنساء المؤمنات بالسوء فى سيرهن ، وأثناء مشيهن فى الطريق ، أو فى بيوتهن أو فى أى مكان آخر ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر أزواجه الطاهرات ، وبناته الكريمات ، ونساء المؤمنين وبنات المؤمنين الكبيرات ، أن يستترن ويتخذن زيا يمنعهن من التعرض لهن ، ويعرفن به ويمتزن

بلبسه فلا يؤذين من السفلة الساقطين المفسدين ، فقال عز وجل : (يَأَيُّهَا النَّبِى) الكريم المختار (قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) أمهات المؤمنين (وَبَنَاتِكَ) خيرة المسلمين (وَنِسَاءِ) وبنات (الْمُؤْمِنِينَ) الحرائر ، قل لهن أمراً من ربهن واجباً تحرم مخالفته (يُدْنِينَ) يرسلن ويرخين (عَلَيْهِنَّ) على أجسامهن وزينتهن (مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) فيستترن ستراً يخالف ستر الاماء وأولات البغاء (ذَلِكَ) الارسال وهذا الارخاء والستر (أَدْنَى) وأقرب إلى (أَنْ يُعْرَفْنَ) بهذا الستر بأنهن حرائر عفيفات مؤمنات (فَلَا يُؤْذَيْنَ) بالتعرض لهن ؛ ليخالفن الاماء ، وذوات البغاء فقد كن يظهرن فى درع وخمار من غير ملاءة فوقهما ، والسبب فى نزول هذه الآية ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: كانت الحرة تلبس لباس الأمة ، فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وأدنى الجلباب أن تقنع وتشده على جبينها . وعن معاوية بن قرة أن دعاراً من دعار أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل ، فينظرون النساء ويغمزونهن ، وكانوا لا يفعلون ذلك بالحرائر ، إنما يفعلون ذلك بالاماء ، فأنزل الله هذه الآية : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ) إلى آخر الآية ، وعن قتادة رضى الله عنه فى قوله : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) قال أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يعقدنها على

الحواجب (ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) قال قد كانت المملوكة يتناولونها ، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالاماء ، ثم نزل (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ) الاماء (عَلَى الْبِغَاءِ) فحرمت الأمة ، إلا بملك اليمين أو العقد ، غير أن الفساق والعصاة ما زالوا يقصدون الاماء تبعاً للعادة التي كانوا عليها قبل الاسلام ، وقبل التحريم من اتخاذهن للبغاء ، فأمر الله الحرائر أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، حتى تعلم الحرة من الأمة ، فلا تؤذى الحرائر ، وفتح الله باب التوبة لمن سبق منهم نظر أو تعرض للنساء ، وفتح باب التوبة كذلك للنساء اللاتى ظهرن للرجال فقال جل شأنه : (وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً) كثير المغفرة يغفر ما سلف منهن من ترك التستر فوق الدرع والخمار ، ويغفر لمن تترك التستر بعد هذا الأمر لسبب من الأسباب ، ثم تعود إلى التستر تائبة إلى ربها ، راجعة عن ذنبها ، ويغفر للذين تعرضوا للنساء قبل هـذا الأمر أو بعده ثم تابوا وأنابوا وعزموا أوكد العزم على ألا يعودوا لما فعلوا من ذلك (رَحِيماً) بهن إذ سترهن ومنعهن من تعرض الفساق لهن ، وقبل توبة من تابت منهن ويقبل توبة من تتوب ، والله رحيم بمن أتى ما يخالف هذا الأمر إذ قبل توبتهم ودلهم على ما فيه خيرهم وصلاح الأمة الاسلامية التى تحرص على تنفيذ أمر الله وتخشى أن تأتى ما نهى عنه ، وهذه الآية صريحة فى أن إظهار شيء من محاسن المرأة غير وجهها وكفيها حرام وفيه الوبال والنكال ، وليس لنا بعد

قول الله تعالى أن نسلك سبيل السفور الممقوت المملوء بالأشواك ، الموصل إلى الدمار والهلاك ، هـذا السفور الذى جعل المرأة المسلمة تـكشف عن غير وجهها وكفيها ، وتخرج فى الطرقات سافرة أكثر ممـا تـكون أمام زوجها ، فى حجرة نومها ، فرب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا ، وشراً مستطيراً ، فلعن الله السفور ومن أشار به وندب إليه وحض عليه ، فقد أورث الأمة شراً كبيراً ، وداء وبلا ، بما يترتب عليه من الاختلاط ، والتدهور والانحطاط ، وهتك الأعراض ، والفتك بالسواذج البريئات ، اللاتى يقعن فى شباك ذئاب الانسانية ، والوحوش الآدمية الألى واللائى يتاجرون بالأعراض ، ويقيمون للفسوق الأسواق ، والذين ملـكت الشهوة نفوسهم وأعمى العصيان قلوبهم ، أولئك جميعاً لا يعرفون رباً ، ولا يخافون إثماً ، ولا يخشون ذنباً ، ولا ينظرون فى عاقبة ، ولا يردعهم دين ولا شرف ، فأصبحت مصر مباءة للفسوق والعصيان ، وإغضاب الرحمن ، وإذا شئت أن تعرف مقدار ما تدهورت إليه مصر من الوحشية ، وارتمت فيه من الهمجية ، فهـذه شواطىء النيل وشواطىء الأسكندرية والميادين والطرقات ، وغيرها ، تضج صارخة إلى ربها ممـا يقع عندها وفوقها صباح مساء من الفسق والفجور ، وفى الصيف — والويل لمصر وأهلها من الصيف — تتفجع السماء والأرض مما يقع هناك من وحوش الانسانية ، والذئاب الآدمية ، وأعداء المروءة والشرف والعفة ، الذين فقدوا الاحساس والحمية والغيرة من نساء ورجال ، وفتيان وفتيات ،

أجسام عارية ، وعورات بادية ، ومناظر بشعة ، واختلاط سيء ، وشرف مسفوك ، وعرض مهتوك ، وفتن كقطع الليل ، وويل يتبعه ويل ؛ ولعنات تنزل من السماء ، على أولئك الأشقياء ، وأنات تخرج من الأرض مما يحصل فوقها من هتك الشرف والعرض ، وما كان ذلك إلا من الاختلاط ورفع الحجاب ، والخروج الجريء على الدين والآداب ، هذا إلى ما أصاب مصر من الأمراض الخبيثة ، والحوادث الأليمة ، والاضراب عن الزواج واختلاط الأنساب ، وضياع العزة الدينية ، والغيرة الاسلامية ، والذهاب بمستقبل الشبان والشابات ، والانتحار ووأد البنات وقتل الأطفال الذين جاءوا من غير الطريق الشرعي ، مما ينذر بشر لا يعلم مداه إلا الله العلي الكبير (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ، لقد حاربوا الدين وتعاليمه ، وناهضوا الشرع وتعدوا حدوده ، يقول الله تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ويقول الجاهلون افتحوا عيونكم ، ومتعوا أبصاركم ، ومكنوها من جمال خلقه الله لكم ، ويقول عز وجل (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) ويقول الخاسرون الأرذلون تعالين إلى النوادي والمتنزهات واغشين الملاهي والحفلات ، واشتركن مع الراقصين والراقصات ، وافتحن أعينكن في هذه المجتمعات ، ولو أغضب ذلك رب الأرض والسموات ويقول جل شأنه : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

ويقول الضالون المضلون اطرحن هذه الأستار القديمة العتيقة، وأظهرن زينتكن الجميلة؛ وما وهبكن الله من حسن وبهاء، ورونق ورواء، ويقول العليم الخبير (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) وهم يقولون ارمين بخمركن، واكشفن عن شعوركن وأعناقكن وصدوركن ويقول الحليم الحكيم (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) وهم يقولون تعالين إلى الرياضة البدنية، والحياة والمدنية، وارفعن هذه القيود التي تعوق الحركة والنمو؛ وجئن إلى الميدان باديات الرءوس والاعناق والنحور والأرجل والسوق، وقمن بالحركات الرياضية من وثب وقفز، وتثن وانفراد، وانقباض وانبساط، ومشى وركوب، بأشنع حالة وأبشع شكل، افعلن ذلك جهاراً، ولا تخشين إثماً ولا عاراً، وتالله إن هذا لهو الضلال البعيد، والفساد الكبير، والخزى الأليم. لبئس ما يفعلون. لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط عليهم الله وفي العذاب هم خالدون. فالمؤمن والمؤمنة يعملان بأمر الله من غض البصر عن محارم الله كما قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) وقال (قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) وقال صلى الله عليه وسلم إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافة أبدله الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه، وقال عليه الصلاة والسلام: الاثم حواز القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع، ويروى عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ هى

وميمونة رضى الله عنهما، قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ،وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ احتجبا منه ، فقلت يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : أوعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل ، وإذا وقع النظر فجأة فله النظرة الاولى وليس له الآخرة فقد قال النبي ﷺ لعلى ،ياعلى : لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليس لك الآخرة ، وعلى المؤمنة ألا تظهر محاسنها لغير زوجها ، ولمحارمها فيما أحله الله لهم مما يبدو وقت المهنة كالرأس والوجه والعنق والقدمين إلى موضع الخلخال ، والمحارم بينهم الله تعالى فى آية لاجناح عليهن السابقة ، عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال يا أسماء : إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه ، وعن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن ، فقالت عائشة رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلا ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) انقلب رجالهن

إليهن يتلون عليهن ما أنزل اليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجل فاعتجرت به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأن على رءوسهن الغربان ، وقال سعيد بن جبير (وَلْيَضْرِبْنَ) وليشددن (بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شيء فليتق الله المسلمون وليعملوا بما أنزل الله وليتركوا ما حرم الله ، وكل فرد فى الأمة مسئول بقدر ماله من السيطرة والنفوذ. هـذا حكم الله فى السفور والحجاب ، والقاعدة العامة فى ذلك أن كل ما يؤدى إلى الفتنة يجب ستره ويحرم كشفه ويحرم النظر إليه وأن مالا يؤدى إلى الفتنة يجوز كشفه والنظر إليه ، وهذا حكم العورة إذا أمنت الفتنة .

١ — عورة المرأة مع الرجل : إذا كانت المرأة أجنبية من الرجل حرم عليها كشف ما عدا الوجه والكفين وحرم عليه النظر إلى غير الوجه والكفين ، إلا لضرورة ملجئة ، كالانقاذ من غرق أو حريق وكالطبيب الذى لا يستغنى عنه بامرأة ، فيجوز له النظر إلى ما تدعو إليه الضرورة فقط مع الحذر والاحتياط ولا يحرم عليها كشف ماتدعو إليه الضرورة حينئذ . وإذا كان الرجل محرماً لها فعورتها معه مالا يبدو عند المهنة وقت قيامها بأعمالها المنزلية . وإذا كان زوجا لها فلا شيء منها بعورة بالنسبة إليه ، لكن يكره منه النظر إلى حيائها .

(٢) عورة الرجل مع المرأة وهى مابين السرة إلى الركبة سواء أكان أجنبياً أم كان مَحْرَماً ، ولا يجوز لها استدامة النظر إلى مايؤدى إلى الفتنة ، وإن كان زوجاً لها فلا شيء منه بعورة ، غير أنه يكره منها النظر إلى فرجه

(٣) عورة المرأة مع المرأة وهى مابين السرة والركبة إن كانت أجنبية ، وإن كانت محرماً لها فعورتها الفرجان فقط ، فيجب سترها عنها ، ومثل ذلك عورة الرجل مع الرجل ، وحكم اللمس حكم النظر ، بل هو أشد منه في المنع والحظر ، لأن اللمس يدعو إلى الفتنة أكثر من النظر ، فتي خيفت الفتنة حرمت الملامسة ، ومتى أمنت جازت المصافحة فقط ، فقد قال النبي ﷺ لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له ، والنظر إلى الصورة الشمسية أو الصور فى المرآة ، أو الصور المجسمة إذا أدى إلى الفتنة فهو حرام ، ويحرم النظر إلى الصور العرايا مجسمة أو شمسية لأنها مدعاة للفتنة ، ومحدثة للشهوة ، هـذا حكم الله (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

ولما كان التغزل واتباع النساء يقع من المنافقين الفاسقين توعدهم الله تعالى بقوله (لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ) قسما بعزتى وجلالى لئن لم يرجع (الْمُنَافِقُونَ) الخاسرون عن نفاقهم وخبثهم وإضرارهم بالمسلمين ، إن لم

ينتهوا هم (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) فضعف إيمانهم لكثرة ذنوبهم وآثامهم وصاروا لا يبالون بالمعاصي ، إن لم ينته المنافقون والذين قست قلوبهم (وَالْمُرْجِفُونَ) الذين يزعجون المؤمنين والمؤمنات بمفاسدهم وأقوالهم وافترائهم على الرسول وأصحابه (فِي الْمَدِينَةِ) المنورة مدينة الرسول المباركة (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) ولنسلطنك عليهم بالغلبة والقهر فتستأصلهم منها قتلا وإخراجاً ، ولما كان التسلط عليهم يتطلب زمناً أي بهم فقال (ثُمَّ) إذا أصروا على عنادهم وفعالهم فأوقعت بهم (لَا يُجَاوِرُونَكَ) ولا يقيمون معك (فِيهَا) في المدينة (إِلَّا قَلِيلًا) من الوقت وينصرك الله عليهم فيخرجون منها مدحورين ، وقد كان ما أخبر به رب العالمين ، فإنهم أقاموا بالمدينة حتى ظاهروا الأعداء على الرسول ، ونقضوا العهود ، فأجلاهم عنها ، وأخرجهم منها ، وأراح الله الرسول وأصحابه منهم ومن شرورهم ، ثم حذر المسلمين منهم ومن معاشرتهم والابقاء عليهم فقال (مَلْعُونِينَ) لا تعاشروا ولا تعاملوا ولا ترحموا ملعونين مطرودين من رحمة الله ، لما ارتكبوا من الايذاء ، وأتوا من النفاق (أَيْنَمَا ثُقِفُوا) في أي وقت وفي أي مكان وجدوا (أُخِذُوا) أسروا لمظاهرتهم الأعداء واشتراكهم في حرب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم (وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) جزاء ما يفعلون ، وقد وقع كل ذلك بهم كما أخبر الله عنهم في الغزوات ، ولم يكن ذلك بدعاً

ولا جديداً بل حصل مثله فى الأمم السابقة ، فكل أمة خرجت على رسولها وخالفت أوامر ربها سلط عليها من استأصلها (سُنَّةَ اللهِ) تعالى سن ذلك وجعله كالعادة (فِى الَّذِينَ) فى الأمم الذين (خَلَوْا) ومضوا (من قَبْلُ) من قبل هذا العصر المبارك عصر الرسول ﷺ ، وهو أخذ الخوارج والايقاع بهم واستئصالهم (وَلَنْ تَجِدَ) أيها المؤمن أو يأيها المكذب (لِسُنَّةِ اللهِ) فى خلقه (تَبْدِيلاً) ولا نسخاً ولا تحويلا فمتى كانت الأسباب كانت المسببات ، ومتى كان العصيان والنفاق كان التقتيل والتشريد ، ومتى كانت الطاعة والصالحات كانت الخيرات ودرت البركات (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ

وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً * إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً .

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لعن المنافقين فى قوله (مَلْعُونِينَ) إلخ فبين بهذا حالهم فى الدنيا، ثم بين فى هذه حالهم فى الآخرة، وأنه لعنهم وأعد لهم نار السعير خالدين فيها مالهم من ولى ولا نصير يمنعهم منها ولا يخفف عنهم من عذابها، فقال جل شأنه (يَسْأَلُكَ) أيها النبى الكريم، والرسول المقرب، أولئك (النَّاسُ) مشركهم ومنافقهم، فأما المشرك فيسألك سؤال المعاند المستهزىء المتهكم المعتقد باطلا أنه لا بعث ولا نشور ولا حشر ولا آخرة، وإنما هى الحياة الدنيا يحيا ثم يموت وينتهى أمره، ولا شىء بعد ذلك وأما المنافق فيسألك سؤال مختبر يريد إحراجك وتعجيزك، لأنه يعرف أن التوراة لم تبين وقتها، ولم يكن عند أحد علمها، يسألك هؤلاء الناس (عَنِ السَّاعَةِ) عن وقت قيامها، ومتى تكون، وأيان يومها، وهى القيامة، والحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة،

والراجفة إلخ ، فاذ سألك هؤلاء المعاندون « قُلْ » لهم مجيبا على سؤالهم هذا « إِنَّمَا عِلْمُهَا » إنما علم وقتها ، وعلم يومها وعلم ساعتها «عِنْدَ اللَّهِ » تعالى الذى وسع علمه كل شيء ؛ حاضر وغائب ، وشاهد ومستقبل ، ولا يعلمها أحد غيره ، لاملك مقرب ؛ ولا نبى مرسل ، ولو علمها أحد غير الله لكنت أحق بها وأهلها ، قال الله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لاَيُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ) وقال جل شأنه : « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) وقال جل جلاله : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقال ﷺ حين سئل عن الساعة : « لايعلمها إلا الله . ولا يجليها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما بين يديها من الفتن والهرج ، فقال رجل وما الهرج ، قال بلسان الحبشة القتل ، وأن تجف قلوب الناس ، ويلقى بينهم التناكر ، فلا يكاد يعرف أحد أحدا ، ويرفع ذوو الحجا ، ويبقى رجرجة من الناس ، لايعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا قال تعالى مؤكدا أن الساعة لايعلم وقتها غير الله تعالى(وَمَا يُدْرِيكَ) وأى شيء يعلمك أمر الساعة ، ووقتها المعين ، إنك لاتعرفه ولم أطلعك عليه كغيره مما اختصصتك بعلمه ، (لَعَلَّ) للتأكيد وحصول مابعدها إن كانت من الله تعالى كما هنا وكما فى قوله : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ) ، (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) إلخ . فكأنه قال: إن (السَّاعَةَ) إِنَّ وقتها وأهوالها وأمورها (تَكُونُ) تحصل وتقع (قَرِيباً) فى زمن قريب

كما قال تعالى (اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ) فعلى السائلين وغيرهم أن يخشوا يومها ويعملوا قبل قيامها ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . فالأولى العمل لهذا اليوم فكل آت قريب ، وكأنكم أيها السائلون بهذا اليوم وأنتم بين يدى الله مسئولون ، يحاسبكم بما كنتم تعملون ، وأما القيل والقال ، وكثرة السؤال ، والتعالل بالآمال ، فانها تورثكم الحسرة والندم وسوء المآل ، وقد أخفى الله علمها فلا تأتى إلا بغتة ، ليكون العمل خالصاً لله تعالى لا خوفا من قيام الساعة ، فالخير لمن آمن بها وعمل الصالحات ، والشر لمن جحد بها واقترف السيئات ، قال ﷺ تهيج الساعة بالناس ، والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته في السوق ؛ قضاء الله ، لا تأتيكم إلا بغتة ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ تقوم الساعة على رجل أكلته فى فيه فلا يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها ، وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه ، وما فى قوله (وَمَا يُدْرِيكَ) استفهامية مبتدا ، وجملة يدريك خبر ، ولعل علقت يدرى عن العمل في الثانى والثالث ، وتكون تامة ، وقريباً ظرف ، ويصح أن تكون ناقصة وقريباً خبرها لأنه صفة لمحذوف والتقدير : تكون شيئاً قريباً ، ويصح أن تكون جملة وما يدريك مستقلة ، وجملة لعل الساعة مستقلة ، وقد ورد في قرب الساعة وأشراطها

أحاديث كثيرة صحيحة منها ماتقدم ومنها ماروى عن أنس رضى الله عنه
قال : قال رسول الله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة
والوسطى . وروى عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ خطب
أصحابه بعد العصر حتى كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا إسف
« شيء قليل » وقال : والذى نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا
فيما بقى منها إلا مثل مامضى من يومكم هذا فيما بقى منه ، وما بقى منه
إلا اليسير . وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة ، إذا رأيتم الناس أماتوا
الصلاة وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب واستخفوا
بالدماء ، واستعلوا البناء ، وباعوا الدين بالدنيا ، وتقطعت الأرحام ،
ويكون الحلم ضعفاً ، والكذب صدقاً والحرير لباساً ، وظهر الجور ،
وكثر الطلاق ، وموت الفجأة ، واؤتمن الخائن ؛ وخون الأمين ، وصدق
الكاذب ، وكذب الصادق وكثر القذف ، وكان المطر قيظاً « صيفاً »
والولد غيظاً « يغيظ أمه وأباه أو يكون تعباً عليهما » وفاض اللئام
فيضاً ، وغاض الكرام غيضاً ، وكان الأمراء والوزراء كذبة ، والامناء
خونة ، والعرفاء ظلمة ، والقراء فسقة إذا لبسوا مسوك الضأن ، قلوبهم
أنتن من الجيف ، وأمر من الصبر ، يغشيهم الله تعالى فتنة يتهاركون
فيها تهارك اليهود الظلمة وتظهر الصفراء « الدنانير » وتطلب البيضاء
« الفضة » وتكثر الخطايا ، ويقل الامن ، وحليت المصاحف ، وصورت
المساجد ، وطولت المنابر ، وخربت القلوب ، وشربت الخمور ، وعطلت

الحدود ، وولدت الأمة ربتها ، وترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكا ، وشاركت المرأة زوجها فى التجارة ، وتشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وحلف بغير الله ، وشهد المرء من غير أن يستشهد ، وسلم المعرفة « ألقى السلام على من يعرفه دون من لا يعرفه » وتفقه بغير دين الله ، وطلب الدنيا بعمل الآخرة ، واتخذ المغنم دولا « متداولا بين الأقوياء دون الضعفاء » والزكاة مغرماً ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وعق الرجل أباه ، وجفا أمه ، وأضر صديقه ، وأطاع امرأته ، وعلت أصوات الفسقة ، فى المساجد ، واتخذ القينات والمعازف ، وشربت الخمور فى الطرق ، واتخذ الظلم فخراً ، وبيع الحكم ، وكثرت الشرط واتخذ القرآن مزامير ، وجلود السباع خفافا ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات ، اه

وتلك العلامات التي ذكرها هذا الحديث هى من العلامات الصغرى ، ولها علامات كبرى ، منها ظهور المهدى فيملأ الارض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جوراً وظلماً ، وأحاديث خروج المهدى آخر الزمان ، وأنه من آل البيت النبوى ، من ولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بلغت حد التواتر ، فيجب الايمان بخروجه ، وقد ورد : من كذب بالمهدى فقد كفر ، رواه أبو بكر الاسكاف في فوائد الأخبار ، وأبو القاسم السهيلى فى شرح السير له . وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : المهدى منا أهل البيت ، أشم الأنف ، أقنى ، أجلى ، يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جورا وظلماً ، يعيش

هكذا وبسط يساره ، وأصبعين من يمينه ، السبابة والابهام ، وعقد ثلاثة (يعني سبع سنين) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ينزل بأمتى فى آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم حتى تضيق عليهم الأرض ، فيبعث الله رجلا من عترتى ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت ظلماً وجوراً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ، لاتدخر الارض من بذرها شيئاً إلا أخرجته ، ولا السماء شيئاً من قطرها إلا صبته ، يعيش فيهم سبع سنين ، أو ثمان أو تسع سنين ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة لطول الله تلك الليلة حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، يملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، ويقسم المال بالسوية ، ويجعل الله الغنى فى قلوب هذه الأمة ، فيمكث سبعاً أو تسعاً ، ثم لا خير فى عيش الحياة بعده ، وقد ورد فى ظهور المهدى ، وصفته ، وأحواله ، واسمه واسم أبيه ، مالا يدع مجالا للشك فيه ، حتى أفردوه بالرسائل والمؤلفات ، قال الشوكانى فى مؤلف له سماه (التوضيح فى تواتر ماجاء فى المنتظر والدجال والمسيح) : والأحاديث الواردة فى المهدى التي أمكن الوقوف عليها : منها خمسون حديثا فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر ، وهى متواترة بلا شك ولا شبهة ، بل يصدق وصف التواتر على مادونها ، على جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول ، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدى فهى كثيرة أيضا ، لها حكم الرفع ، إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك اهـ ومن

أراد أن يستوفى أخبار المهدى وأشراط الساعة فعليه بكتاب « الاشاعة فى أشراط الساعة » للبرزنجى . ومن علامات الساعة الكبرى خروج الدجال ، فهو يخرج فى زمن المهدى فيفتن الناس فتنة لم توجد ولن توجد فتنة مثلها واسمه مسيح الضلالة ، وعيسى عليه السلام اسمه مسيح الهدى ، و قد أفردوه بالتأليف ، وقد ورد فيه أحاديث و آثار لا تدع موضعاً للشك ولا محلا للريب ، فعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما بين « يعنى ليس بين » خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن أمه : ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ومن دعواته ﷺ اللهم إنى أعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وعن عبيدة رضى الله عنه : لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر قومه الدجال ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على أنه فتنة كبرى وضلال كبير نعوذ بالله منه ، وهو لعنه الله يخرج من أرض العراق ويمر ببلاد الأرض ، ويصده الله عن مكة والمدينة فلا يدخلهما ، ثم ينزل عيسى عليه السلام ونزوله من علامات الساعة الكبرى ، ينزل فيجتمع بالمهدى وينصره ويقتل الدجال ، قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) يعنى عيسى عليه السلام ، وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) يعنى عيسى عليه السلام . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال

قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية : الحديث رواه الشيخان ، ونزوله يكون بالشام عند دمشق ، ثم يموت المهدى ثم يموت عيسي عليه السلام بالمدينة ويدفن مع رسول الله ﷺ ، أخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى وابن عساكر عنه ، قال يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله ﷺ وصاحبيه فيكون قبره رابعاً ، وعن عبد الله بن عمر مرفوعا ، ينزل عيسى بن مريم فيتزوج ويولد له فيمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معى فى قبرى فأقوم أنا وعيسي ابن مريم من قبر واحد بين أبى بكر وعمر اه ، ثم يفتح سد يأجوج ومأجوج ، وهو من العلامات الكبرى ، وذلك فى زمن عيسى عليه السلام ، قال تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا) والمراد سد يأجوج ومأجوج ، ثم تخرج الدابة ، وهى من العلامات الكبرى ، قال تعالى : (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) والمعنى إذا جاءت الساعة وصدق وعد الله فى كتابه أخرج الله لهم دابة يقال لها الجساسة ، والله يعلم ما هى وما شكلها تكلمهم ببطلان الأديان ماعدا دين الاسلام ، وتنبئهم بأن الناس الكافرين كانوا بآيات الله لا يوقنون ، وهى تخرج من الصفا ليلة منى فتصيب وجه المؤمن والكافر فيصير لكل علامة يعرف بها المؤمن من الكافر ، ثم تطلع

الشمس من مغربها وذلك من العلامات الكبرى ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، وقال جمهور المفسرين فى قوله تعالى : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً) قالوا هو طلوع الشمس من مغربها ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) قال طلوع الشمس والقمر من مغربهما مقترنين كالبعيرين القرينين ثم قرأ وجمع الشمس والقمر ، وحينئذ يرتفع الايمان بموت المؤمنين ، ولا يبقى على الأرض إلا الكافرون وأولئك شرار الناس عليهم تقوم الساعة ، فعن أنس رضى الله عنه ، قال لا تقوم الساعة حتى لا تقال فى الأرض لا إله إلا الله ، ثم تخرج نار من عدن تدور بالأرض كلها فتحشر الناس وتسوقهم سوقا ، تمكث ثمانية أيام ، ثم تشقق السماء بالغمام وتنثر الكواكب ، وينفخ فى الصور النفخة الاولى وهى نفخة الصعق فيفنى من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله تعالى إبقاءهم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وبعد أربعين سنة من النفخة الأولى يحيي الله إسرافيل ويأمره فينفخ فى الصور النفخة الثانية وهى نفخة البعث فتحيا الملائكة ، وإذا الناس قيام ينظرون ، يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، وإلى حساب ربهم يحشرون ، فاذا هم بين يدى الله موقوفون ، وعلى

أعمالهم يحاسبون ، فيشتد الكرب ويتمني الناس الذهاب ولو إلى النار فيشفع لهم خير الأنبياء شفاعته العظمى ، فيساق أهل النار إلى النار ، وتتلقى الملائكة أهل الجنة إلى الجنة ، ثم تكون للنبي ﷺ شفاعات أخرى حتى لا يبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان قال تعالى (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) هذا يكون بين يدى الساعة حتى تقوم الساعة ، وأما وقتها بالتحديد فلا يعلمه إلا الله تعالى . ولما كان السائلون من الكافرين أهل النار ناسب أن يبين حالهم يوم القيامة فقال جل شأنه : (إِنَّ اللّٰهَ) الذى عنده علم الساعة وعلم كل شيء (لَعَنَ) وأبعد وطرد (الْكَافِرِينَ) إبعاداً وطرداً تاماً من رحمته ، لكفرهم وسوء أعمالهم وقبح اعتقادهم ، مع ظهور الحجة على أنهم فى ضلال مبين ، فلم يعودوا إلى الحق فاستحقوا بذلك العذاب مع اللعن كما قال (وَأَعَدَّ) وهيأ وكتب (لَهُمْ) مع هذا الطرد فى الدنيا (سَعِيراً) ناراً شديداً ضرامها ، متأججاً لهيبها (خَالِدِينَ فِيهَا) فى هذه النار المستعرة الدائمة الاشتعال خلوداً (أَبَداً) دائماً ، وليس الخلود بمعنى المكث الطويل ،

بل هو خلود دائم لتأكيد الخلود بالتأبيد فى قوله (أَبَدًا) فلا يخرجون منها وهم مع هذا الخلود (لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا) يتولى إخراجهم منها أو تخفيف حرها عنهم (وَلَا) يجدون (نَصِيرًا) ينصرهم بأى نوع من أنواع النصر ، فهم سيفقدون الولى والنصير ، والشفيع والمعين سيرون كل ذلك (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ) تقلباً كثيراً فى النار يتجهون بها فى كل وجهة فلايجدون إلا ضراماوسعيراً و تأججاولهيباً فعندئذ (يَقُولُونَ) نادمين على مافعلوه فى الدنيا (يَا) من معنا فى هذه النار (لَيْتَنَا) لما كان فى الدنيا (أَطَعْنَا ٱللَّهَ) تعالى فى كل ماأمرنا به ونهانا عنه فى كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين (وَأَطَعْنَا) وياليتنا أطعنا (ٱلرَّسُولاَ) النبى الأمى المرسل رحمة للعالمين وهدى وبشرى للمسلمين ، وزيدت الألف فى الرسول وقفاً على قراءة ، ووقفا ووصلا على قراءة ، وحذفت وقفاً ووصلا على قراءة وهى القياس ، وهذه القراءات وردت فى لفظ (الظُّنُونَا) ولفظ (السَّبِيلَا) فى هذه السورة ، وهذا التمنى لا يغنيهم شيئاً ، ولا ينفعهم مما هم فيه من عذاب أليم ، (وَقَالُوا) وهم فى أشد الحسرة على مافاتهم فى الدنيا تسائلهم أنفسهم ، من منعكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ، فأجابوا ضارعين إلى الله مستغيثين به مما هم فيه (رَبَّنَا) ليس الذنب ذنبنا وحدنا (إِنَّا) لما كنا فى الدنيا (أَطَعْنَا سَادَتَنَا) الذين صرفونا عن الايمان ، وزينوا لنا طريق الشيطان ، وصدونا عن سبيل

الرحمن (وَكُبَرَاءَنَا) وأطعنا كبراءنا فى الكفر والسير خلفهم فى ضلالهم البعيد (فَأَضَلُّونَا) معهم (السَّبِيلَا) القويم سبيل الله المستقيم وسلكوا بنا طريق الشيطان الرجيم (رَبَّنَا) بسبب إضلالهم إيانا، وإضرارهم بنا (آتِهِمْ) وأنزل بهم (ضِعْفَيْنِ) مثلين (مِنَ الْعَذَابِ) الذى أنزلته بنا، عذاب لضلالهم وعذاب لاضلالهم، فهم قد ضلوا وأضلوا (وَالْعَنْهُمْ) واطردهم من رحمتك إلى عذابك (لَعْنًا كَبِيرًا) عظيما بتشديد العذاب عليهم، وإنزال أشد النكال بهم، ثم ضرب الله مثلا للذين يخالفون رسول الله ﷺ بقوم موسى عليه السلام الذين نسبوا إلى موسى عليه السلام ماليس فيه فآذوه بذلك، ولكن الله برأه مما قالوا فيه ونسبوا إليه، فكذلك أنتم يأهل مكة ويأقوم هذا النبى الكريم، لا تؤذوا رسول الله ﷺ بنسبة ما ليس فيه إليه، كرميه بالسحر والكهانة أو الشعر أو أنه أتى بأساطير الأولين، فانه برىء مما تقولون، وعليكم الوزر والاثم وله ﷺ ثواب الله تعالى والدار الآخرة، فقال جل شأنه: (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى ورسوله ﷺ (لَا تَكُونُوا) فى موقفكم معه ﷺ (كَالَّذِينَ) كموقف الذين (آذَوْا) بأعمالهم وألسنتهم (مُوسَىٰ) عليه السلام، فلا تصدوا عن سبيله، ولا تنسبوا إليه ماهو منه برىء مما لا يليق بمقامه الكريم، ولا ينبغى مع فضله العظيم، نزلت هذه الآية فى إيذائهم النبى ﷺ بالكلام عند تزوج السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها، فأظهر

الله تعالى لهم أنه لم يفعل ذلك لنفسه وإنما أمر به كما قال تعالى (زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) فلا معنى للكلام والقيل والقال الذي يؤذى رسول الله ﷺ لأن ذلك كان بأمر ربه (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ) فبرأ الله تعالى نبيه موسى عليه السلام (مِمَّا قَالُوا) فقد قالوا حين رأوا موسى عليه السلام يبالغ في ستر جسمه حياء من الله تعالى: إن بجسمه عيباً كبرص أو غيره. أخرج الامام أحمد والبخارى والترمذى، وجماعة من طريق أبي هريرة رضى الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: إن موسى عليه السلام كان رجلا حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، وقالوا مايستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة، وإما آفة. وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا: وإن موسى عليه السلام خلا يوما وحده، فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ماخلق الله تعالى، وبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربا بعصاه؛ فذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) وقيل إن الله تعالى برأه من قتل هرون، فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن على

كرم الله وجهه أنه قال فى الآية : صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى أنت قتلته ، كان أشد حبا لنا منك وألين ، فآذوه من ذلك ، فأمر الله تعالى الملائكة عليهم السلام فحملوه فمروا به على مجالس بنى إسرائيل ، وتكلمت الملائكة عليهم السلام بموته فبرأه الله تعالى ، فانطلقوا به فدفنوه ولم يعرف قبره اه وقد آذوه بأشياء أخر برأه الله منها جميعا (وَكَانَ) موسى عليه السلام بالرغم منهم (عِنْدَ اللهِ) تعالى فى علمه وأزله وفى الدنيا والآخرة (وَجِيهاً) ذا جاه لا عيب فيه ولا مطعن ، وقال ابن عباس : كان عظيما عند الله تعالى ، لا يسأله شيئا إلا أعطاه ، وقال الحسن كان مجاب الدعوة وقد كلمه الله جل شأنه ، وقد لقب : كليم الله ، بذلك وبغيره كان موسى عليه السلام عند الله وجيها مقربا مقبولا ؛ وقد أوذى سيدنا محمد ﷺ بكثير وصبر حتى بلغ رسالته على أتمها ، وأدى أمانته على وجهها ، أوذى بعد البعثة وقبل الهجرة وبعد الهجرة كما هو مبين فى كتب السير . ومما أوذى به عليه الصلاة والسلام أنه قسم قسما يوم حنين فآثر قوما يتألفهم ويرغبهم فى الاسلام ، فقال رجل : هذه قسمة والله ماعدل فيها وما أريد بها وجه الله ، قالها فى غيبته ﷺ فلما بلغته تغير وجهه وقال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، ثم قال : يرحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر ، والنهى عن إيذائه ﷺ عام فى حياته وبعد وفاته ، فمن نسب إليه ﷺ شيئا وتردى فى هذه الهوة فهو آثم

خاطىء ظالم لنفسه .فليحذر الذين يجترئون على هذا المقام المحفوظ بعناية الله وعصمته ، أن ينسبوا إليه مالا يليق بالعصمة ، ولا ينبغى بمقام النبوة (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) وهذا ما أكده الله تعالى بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) تعالى حق تقاته ، ولا تقولوا على رسوله مالا يليق بمقامه (وَقُولُوا) فيه في أمر زينب وغيرها وفى كل أحواله وفى كل أقوالكم (قَوْلًا) رشيداً (سَدِيدًا) صوابا حقاً وصدقا وعدلا إن اتبعتم هذا (يُصْلِحْ) الله تعالى (لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) فيجازيكم عليها بأحسن الثواب ، وبالأضعاف المضاعفة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) بسبب أقوالكم السديدة ، وأعمالكم الحميدة (ذُنُوبَكُمْ) التى سبقت منكم ، ومنها ما فرطتم فيه فى حقه ﷺ فالأولى لكم أن تأتمروا بأمره ، وتستمعوا لنهيه، فإنما ذلك من ربه ، فمن أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ) تعالى فيما أمر به ونهى عنه (وَرَسُولَهُ) ويطع رسوله ﷺ فيما بلغ ودعا (فَقَدْ فَازَ) بالسعادة فى الدنيا والآخرة (فَوْزًا) كبيراً (عَظِيمًا) لايعادله أى فوز آخر دنيوى مهما يكن من ملك ومال وجاه وعز و بنين وحاشية وخدم فانه ولو طال إلى زوال، ولما أرشد الله تعالى المؤمنين فى السورة إلى مكارم الأخلاق، وأدب نبيه ﷺ بأكمل الآداب ، بين أن هذا الدين الذى به تسعدون ، وأن

هذه التكاليف التي بعملها تفوزون ، هي أمانة الله تعالى أداها المرسلون عليهم الصلاة والسلام إلى أممهم ، فمن احتفظ بتلك الأمانة ، وعرف لها حقها ، بأدائها على وجهها كان من المغفور لهم أهل الفوز والفلاح ، ومن ظلمها حقها ، ولم يؤد مالها ، كان من المعذبين الضالين ، فقال جل شأنه (إِنَّا عَرَضْنَا) عرض تخيير لا إلزام فيه (الْأَمَانَةَ) الصلوات وغيرها مما في فعلها ثواب ، وفي تركها عقاب ، قال ابن عباس أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده ، عرضها الله تعالى (عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) عرضها على أعيانها كما يعلم جل شأنه عرض تخيير لا إلزام فيه ولو ألزمهن لحملنها (فَأَبَيْنَ) إباء إشفاق وخوف ، لا إباء مخالفة وعصيان (أَنْ يَحْمِلْنَهَا) ويقمن بواجبها (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) وخفن خوفا شديداً ألا يؤدين حقها فيقعن في مخالفة الخلاق العليم (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) وهو آدم عليه السلام وذريته ، قال له ربه إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها ، فهل أنت آخذ بما فيها . قال : وما فيها ، قال : إن أحسنت جوزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فحملها آدم فقال له ربه : أما إذا تحملت الأمانة فسأعينك وأجعل لبصرك حجابا ، فاذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فأرخ عليه حجابه ، وأجعل للسانك لحيين وغلافا ، فاذا خشيت فأغلق عليه ، واجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه على ما حرمت عليك ، فلما حملها على هذا ابتلاه ربه وأخرجه من الجنة ، وكان ما كان منه ومن

ذريته إلى الآن وإلى يوم القيامة (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)
وأكد الله تعالى أن حمل الأمانة من أشق الأمور فقال جل شأنه :
(إِنَّهُ) إن الانسان والمراد به غير آدم وغير الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام (كَانَ) بطبعه (ظَلُومًا) يظلم نفسه فلا يؤدى الأمانة حقها
(جَهُولاً) حيث يعكف على ما يضره ويترك ما ينفعه من التكاليف التى لو
أداها لحظى بسعادتى الدنيا والآخرة ، وكانت التكاليف والديانات ،
والرسل والأمانات ، ليظهر الصادق من الكاذب ، والمخلص من المنافق
والمؤمن من الكافر ، فيثيب الله المؤمنين ، ويعذب العصاة والمذنبين ،
كما قال تعالى : (لِيُعَذِّبَ) والمعنى حمل جل شأنه الأمانة للانسان
(لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ) تعالى بسبب العصيان والمخالفة (ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ)
الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ويؤذون الله ورسوله
(وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ) الذين يعبدون مع الله غيره ، حملهم الله
الأمانة على أيدى رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأقام لهم الحجة على
الحق ، فخالفوا وعصوا ، وأشركوا فعذبهم الله جميعاً ، وأعد لهم جهنم
وساءت مصيراً ، وأما المؤمنون فرعوا حق الأمانة وأدوها على وجهها
فتاب الله عليهم ، وغفر لهم ما فرط منهم وتابوا منه كما قال تعالى :
(وَيَتُوبَ ٱللَّهُ) والتعبير بالمضارع فى يتوب ويعذب للدلالة على
تجدد العذاب والتوبة عقابا للمنافقين ، ورحمة بالمؤمنين ، فهو ينشر
رحمته فى الآخرة (عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ) الذين أدوا الأمانة

حقها (وَكَانَ اللهُ) فى كل الأقوات والاحوال (غَفُوراً) كثير الغفران والصفح عمن تاب وأناب (رَّحِيماً) كثير الرحمة والاحسان بفتحه أبواب التوبة والمغفرة لكل راجع عن ذنبه ، مقلع عن عصيانه ، فضلا منه ونعمة ، وفى الاختتام بأنه غفور رحيم دعوة لكل مذنب وكل طامع فى فضل ربه ، أن يلجأ إليه جل شأنه تائباً منيباً ، سامعاً مطيعاً ، وفقنا الله فى كل أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا إلى مافيه رضاه من العمل الحكيم ، والسير على نهج دينه القويم ، والاقتداء بنبيه الكريم (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وتم تفسير سورة الأحزاب بعون الله تعالى وتوفيقه ، فله الحمد والمنة ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ؟

عبد الفتاح خليفة

فهرست تفسير سورة الأحزاب

تمت الفهرس

ولله الحمد

« بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٦ الموافق ٧ يوليه سنة ١٩٣٧ »